دراسة موضوعية حول

شكر النعمة

في القرآن الكريم والسنة الصحيحة

- تعريف النعمة ومفهومها الحقيقي.
- نعم الله في السماء والأرض وذات الإنسان.
- نعم خاصة غفل عنها كثير من الخلق.
- حقيقة الشكر وكيفيته.
- ثمرات الشكر وآثاره.
- جحود النعمة وكفرانها «الأسباب وطرق العلاج»
- صور من الجحود وآثاره على الفرد والمجتمع.

تأليف الدكتور
محمود أحمد سعيد الأطرش
دكتوراة في التفسير وعلوم القرآن الكريم

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط الديني
فاكس: ٥٤٥١٧٦٩ ت: ٥٢٢٢٠٠٢

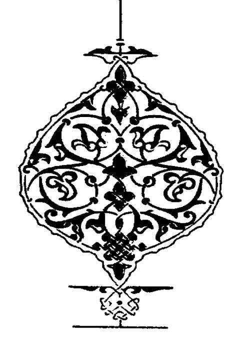
دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩



رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

٢٠٠٧/٣٢٣٨

الترقيم الدولي
977-331-183-x



دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٩،١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤١١٩١٠ - ٠٢-٥٢٢٢٠٠٢
E-mail: dar_aleman@hotmail.com

شُكْرُ النِّعْمَةِ

فِي القُرآنِ الكَرِيمِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ



المقدمـــة

عرض القرآن الكريم الكثير من النعم، وحثنا على القيام بشكرها، وبين لنا أن الإنسان لايمكنه بأي حال حصر هذه النعم.. وبالتالي لايستطيع القيام بشكرها. لذا ينبغي عليه أن يحس بتقصيره عن شكر ما أنعم الله عليه.

وتدل كثرة النعم على عظم عناية الله تعالى ورحمته بالإنسان، إذ سخر له كل ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه.

لذلك كان عرض نعم الله التي لاتعد ولاتحصى من أعظم مايربط الإنسان بربه ويشعره بعناية الله ورحمته به. وإن شكر هذه النعم تجعل الإنسان دائم الصلة بربه.

والملاحظ في عرض القرآن للنعم أنها نعم معتادة يلاحظها العامي والمتعلم ويدرك منها عناية الله به، أما المتعلم فيدرك سرها في الظاهر والباطن ويلوح له منها أمور تزيده إيمانا بربه وشعوراً بعظمة الله وجلالة قدره ومدى عنايته بالإنسان وجميع المخلوقات، لذلك كان العلماء أشد خشية لله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

لذلك يعرض هذا البحث نعم الله في القرآن الكريم ويصوغها في موضوع واحد.. ثم يبين كيفية شكرها كما بينه كتاب الله تعالى ووضحته سنة النبي ﷺ ويعرض ثمرات الشكر وآثاره وصوراً من شكر الشاكرين لربهم ليقتدي بهم الشاكرون، كما يبين أن مرتبة الشكر من أعظم مراتب الدين.. ثم يبين حقيقة جحود النعمة ويبين أسباب الجحود وعلاجه، ويعرض صوراً من جحود الجاحدين وكيفية عقاب الله لهم.

وبذلك تظهر أهمية هذا البحث لما له من أثر بالغ في حياة الفرد والمجتمع وحتى يميز المرء بين ما يعطيه الله من النعم استدراجاً وتدبيراً وبين مايعطيه مكافأة للمؤمنين، فالنعم يعيطها الله تعالى للمؤمنين والجاحدين على حد السواء، لكنه يعطيها للمؤمنين

مكافأة على شكرهم، وقد يمنع بعضهم ابتلاء، ويعطيها تعالى للجاحدين مكراً بهم واستدراجاً لهم ليزدادوا في غيهم ثم يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، كما أعطى الله لفرعون وقارون وغيرهما حتى علوا واستكبروا ثم أخذهم وهم في غيهم واستكبارهم.

الجهود السابقة التي كتبت في هذا الموضوع:

١ – ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر لله عزوجل»، وقد قام بجمع الأحاديث المتعلقة بالموضوع وعمله فقط في جمع أهم أحاديث الشكر.. وقد حققه الشيخ عبد القادر الأرناؤوط.

٢ – محمد بن جعفر الخرائطي وله كتاب صغير الحجم اسمه «فضيلة الشكر»، وقد قام أيضا بجمع أحاديث في الشكر، على غرار الكتاب السابق، إلا أنه غير محقق وتغلب عليه الأحاديث الضعيفة.

٣ – الإمام أبو حامد الغزالي بكتابه «إحياء علوم الدين»، وقد كتب فيه بحثًا مطولاً عن الشكر.

٤ – الإمام ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين»، وكتب فيه بحثاً غير مطول عن الشكر.



تمهيـــد

نعم الله تعالى لاتعد ولا تحصى، قال جل شأنه: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وإذا كان الإنسان لايعرف نعمة الله عليه، فكيف له أن يقوم بشكرها ؟ وقد أخبر الله تبارك وتعالى أن الإنسان قد أحيط بنعم لو أفنى عمره كله في عد نعم الله عليه لما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ولو تأملنا نعم الله تعالى فيما أشار إليه القرآن الكريم لوجدنا أنها نعم عظيمة جداً، فقد سخر الله تبارك وتعالى كل ما في السموات والأرض لهذا الإنسان، يقول تبارك وتعالى: ﴿ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل ١٠ - ١٨].

فقد سخر الله تبارك وتعالى هذا الكون بكل ما فيه لهذا الإنسان الضعيف، إما مباشرة أو بموافقة نظام الكون لحياة البشر وحاجاتهم.

وكذلك لو تأملنا ذات الإنسان لوجدناه يسبح في بحر من النعم لا تعد ولا

تحصى، ابتداء من وجوده وخلقه من العدم ونفخ الروح فيه ثم ولادته وتهيئة حاجياته من الطعام واللباس والشراب، وتسوية خلقته، وإعطائه السمع والبصر والفؤاد، إلى غير ذلك من النعم التي ميزه الله في كثير منها عن بقية المخلوقات.

ولهذا سيكون الحديث - إن شاء الله - عن النعم على الشكل التالي:

١- نعم الله في الكون (في السماوات والأرض).

٢- نعم الله في ذات الإنسان وما أحاطه به.

٣- نعم خاصة، يخص بها أفراداً أو أقواماً دون آخرين.

وقبل الحديث عن نعم الله في القرآن الكريم لابد من تعريف النعمة وبيان المفهوم الحقيقي لها.



الباب الأول

نعم الله في القرآن الكريم

الفصل الأول
تعريف النعمة ومفهومها

- المبحث الأول: تعريف النعمة لغة واصطلاحاً
- المبحث الثاني: صيغ النعمة ومفهومها
- المبحث الثالث: المفهوم الحقيقي للنعمة

المبحث الأول
تعريف النعمة لغة واصطلاحاً

أولا: تعريف النعمة لغة

تدل كلمة «النعمة» في أصل اللغة على الحالة التي يستلذها الإنسان، فأطلقت على ما يستلذه الإنسان من النعمة، ويراد بها رفاهية وطيب في العيش.

قال الفيروزآبادي في «القاموس المحيط»: (النعيم والنُّعمى - بالضم -: الخفض والدعة والمال، كالنعمة - بالكسر - وجمعها: نعم وأنعم. والتنعم: الترفه، والاسم: النعمة - بالفتح، والناعمة والمناعمة، المنعمة - كمعظمة -: الحسنة العيش والغذاء.. وكلام منعم - كمعظم - لين، والنعمة - بالكسر -: المسرة واليد البيضاء الصالحة، كالنعمى - بالضم - والنعماء - بالفتح ممدودة - وجمعها: أنعم ونعمات - بكسرتين، وتفتح العين.. ونعم العود: اخضر ونضر.. والنعم - وقد تسكن عينه - الإبل والشاء أو خاص بالإبل)[١].

وقال في لسان العرب: (النعيم والنعمى والنعماء والنعمة، كله: الخفض والدعة والمال، وهو ضد البأساء والبؤسى.. وجمع النعمة: نعم وأنعم.. والنعم - بالضم - خلاف البؤس، يقال: يوم نعم ويوم بؤس، والجمع: أنعم وأبؤس، ونعم الشيء نعومة أي صار ناعماً ليناً.. والتنعم: الترفه، والاسم: النعمة.. والنعمة - بالفتح - التنعيم... والنعمة: اليد البيضاء الصالحة، والصنيعة، والمنة، ما أنعم به عليك. ونعمة الله - بكسر النون -: منه وما أعطاه الله العبد مما لا يمكن غيره أن يعطيه إياه كالسمع والبصر،

---

(١) «القاموس المحيط» مجد الدين الفيروزآبادي، باب الميم فصل النون.

والجمع منهما: نعم وأنعم، قال ابن جني: «جاء ذلك على حذف التاء فصار كقولهم ذئب وأذؤب.. والنعمى: كالنعمة، فإن فتحت النون مددت فقلت: النعماء والنعيم مثله... والنعمة - بالكسر: اسم من أنعم الله عليه إنعاماً ونعمة، أقيم الاسم مقام الإنعام...» (١).

فأصل كلمة النعمة تدل على الحالة التي يستلذها الإنسان، قال أبو السعود «وهي في الأصل: الحالة التي يستلذها الإنسان من النعمة وهي اللين، ثم أطلقت على ماتستلذه النفس من طيبات الدنيا» (٢).

ثانيا: تعريف النعمة اصطلاحا

إذا كان معنى النعمة في أصل اللغة الحالة المستلذة، فإنه قد يكون هناك لذة في المعاصي، ولهذا قيدها بعضهم بما تحمد عاقبته. قال الآلوسي عن النعمة:

«وهي في الأصل: الحالة المستلذة.. وفى معنى ذلك قولهم: هي ما ينتفع به ويستلذ، ومنهم من زاد: ويحمد عاقبته.. وقال بعضهم: لا حاجة لهذه الزيادة لأن اللذة عند المحققين: أمر تحمد عاقبته.. ونقل الطيبي عن الإمام أنه قال: النعمة عبارة عن المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير، ومنهم من يقول: المنفعة الحسنة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير، قالوا: وإنما زدنا قيد الحسنة لأن النعمة يستحق بها الشكر، وإذا كانت قبيحة لايستحق بها الشكر. والحق أن هذا القيد غير معتبر، لأنه يجوز أن يستحق الشكر بالإحسان وإن كان فعله محظوراً، لأن جهة الشكر كونه إحسانا، وجهة استحقاق الذم والعقاب الحظر، فأي امتناع في اجتماعهما؟! ألا ترى أن الفاسق يستحق الشكر لإنعامه والذم لمعصية الله تعالى، فلم لايجوز أن يكون الأمر ههنا كذلك؟ أما قولنا: المنفعة، فلأن المضرة المحضة لاتكون نعمة، وقولنا المفعولة على

---

(١) «لسان العرب»، جمال الدين ابن منظور.
(٢) «تفسير أبي السعود» (١/١٨).

جهة الإحسان: لأنه لو كان نفعاً وقصد الفاعل به نفع نفسه لانفع المفعول به لايكون نعمة، وذلك كمن أحسن إلى جاريته ليربح عليها»[١].

عكس النعمة: ويتضح مفهوم النعمة من خلال معرفة ضدها، ويضادها «البؤس» ومعنى البؤس: الشدة والمكروه، سواء كان في النفس أو في الجسم، كالفقر والمرض والبلاء وغيره، ويراد به كل ما لا يستلذه الإنسان ولا يرغب فيه، قال الراغب الأصفهاني: «البؤس والبأس والبأساء: الشدة والمكروه، إلا أن البؤس في الفقر والحرب أكثر، والبأس والبأساء في النكاية، نحو ﴿**وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً**﴾ [النساء: ٨٤]، ﴿**فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ**﴾ [الأنعام: ٤٢]... وقد بؤس يبؤس، وعذاب بئيس فعيل من البأس أو من البؤس، فلا تبتئس أي تلتزم البؤس ولاتحزن، وفي الخبر أنه ﷺ كان يكره البؤس والتباؤس والتبؤس: أي الضراعة للفقراء أو أن يجعل نفسه ذليلاً ويتكلف ذلك جميعاً. وبئس: كلمة تستعمل في جميع المذام، كما أن نعم تستعمل في جميع الممادح»[٢].



(١) «روح المعاني»، للألوسي (٢١/٩٣)..
(٢) «المفردات»، للراغب، مادة (بؤس).

المبحث الثاني
صيغ النعمة ومفهومها

وردت كلمة النعمة في القرآن الكريم بعدة صيغ وهي:

١- النعمة - بكسر النون - ويراد بها الإنعام، وما ينعم به. وبناؤها بناء الحالة والهيئة كالجلسة والركبة[(١)]، وتقال للجنس القليل أو الكثير.

٢- النعمة - بفتح النون - ويراد بها التنعم. وبناؤها بناء المرة من الفعل كالضربة والشتمة.

ولعلها استخدمت في الحديث عن التنعم المنهي عنه، فاستخدمت في الحديث عن تنعم الكافرين في الدنيا، قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ [الدخان: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ١١][(٢)]

٣- النعمة والنعمى - بضم النون -، ويراد بها المسرة. والنعمى نقيض البؤسى.

قال الألوسي: «فالنعمة - بالفتح: التنعم، وأما بالكسر فهي الإنعام وما ينعم به، وأما بالضم فهي المسرة»[(٣)].

٤- النعيم وهو النعمة الكثيرة[(٤)].

---

(١) «المفردات»، مادة (نعم).

(٢) وقد نهى رسول الله ﷺ عن التنعم، فقد روى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ لما بعث به إلى اليمن قال: «إياي والتنعم، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين». (المسند)، للإمام أحمد (٢٤٣/٥).

(٣) «روح المعاني» (١٠٧/٢٩).

(٤) «المفردات»، مادة (نعم).

المبحث الثالث
المفهوم الحقيقي للنعمة

والنعمة بحد ذاتها لاتكون إلا بالنظر إلى أمر آخر، فالنعمة الحقيقية هي بالسعده الأخروية أو مايوصل إليها، فإن كانت اللذة والسعادة مقصورة على الأمور الدنيوية فليست بنعمة، إذ كل نعمة لا تقرب من الله تعالى فهي بلية وليست بنعمة، وقد تكون النعمة في أمور لا تستطيبها النفس، لكن بالنظر إلى العاقبة تكون نعمة عظيمة، فقد يكون الابتلاء نعمة عظيمة، وقد تكون السعادة الدنيوية بلاء عظيماً.

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في «الإحياء»: «اعلم أن كل خير ولذة وسعادة، بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة بالحقيقة هي السعادة الأخروية. وتسمية ماسواها نعمة وسعادة: إما غلط، وإما مجاز، كتسمية السعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة نعمة، فإن ذلك غلط محض، وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقاً ولكن لا يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق، فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها إما بواسطة واحدة وإما بوسائط، فإن تسميته نعمة صحيحة وصدق، لأجل أنه يفضي إلى النعمة الحقيقية»[(١)].

أخرج ابن أبي الدنيا عن أبي حازم قال: «كل نعمة لا تقرب من الله عز وجل فهي بلية»[(٢)].

ويقول أبو حامد الغزالي: «نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن أسفل

(١) «إحياء علوم الدين» أبو حامد محمد الغزالي (٤/٩٩)، دار المعرفة، بيروت.

(٢) «كتاب الشكر» لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا، حديث رقم (٢٠) تحقيق/ عبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الأولى، دار ابن كثير، دمشق. وأخرجة الخرائطي في كتاب «فضيلة الشكر» برقم (٧٥). وأبو حازم هو: سلمة بن دينار الأعرج، شيخ المدينة المنورة، ولد أيام ابن الزبير وابن عمر.

السافلين، خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب.. وكل ما خلق في الدنيا إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة، ونيل القرب من الله تعالى»(١).

فالنعمة الحقيقية هي التي توصل إلى السعادة الأخروية سواء كانت ماتستلذه النفس أو تستكرهه النفس، ولهذا كان البلاء بالنسبة للمؤمن نعمة عظيمة، أخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الله بن المبارك عن سفيان؛ قال: «كان يقال: ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة»(٢).

ولهذا نجد أن القرآن الكريم ذم على الجاحدين فهمهم الخاطئ للنعمة، فقال تبارك وتعالى: ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ [الفجر: ١٦].

يقول ابن كثير: «يقول تعالى منكراً على الإنسان في اعتقاده إذا وسع الله تعالى عليه في الرزق ليختبره في ذلك فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له، وليس كذلك بل هو ابتلاء وامتحان، كما قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٥]، وكذلك في الجانب الآخر: إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق يعتقد أن ذلك من الله إهانة له، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّا ﴾ أي: ليس الأمر كما زعم، لا في هذا ولا في هذا، فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالتين، إذا كان غنيا بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيرا بأن يصبر»(٣).

ويقول سيد قطب: «فهذا هو تصور الإنسان لما يبتليه الله به من أحوال، ومن بسط وقبض، ومن توسعة وتقدير.. يبتليه بالنعمة والإكرام، بالمال أو المقام، فلا يدرك أنه

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٨٨/٤).
(٢) «كتاب الشكر» رقم (٨٠).
(٣) «تفسير ابن كثير» (٥١٠/٤).

الابتلاء تمهيداً للجزاء، إنما يحسب هذا الرزق وهذه المكانة دليلاً على استحقاقه عند الله للإكرام، وعلامة على اصطفاء الله له واختياره، فيعتبر البلاء جزاء، والامتحان نتيجة! ويقيس الكرامة عند الله بعرض هذه الحياة! ويبتليه بالتضييق عليه في الرزق، فيحسب الابتلاء جزاء كذلك، يحسب الاختبار عقوبة، ويرى في ضيق الرزق مهانة عند الله، فلو لم يرد مهانته ما ضيق عليه رزقه..

وهو في كلتا الحالتين مخطئ في التصور ومخطىء في التقدير. فبسط الرزق أو قبضه ابتلاء من الله لعبده، ليظهر منه الشكر على النعمة أو البطر، ويظهر منه الصبر على المحنة أو الضجر، والجزاء على ما يظهر منه بعد. وليس ما أعطى من عرض الدنيا أو منع منه هو الجزاء.. وقيمة العبد عند الله لا تتعلق بما عنده من عرض الدنيا. ورضى الله أو سخطه لايستدل عليه بالمنح والمنع في هذه الأرض، فهو يعطي الصالح والطالح، ويمنع الصالح والطالح، ولكن ما وراء هذا وذلك هو الذي عليه المعول. إنه يعطي ليبتلي ويمنع ليبتلي. والمعول عليه هو نتيجة الابتلاء.

غير أن الإنسان – حين يخلو قلبه من الإيمان – لا يدرك حكمة المنع والعطاء ولا حقيقة القيم في ميزان الله.. فإذا عمر قلبه بالإيمان اتصل وعرف ما هنالك، وخفت في ميزانه الأعراض الزهيدة، وتيقظ لما وراء الابتلاء من الجزاء، فعمل له في البسط والقبض سواء، واطمأن إلى قدر الله به في الحالتين، وعرف قدره في ميزان الله بغير هذه القيم الظاهرة الجوفاء!»[1].

فإضافة الرزق والخيرات لا تكون نعمة إلا إذا استخدمت في ما يرضي الله تبارك وتعالى، وإلا تكون ابتلاء. ولهذا نجد أن الله تعالى يفيض على الكافرين بالأرزاق والخيرات استدراجاً لهم، يقول تبارك و تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

(١) «في ظلال القرآن»، سيد قطب (٦/٣٩٠٥).

الفصل الثاني
نعم الله في السماء

- المبحث الأول: نعمة الله في الليل والنهار
- المبحث الثاني: نعمة الله في النجوم
- المبحث الثالث: نعمة الله في الشمس والقمر
- المبحث الرابع: نعمة الله في الهواء والرياح

المبحث الأول
نعمة الله في الليل والنهار

الليل والنهار آيتان من آيات الله تبارك وتعالى، جعلهما الله مسخرين لخدمة الإنسان، وبما يتفق مع وجوده وفطرته التي فطره عليها، قال تبارك وتعالى: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ** ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

ومن خلال تتبع الآيات نجد أن الله تبارك وتعالى جعل الليل ليسكن فيه الإنسان ويرتاح وينام، وجعل النهار لطلب الرزق فقال تعالى: ﴿ **فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا** ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا** ﴾ [يونس: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا** ﴾ [النمل: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ [غافر: ٦١].

فمن نعمة الله على الإنسان أن جعل له الليل ليسكن فيه ويرتاح من عناء طلب الرزق، ولولا هذا لاختل نظام الإنسان وفسد جسمه، فلا يعرف متى يطلب الرزق ولامتى يرتاح أو يسكن أو ينام، لذلك جعل الله الليل للسكينة والراحة رحمة العباد، فقال تعالى: ﴿ **وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [القصص: ٧٣].

ولهذا يذكّر الله العباد ماذا سيكون حالهم لو كان الليل سرمداً أو النهار سرمداً، فقال تبارك وتعالى: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى**

﴿يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

ومعنى سرمداً أي: دائما مستمراً.

يقول ابن كثير: «يقول تعالى ممتناً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار اللذين لاقوام لهم بدونهما، بين أنه لو جعل الليل دائماً عليهم - سرمداً - إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم ولسئمته النفوس وانحصرت منه، ولهذا قال تعالى ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾، أي تبصرون به وتستأنسون بسببه ﴿أَفَلا تَسْمَعُونَ﴾؟ ثم أخبر تعالى أنه لو جعل النهار سرمداً، أي: دائماً مستمراً إلى يوم القيامة، لأضر ذلك بهم ولتعبت الأبدان وكلّت من كثرة الحركات والأشغال، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾، أي: تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ﴾ أي: بكم ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: خلق هذا وهذا «لتسكنوا فيه»، أي: في الليل، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾، أي: في النهار بالأسفار والترحال، والحركات والأشغال، وهذا من باب اللف والنشر. وقوله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: تشكرون الله بأنواع العبادات بالليل والنهار، فمن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار ومن فاته شيء بالنهار استدركه بالليل، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)﴾ [الفرقان: ٦٣][(١)].

يقول سيد قطب: «والناس لطول ما اعتادوا من كرّ الجديدين ينسون جدتهما المتكررة التي لاتبلى. ولا يروعهم مطلع الشمس ولا مغيبها إلا قليلاً، ولا يهزهم طلوع النهار وإقبال الليل إلا نادراً، ولا يتدبرون ما في تواليهما من رحمة بهم وإنقاذ من البلى والدمار، أو التعطل والبوار، أو الملل والهمود.

والقرآن الكريم يوقظهم من همود الإلف والعادة، ويلفتهم إلى تملي الكون من حولهم ومشاهده العظيمة؛ وذلك حين يخيل إليهم استمرار الليل أبداً أو النهار أبداً،

---
(١) «تفسير ابن كثير» ٣٠/٣٨٤.

وحين يخيفهم من عواقب هذا وذاك. ومايشعر الإنسان بقيمة الشيء إلا حين يفقده أو يخاف عليه الفقدان.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

والناس يشتاقون إلى الصبح حين يطول بهم الليل قليلاً في أيام الشتاء، ويحنون إلى ضياء الشمس حين تتوارى عنهم فترة وراء السحاب! فكيف بهم لو فقدوا الضياء، ولو دام عليهم الليل سرمداً إلى يوم القيامة؟ ذلك على فرض أنهم ظلوا أحياء. وإن الحياة كلها لمعرضة للتلف والبوار، ولو لم يطلع عليها النهار! ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

والناس يستروحون الظلال حين يطول الهجير عليهم ساعات من النهار، ويحنون إلى الليل حين يطول النهار بعض ساعات في الصيف، ويجدون في ظلال الليل وسكونه الملجأ والقرار، والحياة كلها تحتاج إلى فترة الليل لتجدد ما تنفقه من الطاقة في نشاط النهار، فكيف بالناس إذا ظل النهار سرمداً إلى يوم القيامة على فرض أنهم ظلوا أحياء؟ وإن الحياة كلها لمعرضة للتلف والبوار إن دام عليهم النهار!

ألا إن كل شئ بقدر، وكل صغيرة وكبيرة في هذا الكون بتدبير، كل شيء عنده بمقدار: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فالليل سكينة وقرار، والنهار نشاط وعمل، والمتجه فيه إلى فضل الله، فما يعطي الناس شيئاً إلا من فضله، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ما يسره الله لكم من نعمة ومن رحمة، وما دبّره لكم واختاره من توالي الليل والنهار، ومن كل سنن الحياة التي لم تختاروها، ولكن اختارها الله عن رحمة وعن علم وعن حكمة تغفلون عنها لطول الإلف والتكرار»[1].

(١) «في ظلال القرآن»، سيد قطب (٢٧٠٨/٥).

فالليل والنهار آيتان من آيات الله تبارك وتعالى جعلهما مسخرين لخدمة الإنسان، قال الشوكاني: «معنى تسخيرهما للناس: تصييرهما نافعين لهم بحسب ما تقتضيه مصالحهم وتستدعيه حاجاتهم، يتعاقبان دائماً كالعبد الطائع لسيده لا يخالف ما يأمره به، ولا يخرج عن إرادته، ولا يهمل السعي في نفعه»(١).

وفي الآيات التي مر ذكر ما ذكرت عن الليل أن الله جعله للسكينة وفي سورة الروم ذكر أنه جعل المنام في الليل، وهذا يدخل في السكينة، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣]، فمن رحمه الله تبارك وتعالى بالعباد أن جعل منامهم بالليل. والنوم لايقتصر مفهومه على أنه راحة للجسد من التعب والنشاط بل هو راحة للروح أيضاً، لذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ٩- ١١].

يقول سيد قطب: «وكان من تدبير الله للبشر أن جعل النوم سباتاً يدركهم فيقطعهم عن الإدراك والنشاط ويجعلهم في حالة لا هي موت ولا هي حياة، تتكفل بإراحة أجسامهم وأعصابهم وتعويضها عن الجهد الذي بذلته في حالة الصحو والإجهاد والانشغال بأمور الحياة.. وكل هذا يتم بطريقة عجيبة لايدرك الإنسان كنهها، وهي سر من أسرار تكوين الحي لا يعلمه إلا من خلق هذا الحي وأودعه ذلك السر؛ وجعل حياته متوقفة عليه، فما من حي يطيق أن يظل من غير نوم إلا فترة محدودة، فإذا أجبر إجباراً بوسائل خارجة عن إرادته كي يظل مستيقظاً فإنه يهلك قطعاً.

وفي النوم أسرار غير تلبية حاجة الجسم والأعصاب.. إنه هدنة الروح من صراع الحياة العنيف، هدنة تلم بالفرد فيلقي سلاحه وجنّته - طائعاً أو غير طائع - ويتسلم لفترة من السلام الآمن، والسلام الذي يحتاجه الفرد حاجته إلى الطعام والشراب.. ويقع ما يشبه المعجزات في بعض الحالات حيث يلم النعاس بالأجفان، والروح مثقلة، والأعصاب مكدودة، والنفس منزعجة، والقلب مروّع، كأنما هذا النعاس - وأحياناً لا

---

(١) «فتح القدير»، محمد بن علي الشوكاني (١٥٢/٣).

يزيد على لحظات - انقلاب تام في كيان هذا الفرد، وتجديد كامل لاالقواه بل له هو ذاته، وكأنما هو كائن حين يصحو جديد.. ولقد وقعت هذه المعجزة بشكل واضح للمسلمين المجهودين في غزوة بدر وفي غزوة أحد، وامتن الله عليهم بها، وهو يقول: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ .. ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾.. كما وقعت للكثيرين في حالات مشابهة!

فهذا السبات: أي الانقطاع عن الإدراك والنشاط بالنوم ضرورة من ضرورات تكوين الحي؛ وسر من أسرار القدرة الخالقة؛ ونعمة من نعم الله لا يملك إعطاءها إلا إياه، وتوجيه النظر إليها على هذا النحو القرآني ينبه القلب إلى خصائص ذاته، وإلى اليد التي أودعها كيانه، ويلمسه لمسة تثير التأمل والتدبر والتأثر.

وكان من تدبير الله كذلك أن جعل حركة الكون موافقة لحركة الأحياء، وكما أودع الإنسان سر النوم والسبات، بعد العمل والنشاط، فكذلك أودع الكون ظاهرة الليل ليكون لباساً ساترا يتم فيه السبات والانزواء، وظاهرة النهار ليكون معاشاً تتم فيه الحركة والنشاط.. بهذا توافق خلق الله وتناسق، وكان هذا العالم بيئة مناسبة للأحياء؛ تلبي ما ركب فيهم من خصائص، وكان الأحياء مزودين بالتركيب المتفق في حركته وحاجاته مع ما هو مودع في الكون من خصائص وموافقات، وخرج هذا وهذا من يد القدرة المبدعة المدبرة متسقاً أدق اتساق»[1].



(١) «في ظلال القرآن» (٣٨٠٥/٦).

المبحث الثاني
تسخير النجوم

يقـول علمـاء الفلك: «إن الأرض ليست إلا فـرداً من أفـراد الأسـرة الشـمسية، والأسرة الشمسية ليست إلا فرداً من أفراد المجموعة المجرّية، والمجموعة المجرّية ليست إلافرداً من أفراد مجموعة المدن النجومية التي في الفضاء. ثم إن هناك أيضا نيازك وشهباً وأقماراً ومذنبات.

ثم ما هو عدد النجوم في مجرتنا، وهي مايطلق عليها «درب التبانة» وهي التي تنتسب شمسنا وكواكبها إليها؟ فإذا نظر إليها بالعين المجردة فـإن العدد الكلى لهذه النجوم – سواء منها النجوم التي تظهر في نصف الكرة الشمالي، أو ما يظهر في النصف الجنوبي – لا يزيد على ستة آلاف.

ولكن إذا نظرنا إليها خلال المناظير القوية فإن الموقف يتغير تغيراً تاماً. فالعالم الفلكي «كابتين» يقدر عددها بـ (٤٠,٠٠٠). مليون نجم، وترتقي في تقدير «شابيلي» إلى (١٠٠,٠٠٠) مليون نجم، وقد قدر عدد المجرات بما يزيد على (١٠٠) مليون مجرة كل مجرة تحتوى على ملايين النجوم المشتعلة.

وما هي أحجام هذه النجوم بالنسبة للشمس؟

فالشمس نجم كسائر ما نرى في السماء من نجوم وهي إن تراءت لنا نجماً عظيماً فما ذلك إلا لقربها منا، وهي تمثل نجماً متوسطاً، فأصغر النجوم التي اكتشفت للآن نجم «فان مانن» إن زاد قدره عن الأرض فلا يزيد إلا قليلاً، فمليون من مثل هذا النجم يمكن أن يزج به في الشمس ويبقى محل لغيره، وهناك نجوم كمنكب الجوزاء هي من العظم بحيث يمكن أن يزج فيها بملايين كثيرة من نجوم كالشمس في الحجم وزيادة.

ثم ماهي أبعاد هذه النجوم عنا ؟

إن النجوم الشمسية التي تنتسب إليها الأرض تكاد تكون منعزلة انعزالاً تاماً في الفضاء بالنسبة لما تبعد عنها النجوم الأخرى، وإليك البيان:

الشمس تبعد عنا أقل من (٩٣) مليون ميل، أي أبعد (٤٠٠) مرة تقريباً من القمر، أما إذا احتجنا أن نقيس أبعاد النجوم الأخرى فلا يكفي الألف مليون بل لابد من مليون المليون، ولهذا اتخذ علماء الفلك من سرعة الضوء وحدة للقياس وقدرها العلماء بـ (١٨٦,٠٠٠) ميل في الثانية. فأبعد الكواكب السيارة وهو «بلوتو» الذي ينتسب للمجموعة الشمسية يستغرق الضوء المنبعث منه إلينا ما بين أربع ساعات وخمس، مع أن الضوء الآتي من أقرب النجوم يستغرق بين أربع سنوات وخمس، وأقصى ما توصلت إليه المراصد وآلات التصوير الحساسة رؤية مجموعات من النجوم تبعد عنا بمدى ألفي مليون سنة ضوئية.

ومما يلفت النظر أنه تبين أن مجموعتنا النجمية تدور ببطء حول محورها المركزي، ولقد وجد أيضا أن المجاميع النجمية الأخرى في حالة دوران مشابهة»[١].

إن هذه البلايين من النجوم الموزعة توزيعاً منتظماً في هذا الكون وتحركاتها وفق قانون معلوم بحيث لاتصطدم ببعضها البعض، جعلها الله تبارك وتعالى مسخرة لهذا الإنسان، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل: ١٢].

وقد بين الله تبارك وتعالى فائدة النجوم التي جعلها مسخرة للإنسان، فجعل فائدتها أن يهتدي بها السالكون في البر والبحر، فقال: ﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٦]،

(١) «روح الدين الاسلامي» ، عفيف طبارة (ص٦٩) ، الطبعة السابعة والعشرون ١٩٨٨م ، دار العلم للملايين، بيروت .

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ [الأنعام: ٩٧]، قال أبو السعود: ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل ١٦]، بالليل في البراري والبحار، حيث لا علامة غيره. والمراد بالنجم: الجنس.... وصرف النظم عن سنن الخطاب وتقديم النجم وإقام الضمير للتخصيص كأنه قيل: وبالنجم خصوصا هؤلاء هم يهتدون، فالاعتبار بذلك والشكر عليه ألزم لهم وأوجب عليهم»[1].

كما أشار القرآن إلى وظيفة أخرى من وظائف النجوم وهي أن الله جعلها زينة للسماء، فقال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات: ٦- ١٠].

يقول سيد قطب: «ونظرة إلى السماء كافية لرؤية هذه الزينة؛ لإدراك أن الجمال عنصر مقصود في بناء هذا الكون، وأن صنعة الصانع فيه بديعة التكوين جميلة التنسيق، وأن الجمال فيه فطرة عميقة لاعرض سطحي؛ وأن تصميمه قائم على جمال التكوين كما هو قائم على كمال الوظيفة سواء بسواء، فكل شيء فيه بقدر، وكل شيء فيه يؤدي وظيفته بدقة؛ وهو في مجموعه جميل.

والسماء وتناثر الكواكب فيها، أجمل مشهد تقع عليه العين، ولا تمل طول النظر إليه. وكل نجمة توصوص بضوئها وكل كوكب يوصوص بنوره؛ وكأنه عين محبة تخالسك النظر؛ فإذا أنت حدقت فيها أغمضت وتوارت وإن التفت عنها أبرقت ولمعت! وتتبع مواقعها وتغير منازلها ليلة بعد ليلة وآناً بعد آن متعة نفسية لا تملها النفس أبداً !

ثم تقرر الآية التالية أن لهذه الكواكب وظيفة أخرى، وأن منها شهباً ترجم بها الشياطين كي لا تدنو من الملأ الأعلى»[2].



(١) « تفسير أبي السعود » (٥/١٠٤).
(٢) «في ظلال القرآن» (٥ / ٢٩٨٤).

المبحث الثالث
نعمة الله في الشمس والقمر

الشمس والقمر آيتان من آيات الله تبارك وتعالى، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقد جعلهما الله تبارك وتعالى مسخرين لخدمة هذا الإنسان، فلولا وجود الشمس والقمر لانعدمت الحياة على سطح الأرض، وفي الشمس والقمر فوائد كثيرة أشارت إليها آيات القرآن الكريم.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، قال الزمخشري: ﴿ دَائِبَيْنِ ﴾ يدأبان في سيرهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات»[١]. وقال الألوسي: «أي دائمين في الحركة لايفتران إلى انقضاء عمر الدنيا»[٢].

ويقول سيد قطب: «﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ لا يستخدمهما الإنسان مباشرة كما يستخدم الماء والثمار والبحار والفلك والأنهار.. ولكنه ينتفع بآثارهما، ويستمد منهما مواد الحياة وطاقاتها، فهما مسخران بالناموس الكوني ليصدر عنهما ما يستخدمه هذا الإنسان في حياته ومعاشه، بل في تركيب خلاياه وتجديدها»[٣].

وقد وصف القرآن الشمس بأنها سراج وبأنها ضياء، فقال تبارك وتعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [

(١) «الكشاف» (٢ / ٣٠٣).
(٢) «روح المعاني» (١٣ / ٢٢٤).
(٣) «في ظلال القرآن» (٤ / ٢١٠٨).

النبأ: ١٣]، قال أبو حيان في «البحر المحيط»: «سراجاً: هو الشمس، وهاجاً: حاراً مضطرم الاتقاد»[١]، وقال الراغب الأصفهاني: «السراج:.. ويعبر به عن كل مضيء»[٢]، وقال: الوهج: حصول الضوء والحر من النار»[٣]، وقال: سيد قطب: «﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾.... وهو الشمس المضيئة الباعثة للحرارة التي تعيش عليها الأرض وما فيها من الأحياء، والتي تؤثر كذلك في تكوين السحائب بتبخير المياه من المحيط الواسع في الأرض ورفعها إلى طبقات الجو العليا.. وفي السراج توقد وحرارة وضوء.. وهو ما يتوافر في الشمس؛ فاختيار كلمة «سراج» دقيق كل الدقة ومختار..»[٤].

فبسبب حرارة الشمس يتم تبخر المياه من البحار والأنهار، فتتبخر المياه وتصبح عذبة خالية من الأملاح، وبسبب حرارة الشمس تنمو النباتات والأشجار وتتشكل الثمار وتنضج.

وكذلك ضوء الشمس الذي يكون في النهار شديداً فينتشر الناس للعمل في النهار، وكذلك يؤثر ضوء الشمس في نمو النباتات سواء كان ضوؤه الذى يكون في النهار أو يكون في الليل عن طريق القمر.

يقول الأستاذ محمد قطب: وعملية التمثيل الضوئي التي تحول طاقة الشمس إلى «مادة»! وتوزع النبات على سطح الأرض بحسب توزيع الحرارة والبرودة والجفاف والرطوبة.. بل بحسب توزيع النور والظلام! فقد أثبت العلم أن اختلاف الليل والنهار بمعنى انتظام دورتهام التي يخلف فيها أحدهما الآخر، وبمعنى اختلاف طولهما كذلك .. هو الذي يوزع النبات على سطح الأرض! فلكل نبات زهرة، والزهرة تتكون في فترة الإظلام لا في فترة النهار! وكل زهرة تحتاج إلى فترة معينة من الظلام حتى تطلع! ومن ثم تتوزع أنواع النبات على أطوال الليل والنهار بحسب

---

(١) «تفسير البحر المحيط» (٨ / ٤١١).
(٢) «المفردات»، للراغب، مادة (سرج).
(٣) «المفردات»، للراغب، مادة (وهج).
(٤) «في ظلال القرآن» (٦ / ٣٨٠٦).

حاجة كل زهرة إلى الظلام! وإذا أخذت نباتاً يحتاج إلى ظلمة اثنتى عشرة ساعة حتى يزهر، وزرعته في مكان ليله لا يزيد عن عشر ساعات، فإنه قد ينبت، ولكنه لا يزهر، ومن ثم لايصل إلى الإثمار!»[١].

ويقول الشيخ عبد المجيد الزنداني: «إن للأشعة وزناً، لكنه لايذكر، نظراً لضآلته، ولكن الكمية الهائلة من الأشعة التي تنبعث من الشمس في كل ثانية يقدر وزنها بأكثر من أربعة ملايين طن، ومن ملايين الأطنان هذه لا يصل إلى أرضنا سوى أربعة أرطال في الثانية»[٢]، ويقول – أيضاً – عن فوائد الشمس: «إن للشمس أهمية كبرى في حياتنا:

١ – بضوء الشمس نبصر ونسير.

٢ – بحرارة وضوء من الشمس يتكون من النبات طعامنا، وطعام كل كائن حي.

٣ – وبحرارة من الشمس تدفأ الأرض، وتذهب البرودة المميتة التي تقضي على كل كائن حي يعيش على الأرض.

٤ – ومن أشعة الشمس وحرارتها خزن الخالق الوقود للإنسان في الأرض بتفاعل كيميائي ضوئي محكم في المادة الخضراء في النبات: «النقط الخضراء»، تخزن حرارة الشمس في النبات في شكل أوراق أو جذوع أو عروق شجرية، وبإيقادنا لهذه الأجزاء الشجرية تنطلق حرارة الشمس المخزونة.

أما إذا طمرت هذه الأجزاء الشجرية، وطمرت عليها طبقات من التراب والصخور تحولت تلك الأجزاء إلى فحم حجري، أو بترول، ومنها تستخرج جميع أنواع الوقود المستخدمة في هذا الزمان الذي باستخدامه تنطلق الحرارة التي خزنت من حرارة الشمس بواسطة النقط الخضراء في النبات. قال تعالى: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ**﴾[يس: ٨٠][٣].

---

(١) «قبسات من الرسول»، محمد قطب (ص ٦٧)، الطبعة التاسعة ١٩٨٤م، دار الشروق، بيروت، القاهرة.

(٢) «كتاب التوحيد»، للشيخ عبد المجيد الزنداني (٢ / ٤٩)، طبع وزارة التربية والتعليم في الجمهورية اليمنية عام ١٩٨٢ م.

(٣) المصدر السابق.

ولأجل أن يكون الشمس والقمر مسخرين للإنسان تمام التسخير جعلهما الله تبارك وتعالى بتقدير محكم، بحيث لو اختل نظام أي منهما لانعدمت الحياة على الأرض وتغير الكون بأكمله، قال تعالى ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥].

يقول البيضاوي: «﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ يجريان بحساب معلوم مقدر في بروجهما ومنازلهما وتتسق بذلك أمور الكائنات السفلية، وتختلف الفصول والأوقات، ويعلم السنون والحساب»[(١)].

ويقول سيد قطب: «﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ حيث تتجلى دقة التقدير في تنسيق التكوين والحركة، بما يملأ القلب روعة ودهشة، وشعوراً بضخامة هذه الإشارة، وما في طياتها من حقائق بعيدة الآماد عميقة الأغوار.

إن الشمس ليست هي أكبر ما في السماء من أجرام، فهنالك في هذا الفضاء الذي لا يعرف البشر له حدوداً، ملايين الملايين من النجوم، منها الكثير أكبر من الشمس وأشد حرارة وضوءاً. فالشعرى اليمانية أثقل من الشمس بعشرين مرة، ونورها يعادل خمسين ضعف نور الشمس. والسماك الرامح حجمه ثمانون ضعف حجم الشمس، ونوره ثمانية آلاف ضعف. وسهيل أقوى من الشمس بألفين وخمسمائة مرة.. وهكذا....

ولكن الشمس هي أهم نجم بالنسبة لنا - نحن سكان الكوكب الأرضي الصغير - الذي يعيش هو وسكانه جميعاً على ضوء الشمس وحرارتها وجاذبيتها.

وكذلك القمر وهو تابع صغير للأرض، ولكنه ذو أثر قوي في حياتها، وهو العامل الأهم في حركة الجزر والمد في البحار.

وحجم الشمس، ودرجة حرارتها، وبعدها عنا، وسيرها في فلكها، وكذلك حجم القمر وبعده ودورته.. كلها محسوبة حساباً كامل الدقة بالقياس إلى آثارهما في حياة الأرض، وبالقياس إلى وضعهما في الفضاء مع النجوم والكواكب الأخرى...

---

(١) «تفسير البيضاوي» (٥ / ١٠٨).

ونتناول طرفاً من الحساب الدقيق في علاقتها بكوكبنا الأرضي وما عليه من حياة وأحياء...

إن الشمس تبعد عن الأرض باثنين وتسعين ونصف مليون من الأميال، ولو كانت أقرب إلينا من هذا لاحترقت الأرض أو انصهرت أو استحالت بخاراً يتصاعد في الفضاء! ولو كانت الشمس أبعد منا لأصاب التجمد والموت ما على الأرض من حياة! والذي يصل إلينا من حرارة الشمس لايتجاوز جزءاً من مليوني جزء من حرارتها. وهذا القدر الضئيل هو الذي يلائم حياتنا، ولو كانت الشعرى بضخامتها وإشعاعها هي التي في مكان الشمس منا لتبخرت الكرة الأرضية، وذهبت بدداً !

وكذلك القمر في حجمه وبعده عن الأرض، فلو كان أكبر من هذا لكان المد الذي يحدثه فى بحار الأرض كافياً لغمرها بطوفان يعم كل ما عليها. وكذلك لو كان أقرب مما وضعه الله بحسابه الذي لايخطيء مقدار شعرة!

وجاذبية الشمس وجاذبية القمر للأرض لهما حسابهما في توازن وضعها، وضبط خطاها في هذا الفضاء الشاسع الرهيب، الذي تجري فيه مجموعتنا الشمسية كلها بسرعة عشرين ألف ميل في الساعة في اتجاه واحد نحو برج الجبار ومع هذا لا تلتقي بأي نجم في طريقها على ملايين السنين!

وفي هذا الفضاء الشاسع الرهيب لايختل نجم بمقدار شعرة، ولا يختل حساب التوازن والتناسق في حجم ولاحركة.

وصدق الله العظيم... ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[1].

ويقول الشيخ الزنداني: «لو تقترب أرضنا من الشمس نصف المسافة التي بيننا لأحرقت الشمس كل ما على ظهر الأرض، ولو تبتعد بنا أرضنا عن الشمس نصف المسافة لتجمدنا برداً، وتجمد كل كائن حي.

لكن الله جلت قدرته أحكم النظام، فسخر الشمس بقدر معلوم، ونظام متقن، لا تتقدم ولا تتأخر، ولا تكل أو تتوقف عما أمرت به»[2].

(١) «في ظلال القرآن» (٦ / ٣٤٤٨).

(٢) «كتاب التوحيد»، للزنداني (٢ / ٤٩).

وقد أشار القرآن لفوائد أخرى في الشمس والقمر وهي: فائدة «معرفة عدد السنين والحساب»، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

يقول سيد قطب: «﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ ينزل في كل ليلة منزلاً يكون فيه على هيئة خاصة، كما هو مشهود في القمر، بدون حاجة إلى علوم فلكية لايدركها إلا المتخصصون ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾، وما تزال المواقيت تضبط الشمس والقمر لكافة الناس»[١].

(١) «في ظلال القرآن» (٣ / ١٧٦٥).

المبحث الرابع
نعمة الله في الهواء والريح

الهواء والريح نعمتان من نعم الله تبارك وتعالى، وفيهما آية عظيمة تدل على رحمة الله وعنايته بالعباد، يقول تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقد سخر الله تبارك وتعالى الريح لسليمان عليه السلام فامتن عليه بذلك، قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ [الأنبياء: ٨١]، وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]. فكان هذا التسخير لسليمان عليه السلام يصرفها وتجري بأمره حيث يشاء.

ولكن الله تبارك وتعالى سخر الريح للإنسان حسب السنن الكونية، فكانت له فيها فوائد عظيمة أشار إليها القرآن الكريم، منها: تسيير السفن، وتلقيح النباتات وسوق السحاب إلى حيث يشاء الله تبارك وتعالى. قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢]

قال البيضاوي: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ حوامل، شبّه الريح التي جاءت بخير من إنشاء سحاب ماطر بالحامل، كما شبه ما لا يكون كذلك بالعقيم، أو ملقحات للشجر أو السحاب»[١]، فالريح تلقح الشجر أو السحاب. وقد ثبت علمياً أن الريح

(١) «تفسير البيضاوي» (٣ / ١٦٦).

تلقح النبات والأشجار، ولكن سياق الآية عن تلقيح الرياح للسحاب ليتم بواسطتها نزول المطر .

يقول سيد قطب : «﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ أرسلنا الرياح لواقح بالماء، كما تلقح الناقة بالنتاج، فأنزلنا من السماء ماء مما حملت الرياح، فأسقيناكموه فعشتم به» ، ثم قال : «أراد بعضهم أن يفسر لواقح هنا بالمعنى العلمي الذي كشف، وهو أن الرياح تحمل اللقاح من شجرة إلى شجرة، ولكن السياق هنا يشير إلى أنها لواقح بالماء دون سواه ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ ، وليس هناك ذكر ولو من بعيد للإنبات حتى يكون هناك ظل في المشهد للنبات»(١) .

ومن أهم فوائد الرياح أنها تسوق السحاب إلى حيث يشاء الله تبارك وتعالى، قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴾ [فاطر: ٩] .

قال البيضاوي: «﴿ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ على حكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال الحكمة، ولأن المراد بيان أحداثها بهذه الخاصية ولذلك أسنده إليها»(٢) .

ويقول سيد قطب: «فالرياح الساخنة هي المثيرة للبخار ؛ والرياح الباردة هي المكثفة له حتى يصير سحباً؛ ثم يسوق الله السحاب بالتيارات الهوائية في طبقات الجو المختلفة، فتذهب يميناً وشمالاً إلى حيث يريد الله لها أن تذهب، وإلى حيث يسخرها ويسخر مثيراتها من الرياح والتيارات، حتى تصل إلى حيث يريد لها أن تصل .. إلى بلد ميت .. مقدر في علم الله أن تدب فيه الحياة بهذا السحاب»(٣) .

---

(١) «في ظلال القرآن» (٤ / ٢١٣٤).
(٢) «تفسير البيضاوي» (٤ / ١٧٩).
(٣) «في ظلال القرآن» (٥ / ٢٩٢٩).

وفي الرياح والهواء فوائد أخرى يترتب عليها عيش الإنسان، فإنه لو اختل أي نظام كوني لفسد عيش الإنسان. يقول الشيخ عبد المجيد الزنداني عن أهمية الهواء والرياح: «سد أنفك وفمك لمدة دقيقة أو دقيقتين، عندئذ ستعرف أهمية الهواء بالنسبة لحياتك لأنه يحتوي على الأكسجين الذي تحتاجه، وستجد أنه لو انعدم الهواء لمات الناس جميعاً في دقائق معدودة، وكذلك جميع الحيوانات التي تتنسم الهواء. وتفكّرْ هل تستطيع الاستغناء عن نعمة الهواء التي أنعم الله بها عليك لمدة بضع دقائق؟ وتفكر هل قمت بواجب الشكر لربك؟»[1]. ثم تحدث الشيخ الزندانى عن فوائد أخرى للهواء فقال:

١ - يكون الغلاف الهوائي المحيط بالأرض درعاً واقياً لسكان الأرض من الشهب والنيازك التي تسقط على الأرض كل يوم بالملايين. فقد قدرت كثافة الهواء بإحكام حتى يتمكن من إحراق الشهب والنيازك قبل وصولها إلى الأرض بالغلاف الجوي، ولولا ذلك لأحرقت الشهب المدن والقرى والمحاصيل.

كما يقوم غلاف «الأوزون» المحيط بالأرض على بعد عدد من الأميال بحماية الأرض وأحيائها من الأشعة الكونية المميتة التي تتجه إلى الأرض من السماء.

٢ - يقوم الهواء «الرياح» بتلقيح الأزهار في النباتات فتثمر، ولولا ذلك لما وجدنا ثمرة في كثير من النباتات. قال تعالى ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢].

٣ - وعلى الهواء ينتقل الطير والطائرات.

٤ - والهواء بحر نعيش في أعماقه، له ضغط على أجسامنا يوازن ضغط سوائل الجسم والدم وغير ذلك. ولولا ذلك الضغط المناسب لا نفجرت عروقنا والدماء التي فيها. وبهذا التعادل لا نحس ضغط الدم ولا ضغط الهواء.

---

(١) «كتاب التوحيد» للزنداني (١ / ٤٤).

٥- والهواء «الرياح» ينقل لنا الأمطار مجانا.

٦- انتفع الإنسان كثيراً بالهواء في تسيير السفن الشراعية عبر القرون المتطاولة السابقة، قال تعالى: ﴿إن يَشأ يُسكنِ الرِّيحَ فيَظللْنَ رواكِدَ على ظهْرِه إنَّ في ذلك لآيات لِكُلِّ صبَّارٍ شكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٣] (١).

ومن رعاية الله ورحمته بالإنسان أن هيأ له أهم حاجاته من الهواء بما يتناسب مع عيشه، وجعله بقدر، كما قال تعالى: ﴿إنَّا كُلَّ شيْءٍ خلقْناهُ بِقدرٍ﴾ [القمر: ٤٩] .

فمن أهم مايبين عناية الله بالإنسان بشأن الهواء:

«١- توفير الهواء - الذى هو أهم محتاجات الإنسان على الإطلاق - فأوجده الخالق الرحيم في كل مكان على وجه الأرض، فلا تتكلف في جمعه ولا في نقله ولا خزنه.

٢- وإذا تأملت في استهلاك الناس الدائم، وكذا الحيوانات للهواء الصالح «الأكسجين» وتحويله إلى هواء فاسد خانق «ثاني أكسيد الكربون» فلا تقلق على مصيرك وتقول: إن استهلاك «الأكسجين» باستمرار سيؤدي في وقت قريب إلى انعدامه، وعندئذ تموت، لا .. لا تقل ذلك فإن لك رباً رحيماً قد عوضك عن كل نقص يحدث في «الأكسجين» باستمرار، وذلك بواسطة النباتات التي تأخذ «ثاني أكسيد الكربون» وتعيد الأكسجين المستهلك للحيوانات والإنسان .

٣- خلق جهاز دقيق في الإنسان وهو لايزال في بطن أمه هو «الجهاز التنفسى» ، وهو يعمل ونحن في النوم أو في اليقظة. فكما أن خالقنا يسر لنا وجود الهواء في كل



(١) «كتاب التوحيد» للزنداني (١ / ٤٥).

(١) «كتاب التوحيد» (١ / ٤٧).

الفصل الثالث
نعم الله في السماء

- المبحث الأول: نعمة الله في الأرض
- المبحث الثاني: نعمة الله في الجبال
- المبحث الثالث: نعمة الله في الطرق والسير فيها
- المبحث الرابع: نعمة الله في الماء
- المبحث الخامس: نعمة الله في الأنعام
- المبحث السادس: نعمة الله في الزروع والثمار
- المبحث السابع: نعمة الله في البحار

المبحث الأول
نعمة الله في الأرض

وفي خلق الأرض وجعلها بصفات معينة نعمة عظيمة تعود على الإنسان وتدل على عناية الله ورحمته بهذا الإنسان .

فقد ذكر القرآن الكريم أن الأرض جعلت بمواصفات منها: فراشاً، مهاداً، قراراً ذلولا، بساطاً ...

قال تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٨] .

قال الألوسي: «﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا ﴾ أي مهدناها وبسطناها لتستقروا عليها»(١) .

يقول سيد قطب: «﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا ﴾ وهو تعبير يشي باليسر في حياة البشر على هذه الأرض، وفي إعدادها لهم لتكون لهم سكنا مريحاً وملجأ واقياً كالفراش .. والناس ينسون هذا الفراش الذي مهده الله لهم لطول ما ألفوه، ينسون هذا التوافق الذي جعله الله في الأرض ليمهد لهم وسائل العيش، وما سخره لهم فيها من وسائل الراحة والمتاع. ولولا هذا التوافق ما قامت حياتهم على هذا الكوكب في مثل هذا اليسر والطمأنينة. ولو فقد عنصر واحد من عناصر الحياة في هذا الكوكب ما قام هؤلاء الأناسي على غير الهيئة التي تكفل لهم الحياة. ولو نقص عنصر واحد من عناصر الهواء عن قدره المرسوم له لشق على الناس أن يلتقطوا أنفاسهم حتى لو قدرت لهم الحياة»(٢) .

---

(١) «روح المعاني» (٢٧ / ١٧).

(٢) «في ظلال القرآن» (١ / ٤٧).

فمن رحمة الله أن جعل لهم الأرض مفروشة أي ممهدة مبسوطة لا تعقيد فيها، فلم يجعلها كلها جبالا بل جعل منها السهول ومنها الجبال حتى تتوافر سهولة العيش. قال تبارك وتعالى: ﴿الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ [طه: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ [الزخرف: ١٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبأ: ٦].

قال الراغب: «المهد: ماتهيئ للصبي .. والمهد والمهاد: المكان الممهد الموطأ .. وذلك مثل قوله: ﴿الأَرْضَ فِرَاشًا﴾، ومهدت لك كذا هيأته وسويته»[١].

ويقول سيد قطب: «المهاد: الممهد للسير .. والمهاد اللين كالمهد .. وكلاهما متقارب. وهي حقيقة محسوسة للإنسان في أي طور من أطوار حضارته ومعرفته ...

غير أن هذه الحقيقة أكبر وأوسع مدى مما يحسها الإنسان البدائي لأول وهلة بالحس المجرد، وكلما ارتقت معارف الإنسان وازدادت معرفته بطبيعة هذا الكون وأطواره، كبرت هذه الحقيقة في نفسه؛ وأدرك من ورائها التقدير الإلهي العظيم والتدبير الدقيق الحكيم، والتنسيق بين أفراد هذا الوجود وحاجاتهم؛ وإعداد هذه الأرض لتلقي الحياة الإنسانية وحضارتها، وإعداد هذا الإنسان للملاءمة مع البيئة والتفاهم معها»[٢].

وفي آية أخرى ذكر القرآن الكريم أن الله قد جعل الأرض بساطاً، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: ١٩]، قال أبو السعود: «تتقلبون عليها تقلبكم على بساطكم في بيوتكم، وتوسيط ﴿لَكُمُ﴾ بين الجعل ومفعوليه – مع أن حقه التأخير – للاهتمام ببيان كون المجعول من منافعهم والتشويق إلى المؤخر»[٣].

---

(١) «المفردات»، للراغب، مادة (مهد).
(٢) «في ظلال القرآن» (٦ / ٣٨٠٤).
(٣) «تفسير أبو السعود» (٩ / ٣٩).

المبحث الثاني
نعمة الله في الجبال

في الجبال نعم عظيمة تعود فائدتها على حياة الإنسان يقول تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾ [الرعد: ٣]، وقال: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [الحجر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]، فالقرآن يذكر أن الجبال وظيفتها تثبيت الأرض حتى لا تميد بالبشر ومعنى تميد: أي تهتز وتضطرب.

قال الراغب: «الميد: اضطراب الشيء العظيم كاضطراب الأرض»[1].

يقول سيد قطب: «﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ ... فيقرر أن هذه الجبال الرواسي تحفظ توازن الأرض فلا تميد بهم ولا تضطرب. وحفظ التوازن يقع في صور شتى، فقد يكون توازناً بين الضغط الخارجي على الأرض والضغط الداخلي في جوفها، وهو يختلف من بقعة إلى بقعة، وقد يكون بروز الجبال في موضع معادلاً لانخفاض الأرض في موضع آخر .. وعلى أية حال فهذا النص يثبت أن للجبال علاقة بتوازن الأرض واستقرارها. فلنترك للبحوث العلمية كشف الطريقة التي يتم بها هذا التوازن فذلك مجالها الأصيل. ولنكتف من النص القرآني الصادق باللمسة الوجدانية والتأمل الموحي، وبتتبع يد القدرة المبدعة لهذا الكون الكبير»[2].

وقد ذكر القرآن في آية أخرى أن الله تعالى جعل الجبال أوتاداً، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧] .

---

(١) «المفردات»، للراغب، مادة (ميد).

(٢) «في ظلال القرآن» (٤ / ٢٣٧٦).

قال الألوسي: «أي كالأوتاد .. والمراد: أرسينا الأرض بالجبال كما يرسى البيت بالأوتاد»[(١)] .

قال ابن كثير: «أي جعلها لها أوتاداً أرساها بها وثبتها وقررها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها»[(٢)] .

يقول سيد قطب: «وجعل: الجبال أوتاداً ... يدركه الإنسان من الناحية الشكلية بنظره المجرد، فهي أشبه شيء بأوتاد الخيمة التي تشد إليها. أما حقيقتها فنتلقاها من القرآن، وندرك منه أنها تثبت الأرض وتحفظ توازنها .. وقد يكون هذا لأنها تعادل بين نسب الأغوار في البحار ونسب المرتفعات في الجبال .. وقد يكون لأنها تعادل بين التقلصات الجوفية للأرض والتقلصات السطحية، وقد يكون لأنها تثقل الأرض في نقط معينة فلا تميد الزلازل والاهتزازات الجوفية .. وقد يكون لسبب آخر لم يكشف عنه بعد»[(٣)] .

ولهذا يقول تبارك وتعالى: ﴿ **أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً** ﴾ [النمل: ٦١]، يقول الشيخ عبد المجيد الزنداني: «فقد تأكد الباحثون عام ١٩٥٦م أن تحت كل جبل عرق لهذا الجبل، وامتداد له قد غرس في الطبقة العجينية أو اللزجة التي تحت طبقة الصخور، وقد جعل الله هذا الامتداد تحت كل جبل ماسكاً للقارات من أن تطوف أثناء دوران الأرض، فهذه الأوتاد المغروسة في الطبقة اللزجة التي تحت القارات تثبت القارات كما يثبت الوتد الخيمة إذا غرس بين التراب»[(٤)] .

وهناك فائدة أخرى في الجبال ذكرها القرآن الكريم، وهي اتخاذ الجبال بيوتاً ومأوى، قال تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً** ﴾ [النحل: ٨١]، ومعنى أكناناً: أي مواضع تسكنون فيها .

قال الألوسي: ﴿ **أَكْنَاناً** ﴾ مواضع تسكنون فيها .. والواحد كن، أصله السترة

---

(١) «روح المعاني» (٣٠ / ٦).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤ / ٤٦٢).

(٣) «في ظلال القرآن» (٦ / ٣٨٠٤).

(٤) «كتاب التوحيد»، للزنداني (٣ / ٨٧).

من أكنه أي ستره»[١]. وقال ابن كثير «﴿ أَكْنَانًا ﴾ أي حصوناً ومعاقل»[٢].

ففي الجبال يكون المأوى حيث يأوي إليها الناس للراحة والأمن ويكون فيها الحصون والمعاقل للوقاية من الأعداء. ولهذا امتن الله على ثمود – قوم صالح – بأن هيأ لهم الجبال ليتخذوا منها البيوت، فقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وهذه البيوت جعلها تبارك وتعالى سكناً للإنسان يأوي إليها ليستريح من عناء العيش وطلب الرزق في النهار، قال تبارك وتعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾ [النحل: ٨٠]، يقول الشيخ الزنداني: «معنى ذلك – والله أعلم – أن بيوتنا محل راحة وهدوء وسكن، نأوي إليها عند التعب، ونحتمي بها من حر الصيف وبرد الشتاء وهجمات الوحوش وهبوب الرياح وهطول الأمطار، فتكون البيوت سكنا لنا ولأهلينا – أطفالاً ونساء – فبرحمة الله وتقديره وجدنا فيها مأوى ومقراً نسكن فيه ونهدأ، ونحتمي فيه من الكثير من الأخطار. ولو شاء الله ما جعل لنا في بيوتنا سكناً، فهو القادر على إرسال الزلازل التي تجعلنا نفر من تلك البيوت، أو العواصف التي تجعلنا نهرع إلى الجبال، أو يرسل البرق أو الفيضانات، أو جعل الأرض رخوة تغوص البيوت فيها بمن فيها»[٣].

وهذه البيوت ليست للبشير فقط بل هي للحيوانات أيضاً، قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل: ٦٨].

---

(١) «روح المعاني» ١٤ / ٢٠٥.
(٢) «تفسير ابن كثير» (٢٠ / ٥٦١).
(٣) «كتاب التوحيد»، للزنداني (١ / ٥٠).

المبحث الثالث
نعمة الله في الطرق والسير فيها

والطريق الذي يسلكه الإنسان ليصل إلى ما يريد نعمة من نعم الله تعالى عليه، فقد كان تبارك وتعالى رحيما بالإنسان، فلم يجعل الأرض كلها جبالاً بل جعل له من بين الجبال طريقاً يسلكه، قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ [طه: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١]، وقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٠].

قال الراغب: «السبيل: الطريق الذي فيه سهولة، وجمعه سبل»[(١)]، وقال الألوسي: «﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ طرقاً تسلكونها في أسفاركم ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: لكي تهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم، أو بالتفكير فيها إلى التوحيد الذي هو المقصد الأصلي»[(٢)]، «﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ أي: حصل لكم طرقا ووسطها بين الجبال والأودية تسلكونها من قطر إلى قطر لتقضوا منها مآربكم وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها. وللدلالة على أن الانتفاع مخصوص بالإنسان كرر ﴿لَكُمْ﴾»[(٣)].

أما وصف السبل بأنها كما هي في الآية ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩]، فمعنى الفجاج هي الفجوات بين الجبال التي تتخذ طرقاً، قال الراغب: «الفج: شقة يكتنفها جبلان، ويستعمل في الطريق الواسع، وجمعه فجاج»[(٤)]، وقال سيد قطب: «﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ

---

(١) «المفردات»، للراغب، مادة (سيل).
(٢) «روح المعاني» (٢٥ / ٦٧).
(٣) المصدر السابق (١٦ / ٢٠٦).
(٤) «المفردات»، مادة (فجج).

﴿يَهْتَدُونَ﴾. وذكر الفجاج في الجبال وهي الفجوات بين حواجزها العالية، وتتخذ سبلاً وطرقاً .. ذكر هذه الفجاج هنا مع الإشارة إلى الاهتداء يصور الحقيقة الواقعة أولاً، ثم يشير من طرف خفي إلى شأن آخر في عالم العقيدة. فلعلهم يهتدون إلى سبيل يقودهم إلى الإيمان، كما يهتدون في فجاج الجبال»(١) .

فمن رحمة الله تعالى أن جعل للإنسان في الأرض الطرق يسلكها ليهتدي بها الإنسان إلى ما يريد، ففي الطريق يسير الإنسان ليبلغ ما يريد من طعامه وشرابه وفي الطريق يهتدي بها السالكون فلا يضلون.

وكذلك فإن الله تبارك وتعالى سهل السير في هذه الطرق بما هيأ له ما يركبه في هذه الطرق، فكانت نعمة السير في هذه الطرق نعمة من نعم الله تعالى، يقول الشيخ الزنداني: «هناك مخلوقات حية لاتسير من مكانها كالنبات وبعض الحيوانات، ولكن الله أنعم على الإنسان بالسير الذي فيه عظيم الفائدة للإنسان:

١- فبالسير يكسب الإنسان رزقه، ويجمع طعامه، ويحوز شرابه وملبسه ويبني مسكنه.

٢- وبالسير ينجو الإنسان من أذى الأماكن الخطرة المؤذية .

٣- وبالسير يكسب الإنسان علوماً ومعارف وخبرات لايحصل عليها إلا إذا سار وتنقل.

٤- وبالسير تتعارف الأمم والشعوب، وتنشأ التجارة وتنشط .

٥- وبالسير يتمتع الإنسان بالمناظر المختلفة الجميلة والطقوس المتنوعة المناسبة .

٦- وبالسير تتحقق الحياة بكل معانيها .

ولذلك فقد خلق الله لنا أقداماً تسير، وعيوناً نهتدي بها الطريق، وجعل الأرض ذلولا ميسرة لسيرنا عليها، وأمرنا الله أن نسير في أرجاء الأرض، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥](٢) .

أما عن الوسائل التي سخرها تعالى للإنسان لتعينه على السير في الأرض فيقول

---

(١) «في ظلال القرآن» (٤ / ٢٣٧٧).

(٢) «كتاب التوحيد»، للزنداني (٢ / ٣٦).

الشيخ الزنداني: «إن السفر قطعة من نار جهنم، فكيف إذا حمل الإنسان أمتعته وسافر؟ لكن رحمة الله ذللت لنا من المخلوقات ما هو أضخم منا من الحيوانات كالجمال والبغال، والخيل والحمير، نركب عليها، ونحمل عليها أثقالنا، وهي مستسلمة منقادة. ولنتأكد من تذليل الله لنا إياها: حاول أن تذلل قطة أو ذئباً أو أسداً، وجرب هل يمكن أن يستسلم لك لتحمله شيئاً من أثقالك، رغم أنها جميعاً أصغر من الجمل أو الحمار، قال تعالى: ﴿ **وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [النحل: ٧][1].

(١) المرجع السابق (٢ / ٣٧).

المبحث الرابع
نعمة الله في الماء

الماء نعمة من أعظم نعم الله تعالى على الإنسان، فيه يكمن سر حياة الإنسان ولولا وجود الماء لما استطاع إنسان ولاحيوان ولا نبات أن يعيش على سطح هذه الأرض، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ولكن الإنسان لما ألف هذه النعمة وغيرها من النعم لم يعد يفكر فيها، ولو فكر في أمر هذه النعمة لوجد فيها سراً عظيماً يدل على عناية الله تعالى بالإنسان .

لقد هيأ الله تبارك وتعالى الماء للإنسان وغيره فجعله معداً للشراب بتقدير حكيم، ولو أن الإنسان فقد ماء الشرب لشارف على الهلاك ولا ينقذه من ذلك إلا شربة ماء، قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴾ [المرسلات: ٢٧]، وقال سبحانه: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٠].

ففي الآية الأولى ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ امتن الله على العباد بأن سقاهم من الماء، ثم بين أنهم لايستطيعون خزن الماء لولا تقدير الله ورحمته بهم، قال ابن كثير: «﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ أي: أنزلناه لكم عذباً يمكنكم أن تشربوا منه .. وقوله ﴿ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ .. يحتمل أن المراد وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله معيناً وينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذبا وحفظه في العيون والآبار

والأنهار وغير ذلك، ليبقى لهم في طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم»(١).

وفي الآية الثانية والثالثة بين تبارك وتعالى أنه من رحمته بالعباد أن جعل لهم الماء عذباً فراتاً ولم يجعله ملحاً أجاجاً، فقوله تعالى: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ أي عذباً، قال الراغب: «الفرات: الماء العذاب»(٢)، والعذب هو الذي تستسيغه النفس فلا يجد فيه الإنسان أي كدورة أو تنغيص فهو الخالص في الطيب، قال تعالى: ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢]، وهو الذي يرتوى منه الإنسان، أما الماء المالح فلا يرتوي منه بل يزيد في عطشه، فكلما كان الماء عذابا ارتوى منه الإنسان أكثر. فمن رحمة الله بنا أن جعل لنا الماء عذبا ولم يجعله ملحاً ﴿أُجَاجًا﴾ فلو جعل الماء كذلك لتعذرت حياة الإنسان وجميع الكائنات الحية، لذلك كان تقدير الله أن جعل المياه التي تتبخر من البحر ثم تعود لتتساقط أمطاراً جعلها بهذه الطريقة عذبة فراتاً، لذا يقول تبارك وتعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٠]، والأجاج: الشديد الملوحة والحرارة، قال الراغب: «﴿أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة والحرارة، من قولهم أجج النار»(٣)، وقال الألوسي: «﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ ملحاً ذعاقاً لا يمكن شربه من الأجج وهو تلهب النار، وقيل: الأجاج كل ما يلذع الفم ولا يمكن شربه، أو الملح بقرينة المقام»(٤)، وأياً كان المعنى، فإن الله امتن على العباد بأن جعل لهم الماء عذباً فراتاً ولم يجعله أجاجاً لايمكن شربه. وقال سيد قطب: «وهذا الماء أصل الحياة وعنصرها الذي لاتنشأ إلا به كما قدر الله. ما دور الإنسان فيه؟ دوره أنه يشربه. أما الذي أنشأه من عناصره، وأما الذي أنزله من سحائبه، فهو الله سبحانه وهو الذي قدّر أن يكون عذباً فكان ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ مالحاً لايستساغ، ولاينشئ حياة. فهلا يشكرون فضل الله الذي أجرى مشيئته بما كان؟

(١) «تفسير ابن كثير» (٢ / ٥٣٠).
(٢) «المفردات»، مادة (فرت).
(٣) «المفردات»، للراغب، مادة (أج).
(٤) «روح المعاني» (٢٧ / ١٤٩).

والمخاطبون ابتداء بهذا القرآن كان الماء النازل من السحائب، في صورته المباشرة، مادة حياتهم، وموضع احتفالهم، والحديث الذي يهز نفوسهم، وقد خلدته قصائدهم وأشعارهم .. ولم تنقص قيمة الماء بتقدم الإنسان الحضاري بل لعلها تضاعفت والذين يشتغلون بالعلم ويحاولون تفسير نشأة الماء الأولى أشد شعوراً بقيمة هذا الحديث من سواهم، فهو مادة اهتمام للبدائي في الصحراء، وللعالم المشتغل بالأبحاث سواء»[١].

وإذا كانت رحمة الله هذه بالماء، فماذا يكون حال جسم الإنسان إذا فقد الماء؟ يقول أحد الباحثين: «إن الإنسان إذا فقد من مائه نحواً من ١ ٪ من وزن جسمه أحس بالظمأ. وإذا ارتفع الفقد إلى ٥ ٪ جف حلقه ولسانه، وتغضن جلده، واهتلس عقله، وأصيب بانهيار تام. وإذا تجاوز الفقد ١٠ ٪ فإنه سوف يشرف على الموت والهلاك، ولا ينقذه منه إلا شربة ماء»[٢].

فتبارك من جعل لنا الماء عذباً فراتاً سائغاً شرابه ولم يجعله مالحاً، لذلك روى أن النبي ﷺ كان إذا شرب الماء قال: «الحمد لله الذي جعله عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا»[٣].

وإذا كانت نعمة الله على الإنسان في أن هيأ له الماء للشرب – وهذه أهم منافع الماء – إلا أن الماء يعود بالفائدة على الإنسان في أمر طعامه، فبالماء ينبت الله الأرض، وينشئ الزرع والثمار التي يعيش عليها الإنسان، قال تبارك وتعالى: ﴿ **وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ** ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام: ٩٩].

---

(١) «في ظلال القرآن» (٦ / ٣٤٦٩).
(٢) «تأملات في العلم والإيمان»، للمؤلفين: نجيب محمد غالب، أحمد عبد الله إبراهيم سليمان، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، طبع الهيئة العامة للمعاهد العلمية في الجمهورية العربية اليمنية (ص١٧٩).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «كتاب الشكر»، برقم (٦٩) والحديث مرسل ولكن له شاهد آخر، انظر تخريجه في «كتاب الشكر».

فمن نعمة الله ورحمته أن أنبت الزرع بهذا الماء، ومن نعمته ورحمته تعالى أن أنبت بهذا الماء الواحد زروعا مختلفة في الطعم والشكل .. قال تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤]، وقال: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١١]، وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ [فاطر: ٢٧].

ومن نعمة الله في أمر الماء أن أنبت وأحيا به الأرض الميتة، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [النحل: ٦٥]، وقال: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج:٥]، والأرض الهامدة التي لانبات فيها»[1]، وقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة: ٢٧]، والأرض الجرز التي قطع نباتها، فإنها بدون الماء تكون أرضاً بوراً لاتنبت، قال البيضاوي: «﴿ الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ التي جرز نباتها أى: قطع وأزيل، لا التي لاتنبت»[2].

فمن رحمة الله يحيي الأرض الميتة بالماء، فتبارك من ساق الماء من فوق البحار والمحيطات إلى هذه الأرض الميتة حتى تنبت ويعيش عليها الإنسان والحيوان.

تقدير الله في أمر الماء:

ومن رحمة الله أن جعل الماء مقدراً بقدر معين وفق سنن كونية بحيث يكون هذا الماء مسخراً تماماً للإنسان حتى يستطيع تناوله واستخدامه بما يتناسب مع ظروف معيشته، فقد سخر تبارك وتعالى الكون للإنسان وفق سنن معينة، فجعل الماء بقدر

(١) «المفردات»، مادة (همد).
(٢) «تفسير البيضاوي» (٤ / ١٥٧).

معين بحيث لو زاد أو نقص لتعذرت الحياة على سطح الأرض، يقول أحد الباحثين عن تقدير الله تعالى الماء بقدر معين: «فكميته في بحار الأرض ومحيطاتها محسوبة ومقدرة .. إن زادت عما هي عليه أغرقت اليابسة، وتسببت في إلحاق الدمار بالبشر والزرع والحرث والنسل .

وكمية الماء في طبقات الأرض الجوفية محسوبة ومقدرة، ولو حدث أن زادت عما هو مخصص لها لتسببت في إتلاف جذور النباتات وإحداث الصدوع في المباني والمنشآت، وحدوث حركات وانهيارات في قشرة الأرض هنا وهناك.. وبالإضافة إلى ذلك فإن القدر المعلوم يحافظ على التوازن البيئي للأرض والتوازن الحراري للغلاف الجوي»[١] .

يقول الشيخ عبد المجيد الزنداني عن سنن الله الكونية في قضية الماء:

«١ – لقد جعل الله حرارة الشمس والرياح سبباً في رفع بخار الماء من البحر إلى فوق مستوى الجبال «في الغالب» ، وذلك لكي لا تعوق الجبال انتقال الماء من فوق البحر إلى أواسط القارات. ورفع الله ماء البحر «بخاراً» ولم يرفع معه الملح الذي يختلط بماء البحر لكي لايضر ذلك الملح الإنسان والنبات والحيوان ...

٢ – وقد جعل الله الرياح وحرارة الشمس سبباً في رفع الماء من البحر إلى فوق مستوى الجبال .. وجعل الله البرودة في الجو – التي تزداد بالارتفاع عن مستوى سطح البحر إلى ارتفاع ثمانية أميال – سبباً في إيقاف ارتفاع الماء إلى أعماق السماء ... وإذا ارتفعنا إلى أعلى نكون قد قربنا نسبيا من الشمس – وكان المفروض أن تزداد درجة الحرارة عما هو عليه الحال في طبقات الجو العليا – ولكن الله جعل الأمر عكسيا، فكلما ارتفعنا انخفضت درجة الحرارة إلى مسافة ثمانية أميال بدلاً من زيادتها، وذلك لكى يسكن الماء الذي خرج من البحر فى جو الأرض، ولا يستمر تصاعده حتى يتبدد في أعماق السماء .

(١) بحث للمهندس محمد عبد القادر الفقي في مجلة النور (ص ٢٧) ، والتي تصدر عن بيت التمويل الكويتي العدد (٦٢)، السنة السادسة (١٤٠٩).

٣- ومن سنة الله في تجميع بخار الماء أن الله يرسل الرياح محملة بذرات الدخان والأتربة وحبوب اللقاح فتتلقح جزيئات بخار الماء بها، فتستثيرها، فيجتمع بخار الماء حول تلك الجزيئات الملقحة مكوناً أغلفة مائية، حتى تصل إلى حجم كبير نشاهده سحابا عندئذ يكون قد أخذ يثقل بتجمع أجزائه فيساعد ذلك على عدم مغادرة بخار الماء لغلاف الأرض، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الروم: ٤٨]

٤- وهناك سنة أخرى وهي: نقل هذا الماء من فوق البحار إلى أعماق القارات بواسطة الرياح.. وانظر إلى الحكمة في تقدير الرياح بحيث كان قدرها وسرعتها مناسبين جداً لاستثارة السحب ونقلها، ولا لتكون مدمرة مخربة. ولقد أعطانا الله عبرة ببعض العواصف والأعاصير المدمرة التي تبلغ سرعتها «٧٥ميلاً» في الساعة، أما لو بلغت سرعة سير الرياح «٢٠٠ ميل» في الساعة لما أبقت شيئاً على الأرض إلا دمرته. ولتعلم بآثار رحمة الله عليك فاعلم أن هذه الرياح موجودة في الأرض فوق رأسك ما بينك وبينها إلا خمسة أميال فقط حيث يوجد التيار النفاث في الرياح التي تسير بسرعة «٢٠٠ ميل» في الساعة على ارتفاع «٥ أميال» فوق سطح البحر، ولو نزلت هذه الرياح مسافة بضعة أميال لاختل نظام الحياة، بعد أن يختل النظام الذي يسير عليه المطر، ولتعرض كل ما في الأرض للدمار» ..

٥- وهناك سنة إلهية تعمل على إنزال المطر قطرات صغيرة لا سيولاً متدفقة تدمر كل شيء.

٦- وهناك سنة إلهية أخرى حيث تجري الماء أنهاراً وسيولاً تنتشر في الأرض كانتشار عروق الدماء في جسم الإنسان.

٧- وهناك سنة إلهية تعمل على امتصاص أغلب الماء لتحفظه من التعفن، ولتصبح الأرض صالحة للسير عليها بدون عائق من الماء.

٨- وهناك سنة إلهية تعمل على حفظ الماء قريبا من سطح الأرض فينتفع به الناس في شكل عيون وآبار بواسطة صحن إلهي من الحجر يحفظ لنا المياه الجوفية حتى لا تغور في أعماق الأرض، قال تعالى: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ** ﴾ [الملك: ٣٠][١].

هذا، وللماء فوائد تعود على الطبيعة التي يعيش فيها الإنسان، يقول أحد الباحثين: «الماء صنو الحياة التي نعرفها، فلا حياة بلا ماء، حتى إن بعض العلماء يعرف الحياة بأنها ظاهرة مائية. ويوجد بين الأحياء كائنات تحيا دون هواء، ولكن ليس بينها كائن واحد يستطيع الحياة دون ماء ...

والماء هو نهر الحياة الدافق في عروق الكائن الحي، حاملاً إلى كل خلية أسباب بقائها: من أكسجين وغذاء وهرمونات ومواد مناعة، ودواء وفيتامينات، مخلصا إياها من كل نفاية وضرر وسم .

وبدون الماء ليس هناك تنفس أو اغتذاء أو هضم أو حركة أو إخراج أو تكاثر.

ولولاه ما تذوق الإنسان طعاما وما شم عطراً، ولتيبست أنسجته، وتلاصقت مفاصله، وارتفعت حرارة جسمه حتى يقضي عليه .

والماء أعظم منظم للضغط ودرجة الحموضة وتوزيع الحرارة والمواد المختلفة بين أجزاء الجسم ...

وقد كشف العلماء في عملية البناء الضوئي أن الأكسجين الذي ينطلق في الجو وتستنشقه هو أكسجين الماء»[٢] .

---

(١) «كتاب التوحيد»، للزنداني (١ / ٤٠ - بتصرف).

(٢) من كتاب «تأملات في العلم والإيمان» لمؤلفيه: نجيب محمد غالب، وأحمد عبد الله سليمان.

المبحث الخامس
نعمة الله في الأنعام

ومن رحمة الله وعنايته ونعمته على الإنسان أن سخر له الأنعام وجعل فيها منافع كثيرة، حيث قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ ﴾ [المؤمنون: ٢١]، ومن هذه المنافع أن الإنسان يأكل منها ويشرب من ألبانها ويتخذ من جلودها البيوت والأثاث ويركب عليها وتحمل له أثقاله، إلى غير ذلك من المنافع التي أشارت إليها آيات القرآن الكريم .

والقرآن الكريم يلفت الانتباه إلى ما بث الله في هذه الأنعام من منافع عظيمة، ولكن الإنسان لطول إلفه لهذه الأنعام لم يعد يفكر في شأنها، وإنه لو فكر فيها لوجد فيها آيات عظيمة تدل على عظيم نعمة الله على الإنسان وعنايته به بأن سخر له هذه المخلوقات، قال تعالى: ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الحج: ٣٦].

ومن منافع الأنعام التي أشارت إليها آيات القرآن الكريم:

١- خلقها للركوب: قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [غافر: ٧٩]، فالسفر شاق وصعب، ولكن الله تبارك وتعالى سخر الأنعام للإنسان ليركب عليها ويبلغ ما يريد ﴿ لِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴾ [غافر: ٨٠]، يقول سيد قطب: «والحاجات التي كانت في الصدور والتي كانوا يبلغونها على الأنعام هي حاجات ضخمة في ذلك الزمان، قبل نشوء كل وسائل النقل والسفر والاتصال إلا على هذه الأنعام، وما تزال هناك حاجات تبلغ على هذه الأنعام حتى

(١) المعتر: هو الذي يتعرض للسؤال، والقانع: الذي قنع بما عنده. تفسير أبو السعود (٦ / ١٠٧).

اليوم وغد. وهناك حتى اللحظة أسفار في بعض الجبال لاتبلغها إلا الأنعام مع وجود القطار والسيارة والطيارة»[١].

فمن رحمته تعالى تسخير الأنعام للركوب .. ومهما تقدمت وسائل النقل فستبقى الحاجة ماسة لهذه الأنعام، ولهذا قيل عن الجمل بأنه سفينة الصحراء. وقد سخر تبارك وتعالى هذه الأنعام لتحمل البشر وتحمل أثقالهم معهم، قال تعالى: ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ٧]، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف: ١٤]، يقول الشيخ عبد المجيد الزنداني: «إن السفر قطعة من نار جهنم، فكيف إذا حمل الإنسان أمتعته وسافر؟ لكن رحمة الله ذللت لنا من المخلوقات ما هو أضخم منا من الحيوانات كالجمال والبغال والخيل والحمير، نركب عليها ونحمل عليها أثقالنا، وهي مستسلمة منقادة .ولنتأكد من تذليل الله لنا إياها: حاول أن تذلل قطة أو ذئباً أو أسداً، وجرب هل يمكن أن يستسلم لك لتحمله شيئاً من أثقالك؟ رغم أنهم جميعاً أصغر من الجمل أو الحمار»[٢].

٢- سخر الله لنا هذه الأنعام لنأكل من لحومها، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [النحل: ٥].

٣- سخر الله لنا هذه الأنعام لنشرب من ألبانها. قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل: ٦٦]، يقول سيد قطب: فهذا اللبن الذي تدره ضروع الأنعام مم هو؟ إنه مستخلص من بين فرث ودم . والفرث ما يتبقى في الكرش بعد الهضم، وامتصاص الأمعاء للعصارة التي تتحول إلى دم. هذا الذي يذهب إلى كل خلية في الجسم، فإذا صار إلى غدد اللبن في الضرع تحول إلى لبن ببديع صنع الله العجيب»[٣]، ومعنى

(١) «في ظلال القرآن» (٥ / ٣١٠٠). (٢) «كتاب التوحيد» (٢ / ٣٧).
(٣) «في ظلال القرآن» (٤ / ٢١٨٠).

خالصاً: أي صافياً من أي شيء يخالطه، وسائغاً: أي سهل المرور في الحلق أو تستسيغه النفس، قال البيضاوي: «﴿خَالِصًا﴾ صافيا لا يستصحب لون الدم ولا رائحة الفرث، ﴿سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ سهل المرور في حلقهم»[(١)].

٤ - جعل الله للأنعام جلوداً، وذكر فائدتها بأن يتخذ من هذه الجلود بيوتاً، وأشار إلى فائدة البيوت وهي أن فيها سكنا، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل: ٨٠]، قال البيضاوي: «﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ هي القباب المتخذة من الأدم، ويجوز أن يتناول المتخذة من الوبر والصوف والشعر فإنها من حيث إنها نابتة على جلودها يصدق عليها أنها من جلودها ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ تجدونها خفيفة يخف عليكم حملها ونقلها ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ وقت ترحالكم ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ ووضعها أو ضربها وقت الحضر أو النزول»[(٢)]، ويقول سيد قطب: «والسكن والطمأنينة في البيوت نعمة لايقدرها حق قدرها إلا المشردون الذين لابيوت لهم ولاسكن ولاطمأنينة»[(٣)].

كذلك بين القرآن أن هذه الجلود يتخذ منها الأثاث والمتاع فقال جل شأنه: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠]، والأثاث هو متاع البيت الكثير، قال الراغب: «الأثاث متاع البيت الكثير، وأصله من أث، أي كثر وتكاثف. وقيل للمال كله إذا كثر أثاث»[(٤)]، وقال الألوسي: «﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ ... أي وجعل لنا من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز «أثاثاً» أي متاع البيت كالفراش وغيرها ... ﴿وَمَتَاعًا﴾ أي شيئاً يتمتع به وينتفع به في المتجر والمعاش»[(٥)].

وقال البيضاوي: «﴿أَثَاثًا﴾ ما يلبس ويفرش ﴿وَمَتَاعًا﴾ مايتجربه»[(٦)]، ولعل معنى الأثاث ما يشمل الملابس والفراش. وقد أشار القرآن في آية أخرى أنه جعل في

---

(١) «تفسير البيضاوي» (٣ / ١٨٥).
(٢) المصدر السابق (٣ / ١٨٨).
(٣) «في ظلال القرآن» (٤ / ٢١٨٦).
(٤) «المفردات»، للراغب الأصفهاني، مادة (أث).
(٥) «روح المعاني» (١٤ / ٢٠٤).
(٦) «تفسير البيضاوي» (٣ / ١٨٨).

الأنعام الدفء فقال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ [النحل:٥]، وهو ما يتخذ من الأصواف ملابس ليقي من البرد.

٥- وفي الأنعام جمال ينعم به الإنسان، قال تعالى: «﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦]، قال الألوسي: ﴿جَمَالٌ﴾ زينة في أعين الناس وعظمة ووجاهة»[١]، وقال أبو حيان: «والمعنى: أنه فيها جمال وعظمة عند الناس باقتنائها ودلالتها على سعادة الإنسان في الدنيا، وكونه فيها من أهل السعة، فمنّ الله تعالى بالتجمل بها كما منّ بالانتفاع الضروري، لأن التجمل بها من أغراض أصحاب المواشي ومفاخر أهلها، والعرب تفتخر بذلك»[٢]، وقال البيضاوي: «﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ زينة ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ تردونها من مراعيها إلى مراحها بالعشي ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ تخرجونها بالغداة إلى المراعي، فإن الأفنية تتزين بها في الوقتين ويجل أهلها في أعين الناظرين إليها. وتقديم الإراحة: لأن الجمال فيها أظهر، فإنها تقبل ملأى البطون حافلة الضروع ثم تأوي إلى الحظائر حاضرة لأهلها»[٣]، ففي الأنعام جمال لأهلها وخاصة عندما تعود وقد ملئت بطونها في العشي. ويقول سيد قطب عن الجمال في الأنعام: «وهذه اللفتة لها قيمتها في بيان نظرة القرآن للحياة. فالجمال عنصر أصيل في هذه النظرة، وليست النعمة هي مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب؛ بل تلبية الأشواق الزائدة على الضرورات. تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الإنساني المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان»[٤].

ومن عظيم قدرة الله وعنايته بالإنسان أن جعل له هذه الأنعام متناسبة تماما مع ما سخرت لأجله، ولذلك يلفت القرآن الانتباه إليها على أن فيها آيات عظيمة تدل على قدرة الله تعالى، يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ﴾ [الغاشية ١٧]، فهذا

(١) «روح المعاني» (١٤ / ٩٩).
(٢) «البحر المحيط»، لأبي حيان الأندلسي (٥ / ٤٧٥)، الطبعة الثانية ١٩٨٣م، دار الفكر، بيروت.
(٣) «تفسير البيضاوي» (٣ / ١٧٦).
(٤) «في ظلال القرآن» (٤ / ٢١٦١).

الجمل خلقه تبارك وتعالى وزوده بطاقة عجيبة لا يمكن لأي مخلوق أن يتحملها مثله. يقول أحد الباحثين عن مقدرة الجمل وصبره على الجو والعطش: «إن الحقائق التي كشفها العلم عن جوع الجمل وعن عطشه أغرب من الخيال:

أولاً: جوعه:

يتحمل الجمل الجوع، لأنه قد يعيش في صحراء لايجد فيها ما يقتاته سوى نباتها الشائش الخشن، تلملمه شفتاه الغليظتان، لاسيما شفته العليا المشقوقة، فهي مهيأة لهذا العمل، تتولاه أسنانه القوية ببعض الطحن قبل أن يبلغه ليحتفظ به فترة في كرشه ثم يجتره ليعيد مضغه في أناة عندما تكون الظروف مواتية لذلك ...

والجمل يختزن ما يفيض عن حاجته في صور مدخرة من الغذاء غير القابلة للذوبان، يختزنه في صورة جليكوجين «نشاء حيواني» أو دهن، والدهن هو أفضل الأغذية المدخرة لأنه أكثر المواد العضوية المولدة للطاقة تركيزاً، ومعظم الدهن يختزنه الجمل في سنامه «أو سناميه» فإذا ما طال السفر وزاد العناء وشح الغذاء أو حتى انعدم لجأ الجمل إلى دهنه المختزن فأخذ يحرقه شيئاً فشيئاً وسنامه يذوى يوماً فيوماً، حتى يميل على جنبه، ثم يصبح كيساً خاوياً متهدلاً من الجلد، وذلك إذا طال الجوع بالجمل المسافر الذي انهكته مشقة السفر.

ثانياً: عطشه:

للجمل قدرة كبيرة على تحمل العطش، فهو يستطيع العيش أياماً طوالاً يتوقف عددها في كثير من الظروف والأحوال على بنيانه الموروث، ومدى إجهاده في الحمل أو السير، ودرجة حرارة الجو، ونسبة الرطوبة فيه، بل إن نوع الغذاء الذي تقتاته الإبل له أهمية خاصة في ذلك، فهي إن كانت تطعم نباتاً طرياً غضاً بعد أمطار الشتاء استطاعت أن تصبر على العطش شهرين متتاليين، وقد تعرض عن الماء حينما يقدم إليها، ذلك لأن الماء الذي كان في طعامها الرطب فيه الغناء.

أما إذا كان غذاء الإبل جافاً يابساً فإنها قد تتحمل قسوة الظمأ في هجير

الصيف أسبوعين كاملين أو أكثر، ولكن آثار هذا العطش الشديد سوف يصيبها بالهزال حتى إنها قد تفقد ربعاً من وزن أجسامها في ذلك الزمن القصير.

ولكي ندرك هذه المقدرة الفائقة، علينا أن نتذكر ما قلناه عن الإنسان....إنه لا يحيا في ظروف العطش أكثر من يوم أو يومين، فإذا فقد نحو ٥٪ من وزنه ماء فقد فقد صواب حكمه على الأمور، وإذا فقد نحو ١٠٪ من وزنه ماء فإنه سوف يشرف على الهلاك، ولن ينقذه إلا شربة ماء.

أما الجمل فإنه يختلف عن الإنسان، فإذا فقد ربع وزن جسمه ماء أو ثلثه فإنه يمضي في حياته صلداً لا تخور قواه ....

وثمة ميزة أخرى على الإنسان، فإن الجمل الظمآن يستطيع أن يطفئ ظمأه من أي نوع من الماء وجد، فهو لن يرفض فضلة من الماء في مستنقع شديد الملوحة، أو الحرارة بل المعتقد أنه يرتوي من ماء البحر، وأنه يطعم بأعشاب البحر وفيها تركيز شديد من الأملاح. أما الإنسان الظمآن فإن أية محاولة من هذا القبيل - حتى إن استطاع تجرعها - فإنها تكون أقرب إلى تعجيل نهايته[1].

فتبارك من سخر الأنعام وقدرها حق قدرها، حتى تقوم بتمام مهمتها كما سخرها الخالق جل وعلا.

هذا وللجمل فنون عجيبة في اقتصاد الماء .. وخلقه متناسب تماماً ليعيش في الصحراء فيتحمل الحرارة العالية بحيث يستطيع أن يبرك على الأرض الملتهبة وقت الظهيرة مواجهاً للشمس.



(١) «تأملات في العلم والإيمان» (ص ١٩٤).

المبحث السادس
نعمة الله في الزروع والثمار

ومن نعمة الله تعالى وعنايته بالإنسان أن هيأ له الزروع والثمار يأكل منها حتى يتم عيشه على سطح هذه الأرض. فجعل سبحانه هذه الأرض تنبت للإنسان ما يأكله وفق سنن كونية قدرها بقدر حكيم. لهذا يلفت القرآن الكريم الانتباه إلى قضية الطعام وما هيأه الله للإنسان، قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٣٢].

ففي الطعام وماهيأه الله للإنسان من إنبات الزروع والثمار وفق تقدير حكيم آية تدل على عناية الله ونعمته على هذا الإنسان، قال تبارك وتعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١]، وقال: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

ومن نعمة الله أن هيأ كثيراً من المخلوقات لتتفاعل بعضها مع بعض حتى يتم إنبات الزروع والثمار، ومن هذه المخلوقات:

أولاً: التربة:

«وقد أعدها خالقها إعداداً دقيقاً يجعلها صالحة لنمو النبات، وركبها بحيث

يسهل انتقال ما فيها من مواد إلى النباتات. وتشارك ملايين البكتيريا - وهي كائنات حية صغيرة لاترى - في إعداد التربة وتهيئتها، قال تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ [الحجر: ٢٠].

ثانياً: البذور الأولى:

والبذور أعدها الله لتحويل تراب الأرض إلى أشجار ونباتات تتغذى عليها، فالبذور أخذناها من أشجار ونباتات، والأشجار أخذت من بذور سابقة، وهكذا حتى نقف أمام الإرادة الحكيمة إرادة الرازق الذي خلقنا محتاجين للطعام وهيأه وخلق كل أسبابه .. فإذا نزل المطر انفلقت البذور وشقت الأرض في اتجاهين متعاكسين: إلى أسفل لتكوين قواعدها المنبثة وعروقها الممتصة للغذاء.

ثالثاً: البحار والرياح والسحب:

ولكن تلك البذور في جوف التراب الجاف لن تنبت، فكون الله البخار مصدراً للمياه، وأرسل الرياح تثير سحاباً مما يتصاعد من أبخرة عظيمة فوق البحار، ثم لتسوقه إلينا سيولاً طائرة عظيمة وبرحمة الخالق يسقط نطفاً صغيرة لا سيولاً دافقة ..

رابعاً: الهواء والليل والنهار:

وبغير الهواء وحرارة الشمس ما كنا وجدنا حبة أو ثمرة أو شجرة، ولو أن الشمس كانت دائماً ساطعة لاحترقت جميع النباتات، ولكن تعاقب الليل والنهار بانتظام دائم يعمل بإذن ربه على تنشيط تكوين الغذاء في النهار والراحة في الليل.

خامساً: المادة الخضراء:

وفي النباتات مادة خضراء مكونة من نقط صغيرة خضراء، كل نقطة هي مصنع للغذاء، تأخذ جميع المواد الخام السابقة وتكون منها الغذاء. فتأخذ الأملاح والمعادن والماء من التربة، وثاني أكسيد الكربون من الهواء، والحرارة من الشمس، وتصنع من

الجميع سكراً أولياً، ثم تحول السكر إلى المواد الغذائية الصالحة لتغذيتنا وتغذية أنعامنا»[(١)].

فانظر إلى تقدير الحكيم الخبير كيف سخر هذه المخلوقات لإنبات الزرع والثمار. فلا بد لأي بذرة حتى تنبت وتتكاثر من أن يتوفر لها الطعام والظرف المناسب، فلا بد من توفر الماء والتراب والهواء والحرارة لتتوفر الظروف الملائمة للإنبات، ثم إن كل واحد من هؤلاء قد يتعسر توفره، لذا هيأ الله الكون بما يتناسب مع ذلك. يقول الإمام أبو حامد الغزالي: «فانظر ماذا يحتاج كل واحد: إذا يحتاج الماء لينساق إلى أرض الزراعة من البحار والعيون والأنهار والسواقي، فانظر كيف خلق الله البحار وفجر العيون وأجرى الأنهار. ثم الأرض ربما تكون مرتفعة والمياه لا ترتفع إليها، فانظر كيف خلق الله تعالى الغيوم وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها بإذنه إلى أقطار الأرض، وهي سحب ثقال حوامل بالماء، ثم انظر كيف يرسله مدراراً على الأراضي في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة، وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تتفجر منها العيون تدريجيا، فلو خرجت دفعة لغرقت البلاد وهلك الزرع والمواشي .. وأما الحرارة: فإنها لا تحصل بين الماء والأرض وكلاهما باردان، فانظر كيف سخر الشمس وكيف خلقها - مع بعدها عن الأرض - مسخنة للأرض في وقت دون وقت .. ثم إن النبات إذا ارتفع عن الأرض كان في الفواكه انعقاد وصلابة فتفتقر إلى الرطوبة تنضجها، فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب كما جعل من خاصية الشمس التسخين، فهو ينضج الفواكه ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم»[(٢)]. ويتحدث أحد علماء الطبيعة عن عجائب التربة والنبات فيقول: «إن حبة القمح لابد أن تتعرض للموت قبل أن تبزغ منها الحياة.

ولكن لابد أن يكون هنالك ماء حتى تقوم الحياة، ولابد أن يكون هنالك مصدر للمواد الغذائية التي يحتاج إليها النبات. والعناصر والمركبات الكيماوية هي للمواد

---

(١) «كتاب التوحيد»، للزنداني (٢ / ٤٤ - بتصرف).
(٢) «إحياء علوم الدين»، لأبي حامد محمد الغزالي (٤ / ١١٦).

الخام الميتة التي يمتصها النبات فتحولها داخل أجسامها إلى مواد غذائية. وكذلك لابد أن يكون هنالك ضوء أو طاقة لكي تمد النبات بالقوة اللازمة للنمو .. ولكن لايكفي أن يكون هنالك قوة داخل البذرة تنبثق في الظروف المناسبة فتؤدي إلى قيام كثير من التفاعلات المتشابكة المعقدة والتي تعمل معاً في توافق عجيب»[1] .

ويقول سيد قطب: «وإنبات حبة واحدة يحتاج إلى القوة المهيمنة على هذا الكون كله لتسخر أجرامه وظواهره في نبات هذه الحبة وإمدادها بعوامل الحياة من تربة وماء وأشعة وهواء .. إن أقل «رزق» يرزقه الكائن الإنساني في هذا الكون يقتضي تحريك أجرام هذا الكون وفق ناموس يوفر مئات الآلاف من الموافقات المتواكبة المتناسقة التي لولاها لم يكن لهذا الكائن ابتداء وجود، ولم تكن له بعد وجوده حياة وامتداد»[2] .

فتبارك الله الحكيم العليم الذي خلق كل شيء بقدر معين، وجعل هذا الكون مسخراً للإنسان .



(١) بحث للدكتور (لسترجون زمرمان)، عضو الجمعية العلمية لدراسة التربة بأمريكا، من كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» (ص ١٢٧)، دار القلم، بيروت. وانظر ما كتب في نفس الكتاب (ص ١٢٢)، عن عجائب التربة.

(٣) «في ظلال القرآن» (٤ / ٢١٠٨).

المبحث السابع
نعمة الله في البحر

ومن نعمة الله تعالى على الإنسان أن سخر له البحر بحيث يستفيد منه. والبحر عظيم بهوله بحيث يقف الإنسان عاجزاً أمامه لايستطيع فعل شيء، لذلك يستشهد القرآن الكريم بمشهد الجاحدين حينما يكونون في وسط البحر ويأتيهم الموج من كل مكان عندئذ يوقنون بأنه لاينجيهم من هول البحر إلا الله تبارك وتعالى، يقول تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [يونس: ٢٢].

إن منظر البحر حينما يعلو فيه الموج يثير الرعب والخوف، حتى يوقن الشاك الجاحد أنه لاينقذه إلا الله تعالى، لذلك كان الإنسان يخاف أن يقتحم البحر ولكن الله تعالى جلت حكمته هيأ للإنسان وسائل تعينه على خوض البحر حتى أصبح يجوب المحيطات الكبيرة، فسخر له هدا البحر وأرشده فيه إلى فوائد عظيمة.

والبحر آية من آيات الله تعالى تدل على قدرته وعنايته بالإنسان، فبدلاً من أن يكون البحر مخيفاً ومروعاً للإنسان جعله تبارك وتعالى مسخراً لخدمة هذا الإنسان، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وتسخير البحر يعني كونه معداً للانتفاع.

وقد أشارت آيات القرآن إلى الفوائد من تسخير البحر وهي:

أولاً: سير السفن:

فالسفن تجري في البحر بما ينفع الناس من تجارة وغيرها، قال تعالى ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقال: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٣١]، وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ [الشورى: ٣٢].

يقول سيد قطب: «والفلك تجري في البحر بما ينفع الناس.. وأشهد ما أحسست ما في هذه اللفتة من عمق قدر ما أحسست ونقطة صغيرة في خضم المحيط تحملنا وتجري بنا، والموج المتلاطم والزرقة المطلقة من حولنا، والفلك سابحة متناثرة هنا وهناك، ولا شيء إلا قدرة الله وإلا عناية الله، وإلا قانون الكون الذي جعله الله يحمل تلك النقطة الصغيرة في ثبج الأمواج وخضمها الرعيب»[(١)].

فبرحمة الله وعنايته جعل السفن تجري في البحر وفق السنن الكونية التي أودعها الخالق سبحانه في البحر وفق النواميس التي أودعها الله البحر والفلك والريح والأرض والسماء. فخلقة هذه الخلائق بخواصها هذه هي التي جعلت الفلك تجري في البحر ولا تغطس أو تقف، ولو اختلت تلك الخواص أي اختلال ما جرت الفلك في البحر. لو اختلت كثافة الماء أو كثافة مادة الفلك. لو اختلت نسبة ضغط الهواء على سطح البحر. لو اختلت التيارات المائية والهوائية، لو اختلت درجة الحرارة عن الحد الذي يبقي الماء ماء، ويبقي تيارات الماء والهواء في الحدود المناسبة.. لو اختلت نسبة واحدة أي اختلال ما جرت الفلك في الماء، وبعد ذلك كله يبقى أن الله هو حارس الفلك وحاميها فوق ثبج الأمواج وسط العواصف والأنواء، حيث لا عاصم لها إلا الله، فهي تجري بنعمة الله وفضله على كل حال»[(٢)].

---

(١) «في ظلال القرآن» (١ / ١٥٢).

(٢) «في ظلال القرآن» (٥ / ٢٧٩٧).

ثانياً: طلب الرزق:

يقول الله تعالى: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء: ٦٦]، فهو تعالى يزجي الفلك أي يسوقها لطلب الرزق والريح، يقول أبو السعود: «والإزجاء: السوق حالا بعد حال، أي: هو القادر الحكيم الذي يسوق لمنافعكم الفلك ويجريها في البحر ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ من رزقه الذي هو فضل من قبله، أو من الربح الذي هو معطيه»(١).

ثالثاً: الأكل من لحومه:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا﴾ [النحل: ١٤]، هو السمك وغيره، ووصف لحم البحر بالطراوة للإرشاد إلى أكله طرّياً لأن الفساد يتسارع إليه، قال البيضاوي: «ووصفه بالطراوة لأنه أرطب اللحوم يسرع إليه الفساد، فيسارع إلى أكله، لإظهار قدرته في خلقه عذباً طرياً في ماء زعاق»(٢).

ومن حكمة الله وتقديره في الحفاظ على حياة الأحياء البحرية أنه تبارك وتعالى جعل للماء سنة كونية وهي أنه عندما يتجمد يطفو للأعلى مما يشكل طبقة عازلة تحفظ الماء من ازدياد برودته وتجمده، يقول أحد الباحثين: «هناك قاعدة عامة مطردة تقول: إن السوائل تزداد كثافتها كلما بردت، حتى تتحول إلى صورتها الصلبة، ولذلك تغوص القطع الصلبة من مادة ما إلى القاع. ويخضع الماء لهذه القاعدة فتزداد كلما برد حتى يبلغ أكبر كثافة نوعية له عند درجة (٤) مئوية، وحينما يصل إلى هذه الدرجة المئوية، تقل كثافته عندما يتجمد عند درجة الصفر المئوي.

ولا شك أن خرق الماء لهذه القاعدة إعجاز في إحكام تدبير الخالق – جل وعلا – إذ يترتب عليه نتائج بالغة الأهمية للأحياء، ذلك أن الماء إذا تجمد فخف فطفا غطى أسطح البحيرات بطبقة عازلة تحفظ الماء من تحتها من ازدياد برودته وتجمده، وبذلك تظل الأسماك حية سابحة فيه، مسبحة بقدرة ربها وخالقها»(٣).

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٥ / ١٨٤).
(٢) «تفسير البيضاوي» (٣ / ١٧٧).
(٣) من كتاب «تأملات في العلم والإيمان» (ص ١٨٤).

رابعا: استخرج الحلية:

يقول تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [فاطر: ١٢]، وقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [النحل: ١٤]، يقول أبو السعود: ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ كاللؤلؤ والمرجان ﴿ تَلْبَسُونَهَا ﴾ عبّر في مقام الامتنان عن لبس نسائهم بلبسهم لكونهن منهم أو لكون لبسهن لأجلهم[١].

فتبارك الله العليم الرحيم كيف سخر البحر للإنسان ينتفع منه هذا الانتفاع.

والله جلت حكمته الذي جعل كل شيء بمقدار؛ جعل في البحر سنناً كونية بحيث تتفق مع بعضها بعضاً بموافقات عدة حتى يتمكن الإنسان من الانتفاع بالبحر، ومن هذه السنن:

١ – أن الله سخر الريح لتسير السفن، فلو أنه تعالى أسكن الريح ما كان للسفن جرى في البحر ولتعطل انتفاعهم بذلك، يقول تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ﴾ [الشورى: ٣٣].

٢ – أن الله جعل النجوم ليهتدي بها السالكون في ظلمات البحر، يقول تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ [الأنعام: ٩٧].

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٥ / ١٠٣).

الفصل الرابع
نعم الله في ذات الإنسان

- المبحث الأول: نعمة الله في جسم الإنسان
- المبحث الثاني: نعمة الله في عقل الإنسان
- المبحث الثالث: نعمة الدين والهداية

المبحث الأول
نعم الله في جسم الإنسان

تتجلى عناية الله تعالى بالإنسان في خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق العجيب. وقد ميز الله هذا الإنسان وأحسن خلقه وتركيبه، ابتداء من خلقه من تراب إلى أن نفخ فيه الروح... يقول تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩].

وفى خلق الإنسان بهذا الشكل العجيب آية عظيمة تدل على عنايته تعالى بالإنسان، قال تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية ٤].

لذلك يلفت القرآن الكريم الانتباه إلى ذات الإنسان وما أودع فيه من عجائب تدل على قدرة الصانع وعنايته: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، يقول سيد قطب: «﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾. وهذا المخلوق الإنساني هو العجيبة الكبرى في هذه الأرض. ولكنه يغفل عن قيمته، وعن أسراره الكامنة في كيانه، حين يغفل قلبه عن الإيمان وحين يحرم نعمة اليقين.

إنه عجيبة في تكوينه الجسماني: في أسرار هذا الجسد، عجيبة في تكوينه الروحي في أسرار هذه النفس، وهو عجيبة في ظاهره وعجيبة في باطنه، وهو يمثل عناصر هذا الكون وأسراره وخفاياه:

وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

وحيثما وقف الإنسان يتأمل عجائب نفسه التقى بأسرار تدهش وتحير، تكوين أعضائه وتوزيعها، وظائفها، وطريقة أدائها لهذه الوظائف، عملية الهضم والامتصاص، عملية التنفس والاحتراق، دورة الدم في القلب والعروق، الجهاز العصبي وتركيبه وإدارته للجسم، الغدد وإفرازها وعلاقتها بنمو الجسد ونشاطه وانتظامه، تناسق هذه الأجهزة كلها وتعاونها، وتجاوبها الكامل الدقيق. وكل عجيبة من هذه تنطوي تحتها عجائب، وفي كل عضو وكل جزء من عضو خارقة تحير الألباب»[(١)].

ففي الإنسان أسرار عظيمة بالغة التعقيد، تدل على عناية الخالق جل وعلا بالإنسان الذي أهله للخلافة في الأرض، ولو أراد الإنسان - مهما أوتي من علم أن يحصي عناية الله به وما أنعم به عليه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا**﴾ [إبراهيم: ٣٤].

والأجهزة التي حواها جسم الإنسان على صغره أمر يثير الدهشة والعجب «هذه الأجهزة العامة لتكوين الإنسان الجسدي.. الجهاز العظمي، والجهاز العضلي، والجهاز الجلدي، والجهاز الهضمي، والجهاز الدموي، والجهاز التنفسي، والجهاز التناسلي، والجهاز اللمفاوي، والجهاز العصبي، والجهاز البولي، وأجهزة الذوق والشم والسمع والبصر.. كل منها عجيبة لاتقاس إليها كل العجائب الصناعية التي يقف الإنسان مدهوشاً أمامها. وينسى عجائب ذاته وهي أضخم وأدق بما لايقاس !»[(٢)].

هذا، ومن أهم مايميز الإنسان عن غيره في خلقة جسمه: أن الله تعالى خلقه في أحسن تقويم، فقال جل شأنه: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ [التين: ٤]، وقال: ﴿**الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ**﴾ [الإنفطار: ٧]، يقول سيد قطب: «إن خلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة، الكاملة الشكل والوظيفة، أمر يستحق التدبر الطويل، والشكر العميق، والأدب الجم، والحب لربه الكريم، الذي أكرمه بهذه الخلقة، تفضلاً منه ورعاية ومنه. فقد كان قادراً أن يركبه في أية صورة أخرى يشاؤها. فاختار له هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة.

(١) «في ظلال القرآن» (٦ / ٣٣٨٠).
(٢) «في ظلال القرآن» (٦ / ٣٨٤٨).

وإن الإنسان لمخلوق جميل التكوين، سوي الخلقة، معتدل التصميم، وإن عجائب الإبداع في خلقه لأضخم من إدراكه هو، وأعجب من كل ما يراه حوله.

وإن الجمال والسواء والاعتدال لتبدو في تكوينه الجسدي، وفي تكوينه العقلي، وفي تكوينه الروحي سواء، وهي تتناسق في كيانه في جمال واستواء»[١].

فتبارك الحي القيوم الذي خلق الإنسان على هذا الخلق السوي المعتدل وهذا من أهم نعم الله على الإنسان في تكوينه الجسدي.

وإليك بعضاً من أسرار هذا الجسم الإنساني الذي يدل على أن الله خلق كل شيء بقدر وحكمة.

فالهيكل العظمي في الإنسان[٢] خلقه تبارك وتعالى على هذه الصورة لكي يعطي لجسم الإنسان شكله وقوامه الإنساني المعتدل، ولولا تلك العظام لأصبح الإنسان قطعة من اللحم المتراكم.

وقد فصل تبارك وتعالى جسم الإنسان تفصيلاً محكماً دقيقاً بمفاصل قد أعدت بإتقان بديع، فكانت نهاية كل عظم تناسب تركيب العظم المتصل به بحيث لا تناسبها عظمة أخرى.. وكانت نهاية كل عظم ملساء، وقد جعل تبارك وتعالى في المفاصل مادة سائلة لتسهيل حركة العظام ومنع احتكاك العظم وتآكله.. ثم إن الخالق جل وعلا - كسا العظام باللحم فكانت هذه العضلات هي القوة المحركة للعظام فتم تزويد كل عظم بما يناسبه من العضلات اللحمية.

كما أن الهيكل العظمي يحمي أجهزة الإنسان الأخرى: كالمخ والقلب والعصب... ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤].

«والقلب: هو الجهاز الذي يضخ الدم ويوزعه على أجهزة الجسم عن طريق الشرايين المتفرعة عنه، يعمل بالليل والنهار، ولا يتوقف. وعدد ضخاته «٦٠ إلى ٨٠» ضخة في الدقيقة الواحدة، وينبض يومياً ما يزيد على مئة ألف مرة، يضخ خلالها «٨٠٠٠» لتر من الدم، وحوالي «٥٦» مليون جالون على مدى حياة الإنسان وسطياً.

---

(١) «في ظلال القرآن» (٦ / ٣٨٤٨).

(٢) مقتبس من «كتاب التوحيد»، للزنداني (٢ / ٣١).

ترى؛ هل يستطيع محرك آخر القيام بمثل هذا العمل الشاق لمثل تلك الفترة الطويلة دون حاجة إلى إصلاح!؟

وفي الدماغ: «٣٠» مليار خلية عصبية، وما بين «١٥٠ إلى ٣٠٠» مليار خلية دبقية استنادية تشكل سداً مارداً لحراسة الخلايا العصبية من التأثر بأية مادة. وكمية الدم التي يحتاجها الدماغ يومياً لاتقل عن «١٠٠٠» لتر.

ويتغذى الدماغ على الغلوكوز كمادة سكرية فقط، بخلاف القلب الذي يتغذى على سكر الغلوكوز أو حمض اللبن. وإذا وقع البدن في أزمة غلوكوز فإن آليات الجسم تفضل هذا العضو النبيل عن باقي أعضاء البدن في العطاء، وذلك لأن انقطاع الدم عنه مدة «٣ إلى ٥» دقائق يؤدي إلى تخريب دائم غير قابل للتراجع في أنسجته. ويلاحظ أن خلايا الدماغ لاتتجدد، على عكس بعض خلايا الجسم.

وفي العين الواحدة حوالي «١٤٠» مليون مستقبل حساس للضوء، وهي تسمى بالمخاريط والعصي، وطبقة المخاريط والعصي هذه هي واحدة من الطبقات العشرة التي تشكل شبكة العين، والتي تبلغ ثخانتها بطبقاتها العشرة «٠,٤» ملليمتر ويخرج من العين نصف مليون ليف عصبي، ينقل الصورة بشكل ملون، لكل ليف عصبي لون «تلفزيون ملون».

ويقوم اللسان بالمضغ والبلع وذوق الطعام والتصويت، وفيه «١٧» عضلة تحركه إلى كافة الجهات، ثلاثة أعصاب لتنظيم نقل الحس، وعلى سطح اللسان يوجد «٩٠٠٠» نتوء ذوقي لمعرفة طعم الحلو والحامض والمر والمالح، وإن حركة اللسان في أي اتجاه ينتج عنها حرفاً معيناً، وبذلك يستطيع الإنسان أن ينطق بفصاحة. وأثناء المضغ والبلع تفرز ست غدد اللعاب إلى الفم لتطرية الطعام وتهيئته المبدئية بالاشتراك مع «٣٦» قاطعاً وطاحناً وهى الأسنان.

ويوجد في المعدة «٣٥» مليون غدة معقدة التركيب لأجل الإفراز، أما الخلايا الجدارية التي تفرز حمض كلور الماء فتقدر بمليار خلية.

ويعتبر الكبد أكبر غدد البدن، إذ يزن «١٥٠٠» غرام، ويحوي «٣٠٠» مليار

خلية، يمكن أن تتجدد كليّاً خلال أربعة أشهر. ووظائف الكبد مدهشة، ما بين مستودعات السكر والدهن والفيتامينات، واحتجاز السموم وقلبها إلى مواد غير ضارة. ويبقى الكبد مركز التموين الرئيسي لسكر الدم وبروتينات الدم، والحفاظ على تخثره بتكوين مولد الليفين.

وفي كل يوم يتنفس الإنسان «٢٥» ألف مرة، يسحب فيها «١٨٠» متراً مكعباً من الهواء، يتسرب منها «٥ . ٦» متر مكعب من الأكسجين للدم.

ولو أن الخلايا العصبية في الجسم وضعت صفا واحداً لبلغ طولها أضعاف المسافة بين القمر والأرض.

ويوجد تحت سطح الجلد «٥ إلى ١٥» مليون مكيف لحرارة البدن والمكيف هنا هو الغدة العرقية التي تخلص الجسم من حرارته الزائدة بواسطة عملية التبخر والتعرق.

ودفقة المني الواحدة عند الرجل تحوي ثلاثمائة مليون من الحيوانات المنوية، ولا يتخلق الإنسان إلا من حيوان منوي واحد، يندمج في بيضة واحدة من الأنثى»[١].

هذه هي بعض أسرار الجسم الإنساني. ولو أردنا متابعة أسرار الجسم الأخرى لوجدنا العجب العجاب، ولوجدنا أن الجسد حقاً ينطق بتسبيح خالقه ويدل عليه دلالة واضحة. فسبحان من خلق الخلائق على هذه الصور العجيبة البديعة ﴿**هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ**﴾ [لقمان: ١١].

(١) من كتاب «تأملات في العلم والإيمان» (ص ١٥١ - بتصرف).

المبحث الثاني
نعمة الله في عقل الإنسان

والله تبارك وتعالى ميز الإنسان عن بقية المخلوقات بالعقل، فأعطاه ما أعطى بقية الحيوانات لكنه ميزه بالعقل. وبهذا حمل الإنسان الأمانة وقام بدور الخليفة عن الله في إعمار هذه الأرض.

والإنسان إذا استخدم عقله - بعيداً عن الأهواء - فإنه يتوصل بالضرورة إلى أن هناك إلها قادراً حكيماً عليماً...

ولهذا نجد أن القرآن الكريم يؤكد كثيراً على قضية العقل ويجعل الذين يتعظون ويعتبرون هم الذين يعقلون أما الكافرون والمشركون والمنافقون فإنه يصفهم بأنهم لا يعقلون.

فقد بين الحق - جل وعلا - أن هذا القرآن إنما جعله عربياً حتى يعقله العاقلون ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ [الزخرف: ٣]، كما بين أن تصريف الآيات الكونية إنما يعقلها ويتعظ بها ويستفيد منها هم العاقلون العالمون، قال تعالى: ﴿ **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال: ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [النحل: ١٢]، وقال: ﴿ **كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ [النور: ٦١].

كما بين - تبارك وتعالى - أن الكافرين ومن لف لفهم أنهم لايعقلون شيئاً فقال: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة: ١٧١]، وقال:

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ٥٨]، وقال: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢].

ولهذا يعترف الكافرون حينما يلقون في النار بأنهم كانوا في الدنيا لا يسمعون ولا يعقلون، فلو اتبعوا عقولهم لاهتدوا إلى الطريق المستقيم، طريق اتباع الرسل الموصلين إلى الحق جل وعلا.

ويراد بالعقل: تلك القوة المهيأة لتلقي العلم، وقد يراد بها العلم ذاته، قال الراغب: «العقل يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة... وإلى الأول أشار ﷺ بقوله: «ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل»، وإلى الثاني أشار بقوله: «ما كسب أحد شيئاً أفضل من عقل يهديه إلى هدى أو يرده عن ردى»، وهذا العقل هو المعني بقوله: ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ وكل موضع ذم الله فيه الكفار بعدم العقل فإشارة إلى الثاني دون الأول... وكل موضع رفع التكليف عن العبد لعدم العقل فإشارة إلى الأول»[1].

فالعقل هو تلك القوة المهيأة لتلقي العلم، يحكم بها الإنسان على أعماله بالخير أو بالشر، والعقل هو الذي ينتج عنه سلوك الإنسان، فيصدر العقل أوامره للأعضاء فتتصرف سلباً أو إيجاباً.

والعقل تصل إليه المعلومات عن طريق الحواس، ولهذا نجد في القرآن آيات كثيرة يمتن الله فيها على عباده بأن أعطاهم السمع والبصر والأفئدة. ونجد أنه خص السمع والبصر من بين سائر الحواس لأنها أهم الحواس التي توصل المعلومات إلى العقل، فيقوم بترتيب هذه المعلومات من حيث تخزينها وترتيبها واستعمالها في الوقت اللازم. قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك: ٢٣]، وقال: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل ٧٨].

(١) «المفردات»، للراغب، مادة (عقل).

والوسائل[١] التي توصل المعلومات هي: اللسان والأنف والجلد والعين والأذن.

فاللسان: يدرك به الإنسان طعم المواد المختلفة فيدرك ويميز بين الحلو والمر والحامض والمالح... والعلوم التي نكتسبها من خلاله محدودة جداً. وكثيراً ما يخطىء الإنسان في هذه المكتسبات، فالمريض يرى الحلو مراً...

والأنف: يعرف به روائح المواد المختلفة، وحدود عمله ضيقة جداً لأن قدرته لاتتجاوز أمتاراً معدودة. وقد يصاب الإنسان بما يبطل عمله كالزكام. والعلوم المكتسبة بواسطته محدودة.

والجلد: وهو آله الحس لما يقع على الجسم من أشياء فيميز الناعم من الخشن والثقيل والخفيف، والحار والبارد.. وهو لايدرك من الأشياء إلا ما كان له ثقل معلوم، فهو لايحس بالجراثيم أو الكائنات الدقيقة أو الضوء أو الأمواج الإشعاعية كأمواج الراديو واللاسكي، وقد يخدر فلا يحس شيئاً.. وحدود عمله ضيقة.. وليس له أثر يذكر في بناء العلوم الإنسانية.

والعين: وهي نعمة كبرى نرى بها الأشياء فنقدر أحجامها وأبعادها وألوانها وأشكالها. ولكن العين قد تسحر أو تخدع، فالعين ترى الشمس مثل قرص الخبز أو ترى العصا في حوض الماء مكسورة.. ومجال عملها محدود، ولكنها آلة هامة جداً في بناء العلوم الإنسانية.

والأذن: وهي نعمة كبرى في مجال العلم البشري .. ومجال عملها واسع جداً، وبها يتلقى طالب العلم أكثر من ٩٠٪ من علومه.. ولكن الأذن قد تخدع، لأن كثيراً مما يصل إليها فيه الحق والباطل.

ثم إن الحق جل وعلا زود الإنسان بقوة تزيد من عمل الحواس وهي قوة التصور والخيال وهي تساعد على الافتراضات والاختراعات وغيرها.

(١) مقتبس من كتاب «توحيد الخالق»، للزنداني (٢/ ٢٢).

فالحواس هي المنافذ الموصلة للمعلومات إلى العقل وأهمها السمع والبصر، ولكن هذه الحواس قد تخدع في عملها.. وقد تتعطل.

يقول الأستاذ عبد الرحمن حبنكة: «أما حواسنا التي هي السبيل الوحيد لنا للتعرف على الوجود من حولنا، فهي منافذ قصيرة المدى، محدودة كمّاً وكيفاً.

وقد اكتشف العلم الحديث أن الفضاء مملوء بالصور التي لانستطيع أن نشاهدها بأبصارنا.. كما أنه مملوء بالأصوات التي هي فوق مستوى سمعنا أو دون مستواه.. كما أن خيالنا محصور حصراً تاماً فيما تدركه حواسنا، فنحن مهما أوتينا من قدرة خيالية فلا نستطيع أن نتخيل حقيقة ما من الحقائق مالم ندرك نموذجاً عنها بحواسنا»[1].

وبما أن الحواس محدودة فالعقل محدود بهذا الإطار فإنه لايمكنه بأي حال أن يتصور الألوان، يقول الأستاذ «حبنكة»: «العقل مقيد بعالم الحس لاعمل له في الحكم على عالم الغيب «الميتافيزك»، ذلك لأن القوة العاقلة فينا التي تجمع بين المصورة والذاكرة والمخيلة والذكاء؛ تقوم بعملها الجبار في التحليل والتركيب، والجمع والتفريق، واستنتاج القواعد العامة والكليات، وقياس الأشباه والنظائر، بعد أن تنقل الحواس المختلفة إلى المصورة أشرطة مشاهدتها في الكون.. ثم تكون أحكامها مقيدة بحدود هذه الأشياء التي جاءتها عن طريق الحس»[2].

وانظر إلى تقدير الحكيم الخبير في صنع هذا الجهاز العجيب في الإنسان من تخزين المعلومات المرئية والمسموعة والمحسوسة... فإننا لو أردنا أن نستعيض بجهاز يقوم مقام ذاكرة الإنسان لاحتجنا إلى أجهزة عظيمة بالغة التعقيد ورغم ذلك فإنها لاتسد مسد حاجة الذاكرة في الإنسان.... صحيح أن الإنسان اخترع «العقل الإلكتروني» ولكن عمله محدود في إطار المعلومات وتخزينها أما الأصوات والأحاسيس والمشاعر فلا

(١) «العقيدة الإسلامية وأسسها»، عبد الرحمن حبنكة الميداني (ص ١٥ – ١٨)، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م، دار القلم، دمشق.

(٢) «العقيدة الإسلامية وأسسها»، (ص ١٩).

يستطيع تخزينها، يقول سيد قطب: «هذه المدركات.. نفرض أنها كلها تصل إلى المخ عن طريق الجهاز العصبي الدقيق، ولكن أين يخزنها ؟ إنه لو كان هذا المخ شريطاً مسجلاً لاحتاج الإنسان في خلال الستين عاماً - التي هي متوسط عمره - إلى آلاف الملايين من الأمتار ليسجل عليها هذا الحشد من الصور والكلمات والمعاني والمشاعر والتأثرات لكي يذكرها بعد ذلك، كما يذكرها فعلا بعد عشرات السنين»[١].

فالعقل هبة الله للإنسان، ميزه به عن بقية المخلوقات، ولكن العقل محدود في إطار ما يصله من الحواس.. وهذه الحواس قد تخدع.. وبالتالي فإن العقل قد يخدع في عمله، فأحكامه لاتكون قطعية.

وبما أن العقل مخلوق بهذه القوة المحدودة، فإن الله امتن على الإنسان بأن وهبه من روحه، وهبه تلك النفحة الروحانية بحيث يستطيع أن يتصل بالله تبارك وتعالى ويستمد منه - عن طريق الرسل - أسباب حياته المادية والروحية، ووهبه هذا العقل حتى يتمكن من تلقي تشريع الله ولا يمكن للعقل إنشاء تشريع تتم فيه الطمأنينة للإنسان، يقول سيد قطب: «إن هذا العقل الذي وهبه الله للإنسان قادر على تلقي ذلك الوحي، وإدراك مدلولاته.. وهذه وظيفته.. ثم هذه هي فرصته في النور والهداية، وفي الانضباط بهذا الضابط الصحيح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فأما حين يستقل هذا العقل البشرى بنفسه بعيداً عن الوحي، فإنه يتعرض حينئذ للضلال والانحراف، وسوء الرؤية، ونقص الرؤية، وسوء التقدير وسوء التدبير»[٢]، ويقول أيضاً: «إن دور العقل.. هو أن يفهم ما الذي يعنيه النص، وما مدلوله الذي يعطيه حسب معاني العبارة في اللغة والاصطلاح، وعند هذا الحد ينتهي دوره.. إن المدلول الصحيح للنص لايقبل البطلان أو الرفض بحكم من هذا العقل، فهذا النص من عند الله، والعقل ليس إلهاً يحكم بالصحة أو البطلان، وبالقبول أو الرفض لما جاء من عند الله.

(١) «في ظلال القرآن» (٦/ ٣٨٥٠).

(٢) المصدر السابق (٢/ ١٠٩٧).

وعند هذه النقطة يقع خلط كثير.. سواء ممن يريدون تأليه العقل البشري فيجعلونه هو الحكم في صحة أو بطلان المقررات الدينية الصحيحة.. أو ممن يريدون إلغاء العقل، ونفي دوره في الإيمان والهدى.. والطريق الوسط الصحيح هو الذي بيناه هنا.. من أن الرسالة تخاطب العقل ليدرك مقرراتها، أي فهم ماذا يعني النص، لم يعد أمامه إلا التصديق والطاعة والتنفيذ..»[١].

(١) «في ظلال القرآن» (٢/ ٨٠٧).

المبحث الثالث
نعمة الدين والهداية

بما أن الله تعالى أكرم الإنسان بالعقل والروح، ووهبه تلك الحياة الروحية التي يستطيع أن يصبح بواسطتها من أشرف المخلوقات، أو أن يهوي إلى أسفل السافلين ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥]، فإنه أتم عليه النعمة العظمى بأن أرسل له الرسل، وبذلك يستطيع الإنسان أن يعيش حياته في أمن وطمأنينة على هدي الله تبارك وتعالى، بعيداً عن أهواء البشر، فيتصل بالله – عن طريق الرسل – ويتحقق بالعبودية الحقة لله تعالى، ويترفع عن العبودية للبشر والمخلوقات، ويستمد من الله تبارك وتعالى أسس حياته المادية والروحية.

وهذا من رحمة الله وعنايته بالإنسان إذ علم الله بعلمه أن هؤلاء البشر لا يمكنهم أن يستقيموا على الطريق الصحيح إلا بهدي من عنده تبارك وتعالى، فأرسل لهم الرسل يهدونهم إلى الصراط المستقيم. فالناس بحاجة ماسة إلى الرسل، ويتبين ذلك من خلال الآتي:

«١ – لو ترك الناس لأنفسهم من غير تنبيه ولا إرشاد لظلوا يتيهون في الضلالات وذلك بسبب اندفاعهم وراء غرائزهم وشهواتهم.. ولظلوا يتخبطون بالظلمات في أوحال المفاهيم الباطلة، والأخلاق الفاسدة، والعادات المنحرفة الملاحظة في الإنسان المتخلف عن ركب العلم والحضارة، إنسان الغابة البدائي المتوحش.

٢ – خلق الله الناس ليختبر إرادتهم، وليبلوهم أيهم أحسن عملاً.. ولولا إرسال الرسل يبشرونهم وينذرونهم لكان لهم حجة عند ربهم.

٣ – إن الناس لايستطيعون أن يتوصلوا بأنفسهم إلى جميع الخيرات والفضائل الإنسانية والكمالات الخلقية، ويتفقوا عليها، لأن عوامل غرائزهم وشهواتهم تصرفهم عن الحق والخير.

٤- إن كثيراً من الحقائق التي لابد منها لإصلاح الناس وتقويم سلوكهم في الحياة لا يمكن معرفتها إلا عن طريق الرسل كمعرفة الجنة والنار والدار الآخرة..

٥- وحتى يتم إصلاح الأفراد والمجتمعات لابد من مصلح مثالي يكون أسوة حسنة لهم، وصفات المصلح المثالي لا تتوفر حقيقة إلا في الرسل.

لذلك كان الناس بحاجة إلى قادة من رسل الله، يتحلون بجميع الكمالات الإنسانية ويكونون الأسوة الحسنة لجميع الناس»[١].

وقد شاءت حكمة الله تعالى فأرسل لكل أمة رسولاً يبشرهم وينذرهم، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، كما شاءت حكمته في أن أرسل محمداً ﷺ للناس كافة، وكان خاتم النبيين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

فالدين هبة من الله للإنسان، أنزله تبارك وتعالى ليعيش الإنسان حياته المادية والروحية على شكل يتفق مع هذا الكيان الإنساني الذي كرمه تبارك وتعالى بالعقل والروح، فكان لكل أمة رسولها وكان محمداً ﷺ خاتم النبيين والمرسلين أرسله لكل الناس بشيراً وأنزل عليه كتابه الحق - القرآن - ليكون كلام الله للإنسان إلى أن تقوم الساعة ومن عليها، وقد تجلى الله على عباده فحفظ لهم هذا الكتاب الكريم من التبديل والتحريف.

والقرآن أنزله الله على رسوله ليكون هداية للناس، يهديهم للطريق المستقيم، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال - جل شأنه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ [الإسراء: ٩].

كما بين تبارك وتعالى أن ما ورد في القرآن من تشريع وأحكام ليس المراد منه تكليف الناس وإيقاعهم في الحرج. قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ

(١) عن كتاب «العقيدة الإسلامية وأسسها»، لعبد الرحمن حبنكة الميداني (ص ٣٠٩ - بتصرف).

تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٨٩]، وكذلك فرض الوضوء والتيمم لتطهير العباد ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٦].

فالإسلام بمجموعه نعمة عظيمة من الله تبارك وتعالى رحم به عباده المؤمنين الذين اتبعوا طريق الحق والهدى، لذلك يمتن الله تعالى على عباده بأن أكمل لهم هذا الدين ورضي لهم الإسلام ديناً، فكانت تلك نعمة من أعظم النعم، قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]، قال ابن كثير: «هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم ﷺ ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء.. فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة، ولهذا قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾؛ أي: فارضوه أنتم لأنفسكم فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام وأنزل به أشرف كتبه»[1]، وقال الزمخشري: ﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ بإكمال أمر الدين والشرائع.. لأنه لانعمة أتم من نعمة الإسلام»[2]، يقول سيد قطب: «ويقف المؤمن أمام إتمام النعمة بإكمال هذا الدين، وهي النعمة التامة الضخمة الهائلة؛ النعمة التي تمثل مولد «الإنسان» في الحقيقة كما تمثل نشأته واكتماله، فالإنسان لاوجود له قبل أن يعرف إلهه كما يعرّفه هذا الدين به. ودوره في هذا الوجود الذي يعيش فيه كما يعرفه له هذا الدين. قبل أن يعرف نفسه ودوره في هذا الوجود وكرامته على ربه، كما يعرف ذلك كله من دينه الذي رضيه له ربه. و«الإنسان» لاوجود له قبل أن يتحرر من عبادة العبيد بعبادة الله وحده وقبل أن ينال المساواة الحقيقية بأن تكون شرعته من صنع الله وبسلطانه، لا من صنع أحد ولا بسلطانه.

إن معرفة «الإنسان» بهذه الحقائق الكبرى كما صورها هذا الدين هي بدء مولد الإنسان...

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٣).

(٢) «الكشاف»، للزمخشري (١/ ٣٢٣).

ولايدرك حقيقة نعمة الله في هذا الدين، ولا يقدرها من لم يعرف حقيقة الجاهلية ومن لم يذق ويلاتها - والجاهلية في كل زمان وفي كل مكان هي منهج الحياة الذي لم يشرعه الله - فهذا الذي عرف الجاهلية وذاق ويلاتها.. ويلاتها في التصور والاعتقاد، وويلاتها في واقع الحياة.. هو الذي يحس ويشعر، ويرى ويعلم، ويدرك ويتذوق حقيقة نعمة الله في هذا الدين»(١).

فالدين يحرر الإنسان من العبودية لغير الله تبارك وتعالى، ويتصل بالله يعبده ويستمد منه شريعته.

ويكفي الإنسان ليعرف قيمة الدين أن ينظر نظرة إلى الجاهلية - قبل الإسلام - ماذا كان حال الإنسان - رجلاً أو امرأة - سواء كان في التصور والاعتقاد أو في الوضع الاجتماعي أو الاقتصادي أو غير ذلك.

ومن عظيم نعمة الله على الإنسان أن هذا لهذا الدين، قال تعالى ﴿ **يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [الحجرات: ١٧].

فالهداية منّة عظيمة من الله تبارك وتعالى يعيطها عباده المؤمنين الصالحين الذين أقبلوا على الله يطلبون منه الهداية، ولا يملك أحد أن يهدي أحداً إلا بإذن الله تبارك وتعالى، حتى رسول الله ﷺ ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ [القصص: ٥٦]، ولهذا امتن الله على رسوله بالهداية ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا** ﴾ [الفتح: ١]، كما امتن على الصحابة بالهداية ﴿ **وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا** ﴾ [الفتح: ٢٠]، كما امتن على جميع المؤمنين بالهداية ﴿ **يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ** ﴾ [المائدة: ١٦]، فمن أقبل

(١) «في ظلال القرآن» (٢/٨٤٤).

على الله هداه الله وثبته على طريق الهداية ومن أعرض عنه فإنه لايهديه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: ٣]، ولهذا علمنا ربنا تبارك وتعالى أن نطلب منه الهداية ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦].

فالهداية نعمة عظيمة من الله تبارك وتعالى يعطيها لأوليائه وعباده المؤمنين فيهديهم إلى الحق ويثبتهم على الهداية ﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ [الحجرات: ١٧]، يقول سيد قطب: «إن الإيمان هو كبرى المنن التي ينعم بها الله على عبد من عباده في الأرض، إنه أكبر منّة فى الوجود الذي يمنحه الله ابتداء العبد؛ وسائر ما يتعلق بالوجود من آلاء الرزق والصحة والحياة والمتاع.

إنها المنّة التي تجعل لوجود الإنسان حقيقة مميزة؛ وتجعل له في نظام الكون دوراً أصيلاً.

وأول ما يصنعه الإيمان في الكائن البشري، حين تستقر حقيقته في قلبه هو سعة تصوره لهذا الوجود، ولارتباطه هو به، ولدوره هو فيه، وصحة تصوره للقيم والأشياء والأشخاص والأحداث من حوله وطمأنينته في رحلته على هذا الكوكب الأرضي حين يلقى الله، و أنسه بكل ما في الوجود من حوله، وأنسه بالله خالقه وخالق هذا الوجود، وشعوره بقيمته وكرامته»[١].

أخرج ابن أبي الدنيا عن سفيان بن عيينة ؛ قال: ما أنعم الله عز وجل على العباد نعمة أفضل من أن عرفهم ﴿ لا إله إلا الله ﴾ قال وإن ﴿ لا إله إلا الله ﴾ لهم في الآخرة كالماء في الدنيا»[٢]، وقد فسر النبى - ﷺ - تمام النعمة بأنها «فوز من النار ودخول الجنة»، فقد أخرج أحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه؛ قال مر النبى ﷺ برجل يقول: اللهم إنى أسألك تمام النعمة، قال: «يا ابن آدم! أتدري ما تمام النعمة» ؟ قال: دعوة دعوت بها أرجو بها الخير. قال: «فإن تمام النعمة فوز من النار ودخول الجنة»[٣].

(١) «في ظلال القرآن» (٦/٣٣٥١).
(٢) «كتاب الشكر»، لابن أبي الدنيا رقم (٩٥)، تخريج الأرناؤوط.
(٣) «مسند الإمام أحمد» (٥/ ٢٣١)، ورواه ابن أبي الدنيا في «كتاب الشكر» رقم (١٥٣)، قال عنه الأرناؤوط: «وهو حديث حسن».

الفصل الخامس
نعم خاصة

- المبحث الأول: نعمة الأمن
- المبحث الثاني: نعمة المال
- المبحث الثالث: نعمة الصحة والعافية
- المبحث الرابع: نعمة الأهل والولد
- المبحث الخامس: نعمة الابتلاء
- خلاصة: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾

المبحث الأول
نعمة الأمن

الأمن نعمة عظيمة من نعم الله تبارك وتعالى، يمتن فيها على عباده، حيث يشعر فيها الإنسان بلذة الدنيا والنعم التي فيها. فالخائف لايذوق طعم النعمة لا في مال ولا في صحة ولا في غير ذلك، ولهذا كان الأمن نعمة عظيمة وكان الخوف بلاءً عظيماً.

والأمن هو طمأنينة في النفس ويقابله الخوف، قال الراغب: «أصل الأمن طمأنينة النفس، وزوال الخوف»[1].

والإنسان لايشعر بحقيقة الأمن إلا عندما يخاف ويشتد خوفه، فكلما كان خوفه أكثر كان شعوره بالأمن - حينما يأمن - أعمق وأقوى.

وإبراهيم عليه السلام لما شعر بقيمة الأمن دعا ربه أن يجعل البلد التي ترك فيها ابنه زوجته آمنا مطمئنا ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، فاستجاب الله تعالى دعوة إبراهيم. ولهذا امتن الله على قريش بهذه النعمة التي كفروها بعدم إيمانهم بالنبي محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، إلا أن قريشاً لما كفرت تلك النعمة أبدلها الله الخوف بدلاً من الأمن.

واستمع إلى حال موسى عليه الصلاة والسلام عندما كان يشعر بالخوف، حينما قتل الرجل - فخرج خائفا ثم أنعم الله عليه بالأمن، قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ⑱ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ

(١) «المفردات»، مادة (أمن).

تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ١٨ - ٢٥].

فحاله موسى عليه السلام عندما أصبح في المدينة خائفاً يترقب، وعندما خرج من المدينة خائفاً يترقب تمثل حالة الإنسان الخائف الفزع الذي يريد الهروب من بطش الظالمين، وعندها يتوجه إلى ربه أن ينجيه من القوم الظالمين، يقول سيد قطب: «.. ولفظ «يترقب» يصور هيئة القلق المتوجس، ويتوقع الشر في كل لحظة.. وهي سمة الشخصية الانفعالية تبدو في هذا الموقف كذلك. والتعبير يجسم هيئة القلق بهذا اللفظ..كما أنه يضخمها بكلمتي «في المدينة» فالمدينة عادة موطن الأمن والطمأنينة، فإذا كان خائفاً يترقب في المدينة، فأعظم الخوف ما كان في مأمن ومستقر»[١].

تلك هي صورة من صور الخوف والفزع الذي ينتاب الإنسان المؤمن الهارب من الظالمين ثم تأتي الصورة المقابلة التي منحه إياها تبارك وتعالى بمنة منه وفضل ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]، فكان أول ما أعطاه إياه أنه هدأ من روعه وهذا أهم شيء يعطاه الخائف، فلا حاجة للطعام ولا للشراب عندما يكون الخوف والفزع، إن أهم ما يحتاجه الإنسان في ذلك

(١) «في ظلال القرآن» (٥/٢٦٨٣).

الموقف هو الأمن، يقول سيد قطب: «فقد كان موسى في حاجة إلى الأمن؛ كما كان في حاجة إلى الطعام والشراب ولكن حاجة نفسه إلى الأمن كانت أشد من حاجة جسمه إلى الزاد. ومن ثم أبرز السياق في مشهد اللقاء قول الشيخ الوقور: ﴿ **لَا تَخَفْ** ﴾ فجعلها أول لفظ يعقب به على قصصه ليلقي في قلبه الطمأنينة، ويشعره بالأمان»(١).

وأهل مكة الذين منحهم الله تبارك وتعالى الأمن، بينما الناس يتخطفون من حولهم، أما الحرم فهو آمن، فمن دخله كان آمناً.. إلا أن الله أبدلهم بسبب كفرهم بدلا من ذلك الأمن بالخوف، قال تعالى: ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ [النحل: ١١٢].

فهذا المثل يراد به أهل مكة، أو أكثر ما ينطبق على أهل مكة فإنه تبارك وتعالى امتن عليهم بالأمن: ﴿ **الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ** ﴾ [قريش: ٤]، قال ابن كثير: «هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها ومن دخلها كان آمناً لايخاف»(٢).

وكذلك نجد أن الله تبارك امتن على سبأ بنعمة الأمن فكانوا يسيرون بين قراهم ليالي وأياماً آمنين، قال تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ** ﴾ [سبأ: ١٨].

وذكر الله تعالى عن أصحاب الحجر أنهم كانوا يعيشون في أمن وأمان، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ** ﴾ [الحجر: ٨٢].

والأمن في الآخرة أشد وأعظم، حيث يصيب الناس في الموقف هول عظيم فيؤمّن الله المؤمنين من هول ذلك اليوم، يقول الدكتور عمر سليمان الأشقر في كتاب «اليوم

(١) «وفي ظلال القرآن» (٥/٢٦٨٧).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/٥٦٩).

الآخر» : «صنف من عباد الله لايفزعون عندما يفزع الناس، ولا يحزنون عندما يحزن الناس، أولئك هم أولياء الرحمن الذين آمنوا بالله وعملوا بطاعة الله استعداداً لذلك اليوم فيؤمنهم الله في ذلك اليوم، وعندما يبعثون من القبور تستقبلهم ملائكة الرحمن تهدئ من روعهم، وتطمئن قلوبهم: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٣][1].

فالمؤمنون يؤمنهم الله من ذلك الفزع، ويدخلهم الجنة بأمان ﴿ **ادخلوها بسلام آمنين** ﴾ [الحجرات: ٤٦].

فالأمن نعمة عظيمة من نعم الله تعالى، وانظر كيف يكون حال الإنسان لو أنه عاش في خوف وفي هلع، إنه لايحس بطعم الحياة ولا بلذتها، لهذا قال النبي ﷺ: «**من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**»[2]، وروي أن بعض الحكماء قيل له: ما النعيم ؟ فقال: اغنى، فإني رأيت الفقير لا عيش له. قيل له: زدنا! قال: الأمن: فإني رأيت الخائف لايعيش له. قيل: زدنا! قال: العافية، فإني رأيت المريض لا عيش له. قيل: زدنا! قال: الشباب، فإني رأيت الهرم لا عيش له[3].

(١) «اليوم الآخر، القيامة الكبرى»، د. عمر سليمان الأشقر (ص١٥٨)، الطبعة الأولى ١٩٨٦م، مكتبة الفلاح، الكويت.
(٢) أخرجه الترمذي وحسنه، وابن ماجه.
(٣) «إحياء علوم الدين» (ص ٢٢٤٢)، دار الشعب، القاهرة.

المبحث الثاني
نعمـــة المـــال

المال نعمة عظيمة من نعم الله تبارك وتعالى، به يقيم الإنسان حياته وأمور معيشته، فبالمال يضمن الإنسان حياته فيعيش به عيشاً رغيداً، ويأمن حياته حيث المسكن وغير ذلك من أمور هذه الحياة.

أما الفقير الذي لامال له فإنه يعيش حياته في كد وشقاء، ويكون مستغرقاً وقته في طلب المال.. حتى إنك لتجد كثيراً من الناس يفاضلون فيما بينهم بالمال، يقول أبو حامد الغزالي: «أما المال: فالفقير في طلب العلم والكمال وليس له كفاية كساع إلى الهيجا بغير سلاح.. ولذلك قال ﷺ: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»[(١)].. وكيف لا؟ ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات في طلب الأقوات، وفي تهيئة اللباس والمسكن وضرورات المعيشة، ثم يتعرض لأنواع من الأذى تشغله عن الذكر والفكر ولا تندفع إلا بسلاح المال... قال بعض الحكماء وقد قيل له: ما النعيم؟ فقال: الغني، فإني رأيت الفقير لاعيش له..»[(٢)].

فبالمال تقوم أمور الحياة، والمال خير معين على طلب الكمال، قال تعالى ﴿ **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا** ﴾ [النساء: ٥].

والمال هو زينة الحياة الدنيا ﴿ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ إلا أن الصالحات أفضل بكثير ﴿ **وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا** ﴾ [الكهف: ٤٦].

وقد بين تبارك وتعالى أن الإنسان كثير الحب للمال، قال تعالى:

---

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث «الإحياء»: رواه أحمد (١٩٧/٤ و٢٠٢). من حديث عمرو بن العاص بسند جيد.
(٢) «إحياء علوم الدين» (ص ٢٢٤٢).

﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران ١٤].

والإسلام جعل المال أحد الضروريات التي شرع الإسلام أحكامه للحفاظ عليها، فبالاستقراء وجد أن الإسلام قد حافظ على ضروريات خمس، فشرع الأحكام لحمايتها ومنع المساس بها، وهي: الدين والنفس والعرض والمال والعقل.

فالمال من الوسائل التي لاتتم الحياة إلا به، ولهذا نجد أن القرآن الكريم قد جعل قيوداً كثيرة على المال من حيث كسبها ومن حيث صرفها، وشرع أحكاما كثيرة لحفظ الأموال، وبين أن هذه الأموال عامة لجميع أفراد المجتمع وليست لصاحبها الذي اكتسبها.

«فمن الأمور التي شرعها الله تبارك وتعالى للتخفيف من طغيان رأس المال والحفاظ على أموال الأمة وأفرادها[١]:

أ - التخفيف من طغيان رأس المال:

١- الزكاة: فقد جعل القرآن نصيباً - ولو قليلاً - في أموال الأغنياء يعود على الفقراء.

٢- الميراث: وقد شرعه الله تبارك وتعالى لتفتيت ثروات المتوفى بحسب القرابات.

٣- الوصية: وجعلت للمتوفى ليعود بها على من أعانه وأحسن إليه، حثاً على الوفاء والإحسان.

٤- نصيب الفقراء من الغنائم والفيء: والغنيمة ما يؤخذ من الحربيين بقتال، الفيء: مايؤخذ بدون قتال، قال تعالى: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ

(١) مقتبس من كتاب «روح الدين الإسلامي»، لعفيف الطباره (ص ٣٢٠).

وَللرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر: ٧].

٥- **تحريم كنز الأموال:** قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة: ٣٤].

ب: حفظ أموال الأمة والأفراد:

١- **الحجر على السفهاء:** حتى لايصرف المال إلا في الوجه الذي شرعه الله تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ [النساء: ٥].

٢- **اختبار اليتامى قبل تسليمهم أموالهم:** قال تعالى: ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء: ٦].

٣- **كتابة العقود المالية:** قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

٤- **تحريم الربا:** قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

٥- **تحريم أكل أموال الناس بالباطل:** قال تعالى: ﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٨].

٦- **تحريم القمار:** وقد سماه القرآن ميسراً، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠].

٧- **تحريم التلاعب بالمكاييل والموازين:** قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٩].

٨- النهي عن الإسراف والتبذير: قال تعالى: ﴿ **وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا** ﴾ [الإسراء: ٢٧].

فقد شرع القرآن هذه الأحكام للحفاظ على أموال الناس، فلا تكتسب إلا من الطرق المشروعة التي شرعها الله تبارك وتعالى، ولا تنفق إلا فيما ينفع الناس جميعاً، وهذا يدل على عظم عناية القرآن بالمال، مما يدل على أنه نعمة عظيمة فينبغي المحافظة عليه، وشكر هذه النعمة.

إلا أن المال قد يكون فتنة ووبالاً على الإنسان، حيث يلفت القرآن الانتباه لهذه القضية على أنه فتنة عظيمة، فينبغي أن لا يركن إليه، وأن يعتمد على الله الذي وهب له هذا المال، ولهذا نجد أن القرآن الكريم يوجه المؤمنين إلى صرف المال في الأوجه التي تنفع الإنسان في دنياه وآخرته، ويركز على قضية إنفاقه في ماينفعه في آخرته. أما إذا استخدمه فيما لايرضى الله تبارك وتعالى فإنه يكون عليه بلاء عظيماً، وبالتالي يكون الفقر نعمة له، والغنى بلاء عليه.

إذا؛ المال فتنة عظيمة جداً، قال تعالى: ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ [الأنفال: ٢٨]، وقال: ﴿ **إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ [التغابن: ١٥]، يقول النبي ﷺ: «**إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال**»[1].

ولهذا نجد في القرآن الكريم التحذير من أن تكون الأموال ملهية عن ذكر الله، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ [المنافقون: ٩].

فالمال نعمة عظيمة من النعم التي أنعم الله بها على عباده، جعلها الحق جل وعلا عوناً للإنسان على القيام بضرورات الحياة، وجعلها زينة للعباد؛ إلا أنه يكون نعمة إذا حصل عليه المرء بطريق مشروع وصرفه بطريق مشروع.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٣٧)، وقال: حديث حسن صحيح.

ومن حكمة الله العليم الخبير أنه حبب المال للإنسان، فجعل فيه غريزة حب المال، ولو لم يكن الإنسان محباً للمال لتعذرت الحياة وتعذرت التجارة والكسب وذلك أن صاحب المال يكتفي بماله ويقعد عن طلب الرزق.. إلا أن حب المال يجعل الإنسان يكد ويشقى حتى آخر عمره.. وعندها يتحول الإنسان إلى كتلة من النشاط ليقوم بإعمار هذه الأرض.



المبحث الثالث
نعمة الصحة والعافية

ما يصيب الإنسان من مرض إنما هو ابتلاء من الله تبارك وتعالى، ليعلم فيه الصابر من غير الصابر. والصحة نعمة عظيمة على المرء، ولكن الناس لطول إلفهم للصحة والعافية لايعرفون هذه النعمة، وقرد في المثل: الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لايعرفها إلا المرضى. والإنسان المريض يكون ضعيفا لا يستطيع القيام بأمور الحياة على الوجه المطلوب، أما الإنسان القوي فإنه يقوم بمهمته خير قيام، ولهذا امتدح الله ورسوله القوة، فقد جاء على لسان ابنة شعيب عن موسى عليه السلام: ﴿**يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ**﴾ [القصص: ٢٦]، كما قال تعالى عن طالوت: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ**﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وقال النبي ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلّ خير**»[(١)].

فالصحة نعمة عظيمة، يجب على الإنسان أن يحس بها وأن يقوم بشكرها. إن الإنسان لو أصيب بأدنى مرض فإنه لايجد طعم الحياة بل قد يتمنى البعض الموت هرباً من آلام المرض.

والمرض ابتلاء عظيم يمتحن الله به الناس، ولكن البلاء قد يكون نعمة عظيمة إذا علم المرء أن من صبر عليه نال الأجر العظيم، ففي المرض حط للذنوب وتكفير للسيئات.. وإن الله تعالى إذا أحب عبده المؤمن فإنه يبتليه بشتى أنواع الابتلاءات، لأنه حينما يصبر يكون له أجر عظيم، فقد روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة**»[(١)].

---

(١) «مسلم» (٢٦٦٤)، كتاب بالقدر (٣٤).

(١) رواه الترمذي (٢٣٩٩)، وقال: حديث حسن صحيح.

وبالمرض ابتلى الله تعالى أيوب عليه السلام والذي قال الله عنه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٣]، ثم امتن الله عليه بالصحة والعافية، قالتعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: « **إن الصحة والفراغ نعمتان من نعم الله مغبون فيهما كثير من الناس**»[١]، وقال: « **إن أول مايسأل عنه العبد من النعم أن يقال له: ألم أصح جسمك، ونروك من الماء البارد** »؟[٢].

وأخرج ابن أبي الدنيا عن وهب بن منبه؛ قال: رؤوس النعم ثلاثة: فأولها: نعمة الإسلام، التي لاتتم النعم إلا بها، والثانية: نعمة العافية، التي لاتطيب الحياة إلا بها، والثالثة: نعمة الغنى، التي لايتم العيش إلا بها»[٣].



(١) «مسند الإمام أحمد» ١٠/٢٥٨.
(٢) أخرجه الخرائطي في كتاب «فضيلة الشكر»، رقم (٥٤).
(٣) «كتاب الشكر»، رقم (١٦٩).

المبحث الرابع
نعمة الأهل والولد

فالأهل والولد والأقارب من النعم، قال الغزالي في الإحياء: « وأما الأهل والولد فلا يخفى وجه الحاجة إليهما، إذ قال ﷺ: « نعم العون على الدين المرأة الصالحة »[١]، وقال ﷺ في الولد: « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث... وولد صالح يدعو له.. »[٢]، وأما الأقارب فمهما كثر أولاد الرجل وأقاربه كانوا له مثل الأعين والأيدي، فيتسير له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمة في دينه مالو انفرد به لطال شغله. وكل ما يفرغ قلبك من ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين، فهو إذن نعمة »[٣].

قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٢].

فالأولاد من نعم الله على الإنسان، جعلهم الحق جل وعلا من زينة الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٤٦]، قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

ولهذا نجد أن نوحا عليه السلام قد وعد قومه إن هم استغفروا ربهم وتابوا إليه أن

---

(١) قال العراقي: لم أجد له إسناداً (ص ٢٢٤٢)، ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو: «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة»، (مسلم ١٤٦٧) كتاب الرضاع (٦٤).

(٢) «الترمذي» (١٣٧٦)، كتاب الأحكام، باب (٣٦)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) «إحياء علوم الدين» (ص ٢٢٤٢)، طبعة دار الشعب، القاهرة.

يمدهم بالأموال والبنين ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح:١٢]، وكذلك نجد هوداً عليه السلام يطلب من قومه أن يتقوا الله الذي أمدهم بالأنعام والبنين، وهو يحذرهم إن استمروا على كفرهم أن يسلبهم هذه النعم: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٣].

والزوجات من النعم العظيمة التي أنعم الله بها على الإنسان، وخلق الزوجة بالصفات التي ذكرها القرآن من آيات الله العظيمة التي تدل على عنايته بالإنسان فجعل له الزوجة ليسكن إليها وجعل بينهما المودة والرحمة، ومن الزوجة ينجب الأولاد الذين هم زينة الحياة الدنيا فيكونون عوناً للرجل في كبره، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

يقول المرحوم عفيف الطبارة: «فهذه الآية تنبه الرجل والمرأة إلى أن من أعظم دلائل قدرة الله وآيات كرمه أن خلق للرجل زوجة من جنسه ليسكن إليها السكون النفسي المذكور في هذه الآية، وهو تعبير بليغ عن شعور الشوق والحب والرغبة الذي يشعر به كل منهما نحو الآخر، والذي يزول به أعظم اضطراب فطري في القلب والعقل، ولا ترتاح النفس وتطمئن في سريرتها بدونه.. وكذلك من دلائل كرمه التي حدثتنا به الآية أن جعل بين الزوجين مودة حب ورحمة عطف ثابتتين لا تبليان كما تبلى مودة غير الزوجين ممن ألفت بينهما الشهوات. وجاء في القرآن: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]

فهذه الآية شبهت كلاً من الزوجين باللباس، لأن كلاً منهما يستر الآخر، فحاجة كل منهما إلى صاحبه كحاجته إلى الملبس، فإن يكن الملبس لستر معايب الجسم ولحفظه من غايات الأذى، وللتجميل والزينة فكل من الزوجين لصاحبه كذلك؛ يحفظ عليه شرفه ويصون عرضه ويوفر له راحته وصحته»[١].

(١) «روح الدين الإسلامي» (٣٦٢).

ولهذا نجد أن الله يمتن على المؤمنين بأن يدخل الزوجات مع أزواجهن إلى الجنة، ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠]، والحبور هو السرور العظيم، أي تسرون، وقال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: ٥٦]، وبذلك يزداد نعيم أهل الجنة في جمع الرجال إلى النساء فيدخلون الجنة ويجتمعون فيها بسرور بالغ كبير.

إلا أن الزوجات والأولاد يكونون نعمة على الإنسان إذا كانوا له عوناً على دينه، فالولد الصالح يكون نعمة له، وكذلك الزوجة الصالحة، أما إذا لم يكونوا عوناً له على دينه فإنهم يكونون نقمة عليه لا نعمة له.

ولهذا ورد في القرآن التحذير من الأولاد والزوجات من أن يكونوا فتنة له على دينه، قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

يقول سيد قطب: « فهذا التحذير من الأزواج والأولاد كالتحذير الذي في الآية التالية من الأموال والأولاد معاً: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.. والتنبيه إلى أن من الأزواج والأولاد من يكون عدواً .. إن هذا يشير إلى حقيقة عميقة في الحياة البشرية... فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله. كما أنهم قد يكونون دافعاً للتقصير في تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه »[(١)].

فالزوجة والأولاد الصالحون هم الذين يكونون نعمة.



(١) «في ظلال القرآن» (٦ / ٣٥٨٩).

المبحث الخامس
نعمــة الابتــلاء

الابتلاء نعمة عظيمة يمن الله بها على عباده المؤمنين خاصة.

والنعمة هي التي تورث في النفس السرور والغبطة، حيث يعيش الإنسان عيشاً هنيئاً، كأن يكون كثير المال والجاه والأولاد.. أما الابتلاء فإنه عادة يورث في النفس الحزن والأسى، كآلام النفس وأسقام البدن، وفقدان الأحبة، وخسران المال، ومتاعب العيش، ومفاجآت الدهر.. إلى غير ذلك من البلاء الذي يصيب كل إنسان حسبما قدر الله له ذلك.

ولكن المؤمن ينظر إلى الابتلاء على أنه نعمة عظيمة، وهذه النعمة يمن الله بها على عباده المؤمنين خاصة، فإنه كلما كان الإنسان إلى الله أقرب أنزل الله عليه من البلاء ما يكفر به ذنوبه ويرفعه درجات عالية حتى يكون عند الله من المقربين.

فالابتلاء نعمة عظيمة، وذلك إذا تلقاها المؤمن بالصبر والاحتساب عند الله تعالى، وينظر إليها على أنها من محب لمحبوبه، فالله يحب عبده المؤمن حباً عظيماً، ومع هذا فإنه ينزل عليه من البلاء ما لا تطيقة عادة البشر.

والابتلاء معناه الاختبار قال الراغب: «وبلوته: اختبرته، كأني أخلقته من كثرة اختباري له، وقرئ: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠] أي نعرف حقيقة ما عملت»[١]، أي أن الله تعالى ينزل على العباد هذه القضايا من الخوف والجوع ونقص الأموال.. ليختبر العباد في ذلك، فمن صبر واحتسب كان له الأجر العظيم، ومن لم يصبر كان له العذاب المقيم.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ

---

(١) «المفردات»، للراغب، مادة (بلى).

وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقر: ١٥٧].

وفي الابتلاء فائدة عظيمة تعود على المؤمن في أمر دينه ودنياه، ففي دينه: حيث تقوى عقيدته، وذلك أن الرضا بالبلاء يجعل المؤمن دائم الاتصال بالله، فهو متصل بربه في السراء والضراء وفى جميع الأحوال. وكذلك في دنياه، فإنه يعتاد أن يتلقى المصائب بصبر، وبالتالي فإن الأمر يكون بالنسبة له سيان، سواء كان في السراء أو في الضراء، فإنه يتلقى المصائب بالرضا، فتتحول حياته إلى عطاء دائم، فلا يعرف الجزع ولا القنوط، ولهذا قال النبي ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراءُ شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**»(١).

يقول سيد قطب في بيان الابتلاء: «ولابد من تربية النفوس بالبلاء، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد، وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات .. لابد من هذا البلاء ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة، كي تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف. والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لايعز عليهم التخلى عنها عند الصدمة الأولى، فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الذي تعزّ به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعز في نفوس الآخرين. وكلما تألموا في سبيلها، وكلما بذلوا من أجلها.. كانت أعز عليهم وكانوا أضن بها. كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها وصبرهم على بلائها.. إنهم عندئذ سيقولون في أنفسهم: لو لم يكن ما عند هؤلاء من العقيدة خيراً مما يبتلون به وأكبر ما قبلوا هذا البلاء، ولا صبروا عليه.. وعندئذ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها، مقدرين لها، مندفعين إليها...

(١) رواه مسلم برقم (٢٩٩٩).

ولابد من البلاء كذلك ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى، فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومذخور الطاقة ؛ وتفتح في القلب منافذ ومسارب ما كان ليعملها المؤمن في نفسه إلا تحت مطارق الشدائد...»(1).

فالابتلاءات والمحن إنما هي نعم عظيمة على المؤمن تتربى فيها نفسه على الصبر، ويقوى بذلك إيمانه..

فالفقر ابتلاء من الله تعالى، إلا أن الفقير إذا صبر واحتسب كان له نعمة عظيمة.. ومن فوائد الفقر أن الفقير أقل حساباً يوم القيامة من الغني، ولهذا فإن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء. روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمئة عام»**(2)، وروى مسلم أن النبي ﷺ قال: **«اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»**(3).

والمرض ابتلاء من الله تعالى، لكن المريض إذا صبر واحتسب كان له نعمة عظيمة وذلك إذا علم أن المرض تكفير للذنوب، قال رسول الله ﷺ: **«ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة»**(4)، وقال ﷺ: **«ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولاحزن ولا أذىً ولاغمّ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها عن خطاياه»**(5).

وعليه: فكل مصيبة تصيب المؤمن تكون نعمة عليه إذا صبر واحتسب وتكون نعمة عليه لو أنه نظر إلى أمور أخرى، منها: ألا تكون فى دينه، وألا تكون أعظم مما كانت. أخرج ابن أبي الدنيا عن شريح قال: «ما أصيب عبد بمصيبة إلاكان لله عز وجل فيها ثلاث نعم: ألا تكون في دينه، وألا تكون أعظم مما كانت، وأنها لابد كائنة فقد كانت»(6).

---

(1) «في ظلال القرآن» (1 / 145).
(2) «الترمذي» (2354)، وقال عنه: حديث حسن صحيح.
(3) «مسلم» (2737).
(4) رواه الترمذي (2399)، وقال: حديث حسن صحيح.
(5) رواه مسلم (2573).
(6) «كتاب الشكر»، رقم (79).

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الله بن المبارك عن سفيان قال: كان يقال: «ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة»(١).

هذا وللإمام الغزالي في الإحياء كلام طويل وجيد في بيان نعمة الله في الابتلاء، حيث يقول: «في كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح الغافل بها ويشكر عليها:

أحدها: أن كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها.. فليشكر إذ لم تكن أعظم منها في الدنيا.

الثاني: أنه كان يمكن أن تكون مصيبته في دينه. قال رجل لسهل: دخل اللص بيتي وأخذ متاعي! فقال: اشكر الله تعالى، لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع؟.... وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى عليّ فيه أربع نعم: إذ لم يكن في ديني، وإذ لم يكن أعظم منه، وإذ لم أحرم الرضا به، وإذ أرجو الثواب عليه...

فإن قلت: كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتي، ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار؟ فاعلم أن الكافر قد خبيء له ما هو أكثر، وإنما أمهل حتى يستكثر من الإثم.. كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا** ﴾ [آل عمران: ١٧٨]..

الثالث: ما من عقوبة إلا وكان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة، ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة فيخف وقعها، ومصيبة الآخرة تدوم، وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلي.. ومن عجلت عقوبته في الدنيا فلا يعاقب ثانياً، إذ قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد إذا أذنب ذنباً فأصابته شدة أو بلاء في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانياً**»(٢).

الرابع: أن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب، وكان لابد من

(١) المصدر السابق، رقم (٨٠).

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه.

وصولها إليه، وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها، وهذه نعمة.

الخامس: أن ثوابها أكثر منها، فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة. كما يكون الدواء الكريه نعمة في حق المريض، ويكون المنع من أسباب اللعب نعمة في حق الصبي.. وغداً يشكره العباد على البلايا إذا رأوا ثواب الله على البلايا كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه... فكل بلاء في الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذي يؤلم في الحال وينفع في المال.. فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلايا، ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يتصور منه الشكر، لأن الشكر يتبع معرفة النعم بالضرورة، ومن لايؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة»[١].

ففي الابتلاء نعمة عظيمة عندما يرافقها صبر واحتساب من المؤمن.

ولكن لايعلم من هذا أن الابتلاء أفضل من العافية! فالعافية أفضل من البلاء وذلك أن النبي ﷺ كان يستعيذ في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة، قال الإمام الغزالى في الإحياء: «لعلك تقول: هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير في الدنيا من النعم، فهل لنا أن نسأل الله البلاء؟ فأقول: لا وجه لذلك، لما روي عن رسول الله ﷺ أنه كان يستعيذ من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة[٢]»[٣].

وروي الإمام أحمد عن معاذ بن جبل قال: مر النبي - ﷺ - برجل وهو يقول: اللهم إنى أسالك الصبر، فقال: **«قد سألت البلاء، فسل الله العافية»**[٤].

وأخرج ابن أبي الدنيا عن مطرف بنعبد الله قال: « لأن أعافى فأشكر أحب إليّ من

---

(١) «إحياء علوم الدين»، للغزالي (٤ / ١٣٣).

(٢ و ٣) قال العراقي في الحديث: رواه أحمد من حديث بشر بن أبي أرطأة بلفظ: «أجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة»، وإسناده جيد. «الإحياء» (٤ / ١٣٤).

(٤) «مسند الإمام أحمد» (٥ / ٢٣١).

أن ابتلي **فأصبر**»[١]، وقال ﷺ: «**يا عباس! ياعم النبي، أكثر الدعاء بالعافية**»[٢].

فالبلاء أجره عظيم إلا أن العافية أحب إلى نفس المؤمن، فلعل الإنسان لا يستطيع الصبر على البلاء.



(١) «كتاب الشكر»، رقم (٦٤).
(٢) «كتاب الشكر»، رقم (١٥٠)، وإسناده حسن، ورواه أحمد في «المسند» (١ / ٢٠٩).

خلاصـة
﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾

إن ما ذكر من النعم التي سبقت الإشارة إليها إنما هي نعم بسيطة وقليلة لأن نعم الله تعالى لاتعد ولاتحصى.

ومنهج القرآن الكريم في عرض النعم، أنه يذكر بالنعم ويعرض عليهم المألوف منها.، فإن هذه النعم مستمرة عليهم ولكن الإنسان لأنه ألف هذه النعم لم يعد يفكر في شأنها، وكما قيل في المثل: « الإلف عدو التفكير » يقول سيد قطب: «وأكثر النعم لا يدريها الإنسان، لأنه يألفها فلا يشعر بها إلا حين يفتقدها.. وهذا تركيب جسده ووظائفه، متى يشعر بما فيه من إنعام إلا حين يدركه المرض فيحس بالاختلال؟»[(١)]، فالقرآن يهدف إلى إيقاظ النفوس من نومها وإلفها لهذه النعم، ليفكروا فيها فإن في ذلك أعظم الدلالة على عناية الله بالإنسان.

والنعم كثيرة جداً لا تعد ولا تحصى، وما ذكره القرآن إنما هو تذكير بأصول النعم حتى يتفكر المؤمن في بقية النعم فيقيس عليها، ولهذا قال تعالى: **﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾** [إبراهيم: ٣٤]، فالنعم إذاً لايمكن عدها ولا حصرها فكيف للإنسان أن يقوم بشكر نعم لايعرفها؟... إن الإنسان إذا عر ف عجزه وقصوره عن القيام بشكر النعم فإن ذلك شكر لله ومعرفة للنعمة فيعرف أن النعم أكثر من أن يحصيها عقل بشري، يقول ابن كثير: «يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم، فضلاً عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب رحمه الله: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين... وقال الإمام الشافعي رحمه الله: الحمد لله الذي لا تؤدى شكر نعمة من

(١) «في ظلال القرآن» (٤ / ٢١٦٤).

نعمه إلا بنعمة حادثة توجب شكره بها»[١]. وقال الشوكاني في فتح القدير: «ومعلوم أنه لو رام فرد من أفراد العباد أن يحصي ما أنعم الله به عليه في خلق عضو من أعضائه، أو حاسة من حواسه لم يقدر على ذلك قط، ولا أمكنه أصلاً، فكيف بما عدا ذلك من النعم في جميع ما خلقه الله في بدنه. فكيف بما عدا ذلك من النعم الواصلة إليه في كل وقت على تنوعها واختلاف أجناسها؟»[٢]، وقال أيضاً: « إن كل جزء من أجزاء الإنسان لو ظهر فيه أدنى خلل، وأيسر نقص لنغص النعم على الإنسان، وتمنى أن ينفق الدنيا لو كانت في ملكه حتى يزول عنه ذلك الخلل، فهو سبحانه يدير بدن هذا الإنسان على الوجه الملائم له، مع أن الإنسان لاعلم له بوجود ذلك، فكيف يطيق حصر بعض نعم الله عليه، أو يقدر على إحصائها، أو يتمكن من شكر أدناها؟ ؟!»[٣].

فنعم الله أكثر من أن تحصى فضلاً عن أن يقوم الإنسان بشكرها.

وإنك لو تأملت فقيراً، بل أفقر الفقراء في الدنيا لوجدته يعيش في نعم عظيمة جداً.. حتى لو طلب منه أن يستبدلها بملك عظيم فقد لا يرضى، يقول أبو السعود: « ما من فرد من أفراد الناس وإن كان في أقصى مراتب الفقر والإفلاس ممنواً بأصناف العنايا مبتلى بأنواع الرزايا، فهو بحيث لو تأملته ألفيته متقلباً في نعم لا تحدّ ومنن لا تحصى ولا تعدّ، كأنه قد أعطي كل ساعة وآن من النعماء ما حواه حيطة الإمكان. وإن كنت في ريب من ذلك فقدر أنه ملك ملك أقطار العالم ودانت له كافة الأمم.. وخضعت لهيبته رقاب العتاة وفاز بكل مرام.. وحاز جميع ما في الدنيا.. ثم قدر أنه قد وقع من فقد مشروب أو مطعوم في حالة بلغت نفسه الحلقوم، فهل يشتري وهو في تلك الحال بجميع ماله من الملك والمال لقمة تنجيه عن رواه أو شربة ترويه من ظماه، أم يختار الهلاك فتذهب الأموال والأملاك فتلك اللقمة والشربة مما في الدنيا بألف

(١) «تفسير ابن كثير» (٢ / ٥٢٠).
(٢) «فتح القدير»، للشوكاني (٣ / ١١٠).
(٣) المصدر السابق (٣ / ١٥٤).

رتبة مع أنهما في طرف الثمام ينالهما متى شاء[١] فكل إنسان مهما افتقرت حالته فإنه يعيش في نعم لاتعد ولا تحصى، ويملك من النعم مالو بيعت لمحتاجيها لكان في ملك عظيم لاتساويه كنوز الدنيا. دخل أحد الواعظين على أحد الخلفاء فطلب منه الخليفة أن يعظه، فقال للخليفة: لو كنت في صحراء واحتجت إلى شربة ماء لتنجيك من الهلاك أكنت تشتريها بنصف ملكك؟ قال: نعم، ثم قال له: لو أنك احتجت إلى إخراج الماء الذي شربته وتعذر عليك ذلك أتدفع نصف ملكك في إخراجه؟ قال: نعم، فقال له: إن ملكك لايساوي شربة ماء.

فالإنسان يعيش في نعم عظيمة لاتعد ولا تحصى. وإن نعمة واحدة قد هيأ الله لها حتى كانت من الظروف والوسائل والأسباب مالا يملكه إلا الله تعالى، فانظر إلى لقمة الخبز التي يأكلها الإنسان ولا يعرف من نفسه إلا أنه يأكلها فكم تمر لقمة الخبز هذه بمراحل حتى تصل إلى الإنسان لقمة سائغة، إنها تحتاج إلى الكون بأكلمه حتى تصبح في مرحلة النضج والطعام، وتحتاج إلى ما لا يقل عن نصف العباد حتى يتم لهم إنتاج هذه اللقمة الواحدة، يقول سيد قطب: «وإنبات حبة واحدة يحتاج إلى القوة المهيمنة على هذا الكون كله لتسخر أجرامه وظواهره في إنبات هذه الحبة وإمدادها بعوامل الحياة ..»[٢]، ويقول أبو حامد الغزالي: «ولننظر إلى ما يحتاج إليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للأكل من بعد إلقاء البذر في الأرض، فأول ما يحتاج إليه: الحارث يزرع ويصلح الأرض، ثم الثور الذي يثير الأرض والفدان وجميع أسبابه، ثم بعد ذلك التعهد بسقي الماء مدة، ثم تنقية الأرض من الحشيش ثم الحصاد، ثم الفرك والتنقية، ثم الطحن، ثم العجين، ثم الخبز . فتأمل عدد هذه الأفعال التي تم ذكرها وما لم نذكره، عدد الأشخاص القائمين بها، وعدد الآلات التي يحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيره! وانظر إلى حاجة الحداد إلى الحديد والرصاص والنحاس! وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال والأحجار والمعادن، وكيف جعل الأرض

(١) «تفسير أبي السعود» (٥ / ٤٩).
(٢) «في ظلال القرآن» (٤ / ٢١٠٨).

قطعاً متجاورات مختلفة! فإن فتشت علمت أن رغيفاً واحداً لا يستدير بحيث يصلح للأكل .. ما لم يعمل عليه أكثر من ألف صانع ...

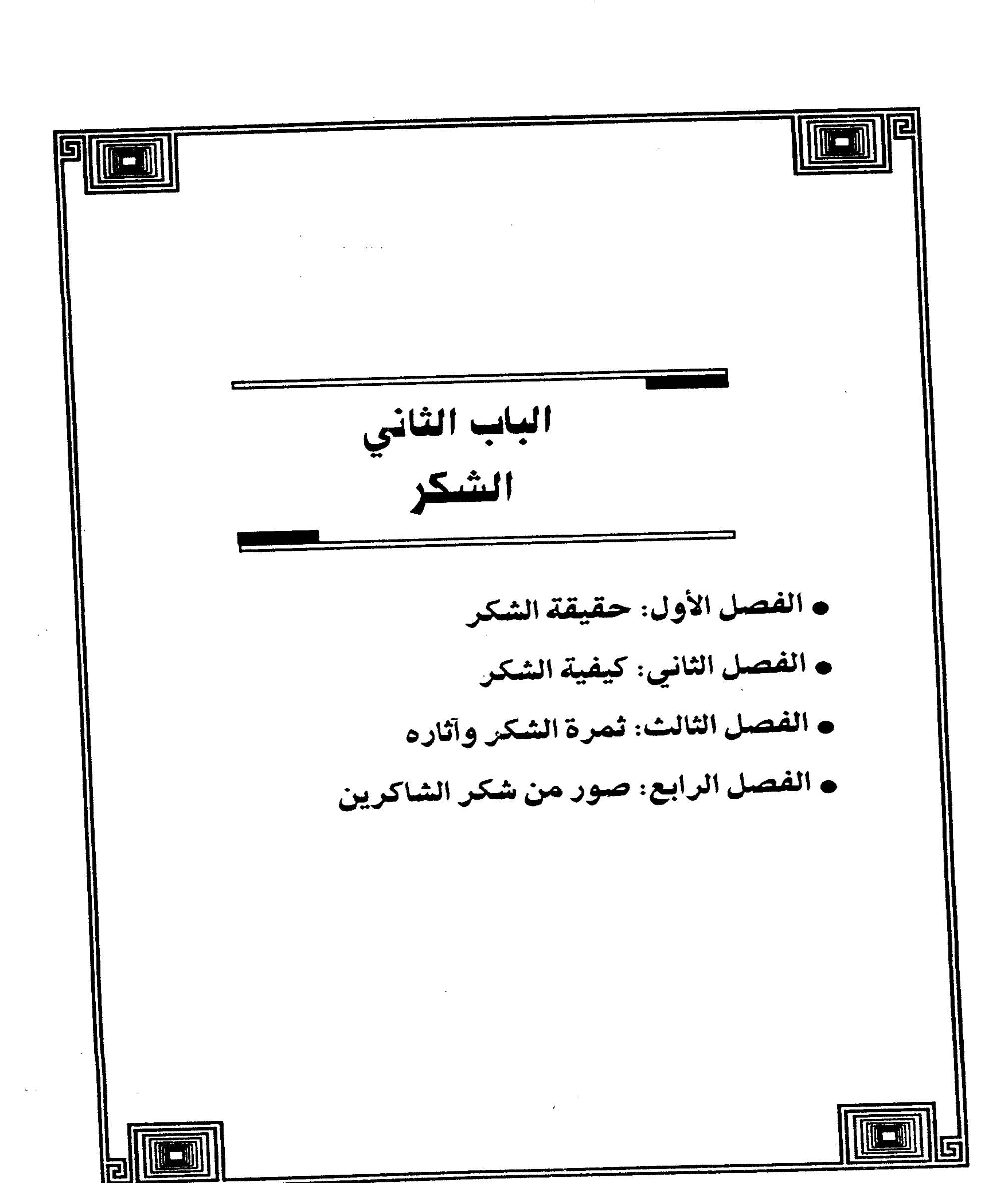
فلو لم يجمع الله تعالى البلاد ولم يسخر العباد، وافتقرت إلى عمل المنجل الذي تحصد به البرّ مثلاً بعد نباته لنفذ عمرك وعجزت عنه. أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذي خلقه من نطفة قذرة لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة والصنائع الغريبة ... فانظر الآن لو خلا بلدك عن الطحان مثلاً، أو عن الحداد، أو عن الحجام، أو عن الحائك، أو عن واحد من جملة الصناع، ماذا يصيبك من الأذى وكيف تضطرب عليك أمورك كلها؟ فسبحان من سخر بعض العباد لبعض حتى نفذت به مشيئته وتمت حكمته!»[١] .

فالكون والعباد جميعًا كلهم يسيرون في سُنَّة واحدة لتأمين حاجيات الإنسان من طعام وغيره، والكون وجسم الإنسان بما فيه من أجهزة تثير العجب، يسيرون وفق سُنَّة كونية لتأمين الغذاء للإنسان، يقول الشيخ عبد المجيد الزنداني: «وعليه: فإن البذور، والتربة، والبحار، والرياح، والسحب، وحرارة الشمس، والأنهار، والعيون، والمياه الجوفية، و الجذور النباتية، والمصانع الخضراء الصغيرة، والضوء القادم من الشمس، وتقلب الليل والنهار، وثاني أكسيد الكربون، ورئات الحيوانات، وثغور الأوارق، ومخازن الغذاء، والأسنان واللسان والغدد اللعابية، ولسان المزمار «الغلصمة» والمريء، وحركاته الدورية وإفرازاته المخاطية، والمعدة وأنزيماتها وغشاؤها المخاطي المبطن، والأمعاء الدقيقة وخملاتها، وأنزيمات البنكرياس، والدماء وأنابيب الدماء «العروق والشعيرات» والقلب، واللمف وعقده وأنابيبه، كل هذه المخلوقات قد قررت التوفية بشروط الاتفاقية كل فيما خصه لإمداد خلايا الجسم بالغذاء»[٢] .



(١) «إحياء علوم الدين» (٤ / ١١٦).

(٢) كتاب «توحيد الخالق» (١ / ٥٨)، للشيخ عبد المجيد الزنداني.



الباب الثاني
الشكر

- الفصل الأول: حقيقة الشكر
- الفصل الثاني: كيفية الشكر
- الفصل الثالث: ثمرة الشكر وآثاره
- الفصل الرابع: صور من شكر الشاكرين

الفصل الأول
حقيقة الشكر

- المبحث الأول: تعريف الشكر لغة واصطلاحاً
- المبحث الثاني: منزلة الشكر ومكانته
- المبحث الثالث: درجات الشكر ومراتبه
- المبحث الرابع: الشكر بين مراتب الإيمان
- المبحث الخامس: الشكر والحمد
- المبحث السادس: الشكر والصبر
- المبحث السابع: الشكر هبة من الله تعالى

المبحث الأول
تعريف الشكر لغة واصطلاحاً

أولاً: تعريف الشكر في اللغة:

الشكر في أصل اللغة هو ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان، وهي تعني الامتلاء، قال الراغب عن الشكر: «قيل: وهو مقلوب عن الكشر أي الكشف، ويضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها، ودابة شكور مظهرة بسمنها إسداء صاحبها إليها، وقيل أصله من عين شكرى، أي ممتلئة. فالشكر على هذا هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه»[1]، وقال ابن القيم: «أصل الشكر في وضع اللسان: ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهوراً بيناً. يقال شكرت الدابّة تشكر شكراً.. إذا ظهر عليها أثر العلف، ودابة شكور: إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تأكل وتعطى من العلف»[2].

ثانياً: تعريف الشكر في الاصطلاح:

للعلماء أقوال كثيرة في الشكر، ولكن يجمعها قول من قال إن الشكر هو:

«ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبة، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة»[3].

والشكر قد يكون بالقلب وقد يكون باللسان وقد يكون بالجوارح، ولا يكون شكراً بالحقيقة إلا بالاجتماع هذه الوسائل الثلاثة، أي باجتماع القلب واللسان والجوارح على الشكر، فإن كان الشكر في واحدة منها وتخالفها الأخرى لايكون شكراً كمن يتلفظ بلسانه بالشكر، بينما قلبه غير ذلك فهذا لا يسمى شكراً.

واختلاف العلماء في تعريف الشكر لأن بعضهم يرجعه إلى القلب، وبعضهم يرجعه إلى اللسان، وبعضهم يرجعه إلى الجوارح.

---

(١) «المفردات»، للراغب، مادة (شكر).

(٢) «مدارج السالكين» (٢ / ٢٤٤).

(٣) «مدارج السالكين» (٢ / ٢٤٤).

قال ابن القيم - وقد نقل أقوال العلماء والعارفين في الشكر: «قيل: حده الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع، وقيل: الثناء على المحسن بذكر إحسانه. وقيل: هو عكوف القلب على محبة المنعم، والجوارح على طاعته، وجريان اللسان بذكره والثناء عليه... وما ألطف ما قال حمدون القصار: شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيلياً. وقال أبو عثمان: الشكر معرفة العجز عن الشكر. وقال الجنيد: الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة... هذا معنى قول حمدون: أن ترى نفسك فيها طفيلياً... وقال الشبلي: الشكر رؤية المنعم لارؤية النعمة»[١]، ثم قال ابن القيم: «والكمال أن تشهد النعمة والمنعم، لأن شكره بحسب شهود النعمة، فكلما كان أتم كان الشكر أكمل، والله يحب من عبده أن يشهد نعمه ويعترف له بها، ويثني عليه بها، ويحبه عليها، لا أن يفنى عنها ويغيب عن شهودها»[٢].

فاختلاف العلماء في تعريف الشكر لأن كلاً منهم نظر إلى جزئية من التعريف الجامع، أو نظر إلى وسيلة من وسائل الشكر، يقول الغزالي معلقاً على اختلافهم في تعريف الشكر: «فأما قول من قال: إن الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع، فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب. وقول من قال: إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه، نظر إلى مجرد عمل اللسان. وقول القائل: إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة، جامع لأكثر معانى الشكر لا يشذ منه إلا عمل اللسان. وقول حمدون القصار: شكر النعمة أن ترى نفسك في الشكر طيفلياً، إشارة إلى أن معنى المعرفة من معاني الشكر فقط. وقول الجنيد: الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة، إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص. وهؤلاء أقوالهم تعرب عن أحوالهم، فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق. ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين لأنهم لايتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم، اشتغالا بما يهمهم عما لا يهمهم، أو يتكلمون بما يرونه لائقاً بحالة السائل..»[٣].

(١ و٢) «مدارج السالكين» (٢ / ٢٤٦).
(٣) «إحياء علوم الدين» (٤ / ٨٥)، دار المعرفة، بيروت.

وقد بين الإمام الغزالي تعريف الشكر فقال: «اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين، وهو أيضاً ينتظم من علم وحال وعمل، فالعلم هو الأصل فيورث الحال، والحال يورث العمل، فأما العلم فهو: معرفة النعمة من المنعم، والحال: هو الفرح الحاصل بإنعامه، والعمل: هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه. ويتعلق ذلك بالعمل بالقلب وبالجوارح وباللسان»[١].

وقال الراغب الأصفهاني: «الشكر: تصور النعمة وإظهارها.. والشكر ثلاثة أضرب: شكر القلب وهو تصور النعمة، وشكر اللسان وهو الثناء على المنعم، وشكر سائر الجوارح وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقها ﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا**﴾... وذكر ﴿**اعْمَلُوا**﴾ ولم يقل: اشكروا، لينبه على التزام الأنواع الثلاثة من الشكر بالقلب واللسان وسائر الجوارح»[٢].



(١) «إحياء علوم الدين» (٤ / ٨٣).

(٢) «المفردات»، للراغب، مادة (شكر).

المبحث الثاني
منزلة الشكر ومكانته

والشكر مرتبته عالية جداً، فهو من أعلى مراتب الدين، وهو خلق من أخلاق الربوبية إذ وصف الله به نفسه، فقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]

وبالشكر أثنى الله على أصفيائه وأوليائه، ولكن لما كان أمر الشكر صعباً كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، فإنه تعالى لم يثن إلا على اثنين من أوليائه بالشكر، فقال جل شأنه عن إبراهيم عليه السلام ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النحل: ١٢١]، وقال نوح عليه السلام ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٢].

وجعل تعالى الشكر مفتاح كلام أهل الجنة، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزمر: ٧٤]، وقال: ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ وقد تكفل تبارك وتعالى بالجزاء العظيم لمن شكر، وبين أن الشكر هو سبب مزيد النعمة الحفاظ عليها، فقال جل شأنه ﴿وسنجزي الشاكرين﴾، وقال: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾. وقرن الحق جل وعلا بين الشكر وبين الذكر والصبر، فقرن الشكر بذكره تعالى، فقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة ١٥٢]، وقرنه بالصبر، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]، وذلك أن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر»[1]، لأن المؤمن لايخلو عن سراء أو ضراء، والإيمان يظهر في هذين الموطنين.

ومرتبة الشكر هي من أعلى مراتب الدين[2]، قال ابن القيم: «منزلة الشكر، وهي من أعلى المنازل... وهو نصف الإيمان.. والإيمان نصفان: نصف شكر ونصف صبر.

---

(١) قال العراقي: (حديث: «الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر»، أخرجه أبو منصور الديلمي في «مسند الفردوس»، من رواية يزيد الرقاشي عن أنس، ويزيد ضعيف)، «إحياء علوم الدين» (٤ / ٦٠).

(٢) سيأتي البحث إن شاء الله في أن مرتبة الشكر هي أعلى مراتب الدين.

وقد أمر الله به، ونهى عن ضده، وأثنى على أهله، ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقة وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سبباً للمزيد من فضله، وحارساً وحافظاً لنعمته، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته، واشتق لهم اسماً من أسمائه»[١].

وقال رشيد رضا: «شكر النعمة والمكافأة على المعروف من أركان العمران. وترك الشكر والكافأة مفسدة لاتضاهيها مفسدة، إذ هي مدعاة ترك المعروف، كما أن الشكر مدعاة المزيد، ولذلك أوجب الله تعالى علينا شكره، وجعل في ذلك مصلحتنا ومنفعتنا، لأن كفران نعمه بإهمالها أو عدم استعمالها فيما خلقت لأجله، أو عدم ملاحظة أنها من فضله وكرمه تعالى كل ذلك من أسباب الشقاء والبلاء»[٢].

ولهذا أمرنا الحق جل وعلا بالشكر، فقال: ﴿ **وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ** ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال: ﴿ **وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ** ﴾ [النحل: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿ **فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا** ﴾ [العنكبوت: ١٧]. كما بين الله تعالى أن الحكمة تكمن في الشكر، فقال: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ** ﴾ [لقمان: ١٢]، فأن هي المفسرة، قال أبو السعود: «ومعنى: ﴿ **أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ** ﴾ أي شكر له تعالى على أنّ أن مفسرة، فإن ايتاء الحكمة في معنى القول»[٣].

كما بين تعالى أ ن أمام الإنسان طريقين اثنين هما الشكر أو الكفر، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** ﴾ [الإنسان: ٣]. فالشكر مكانته عظيمة في حياة الإنسان.

أخرج الخرائطي في كتابه فضيلة الشكر عن ابن أبي الدنيا أنه قال:

لو كنت أعرف فوق الشكر منزلة ... أعلى من الشكر عند الله في الثمن
إذاً منحتكها مني مهذبة ... حذواً على حذو ما أوليت من حسن[١]

---

(١) «مدارج السالكين» (٢ / ٢٤٣).
(٢) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (٢ / ٤٧).
(٣) «تفسير أبي السعود» (٧١/٧).
(٤) كتاب «فضيلة الشكر»، لمحمد بن جعفر الخرائطي، برقم (٨٦).

المبحث الثالث
درجات الشكر ومراتبه

جعل بعض العلماء الشكر على درجات ومراتب، فالألوسي جعل مراتب الشكر على ثلاث، وهي الشكر المبهم ثم الشكر القلبي ثم اليقظة، فالشكر المبهم أن يعرف أن هناك نعمة ما ثم يتوجه قلبه لمعرفة المنعم، فيعرف منعماً ما ثم يتوجه قلبه لمعرفة صفات المنعم من خلال النعمة فيعلم أن المنعم هو الرحمن الرحيم... فيتحرك قلبه وتتحرك جوارحه لتعظيم هذا المنعم، قال الألوسي: «الشكر في الأصل اسم لمعرفة النعمة، لأنها السبيل إلى معرفة المنعم. وله ثلاث درجات: لأنه إذا نظر إلى نعمة كالرزق والخلق ينبعث منه شوق إلى معرفة المنعم، وهذه الحركة تسمى باليقظة والشكر القلبي، والشكر المبهم، لأن منعمه لم يتضح له تعيينه، وإنما عرف منعماً ما، فهو منعم عليه، فإذا تيقظ لهذا وفق لنعمة أكبر منها، هي معرفة المنعم عليه، هو الصمد الواسع الرحمة المثيب المعاقب، فتتحرك جوارحه لتعظيمه»[١].

ونقل ابن القيم عن الهروي صاحب منازل السائرين أنه جعل الشكر على ثلاث درجات وهي: الشكر على المحاب ثم الشكر على المكاره ثم أن لايشهد العبد إلا المنعم، قال ابن القيم: «قال[٢]: «وهو على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: الشكر على المحاب. وهذا شكر تشاركت فيه المسلمون واليهود والنصارى والمجوس. ومن سعة رحمة الباري سبحانه أن عده شكراً، ووعد عليه بالزيادة وأوجب فيه المثوبة... الدرجة الثانية: الشكر في المكاره. وهذا مما تستوى عنده الحالات إظهاراً للرضى، وممن يميز بين الأحوال لكظم الغيظ وستر الشكوى ورعاية الأدب وسلوك مسلك العلم. وهذا أول من يدعى إلى الجنة[٣]..

(١) «روح المعاني»، للألوسي (٥ / ١٧٩).
(٢) أي الهروي صاحب «منازل السائرين».
(٣) قال ابن القيم: (يعني أن الشكر على المكاره أشد وأصعب من الشكر على المحاب، لهذا كان فوقه في الدرجة)، «مدارج السالكين» (٢ / ٢٥٤).

الدرجة الثالثة: أن لايشهد العبد إلا المنعم، فإذا شهد المنعم عبودية استعظم منه النعمة، وإذا شهده حباً استحلى منه الشدة، وإذا شهده تفريداً لم يشهد منه نعمة ولا شدة»[١].

وخلاصة القول في هذا: أن الشكر على درجات وأعلى الدرجات هي أن يتوصل العبد من خلال هذه النعمة إلى ربه تبارك وتعالى فيتصل قلبه بالله.. وأن هذه النعم ما جعلها الحق تبارك وتعالى إلا ابتلاء للناس حيث يتوصل بها المؤمن إلى سعادة القرب منه جل وعلا، يقول الغزالي: «نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين، خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب... وكل ما خلق في الدنيا إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة، ونيل القرب من الله تعالى»[٢].



(١) «مدارج السالكين» (٢ / ٢٥٤).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٤ / ٨٨).

المبحث الرابع
الشكر بين مراتب الإيمان

قد جعل بعض العلماء الإيمان على مراتب أخذاً من نصوص الكتاب والسنة، أولها الإسلام ثم الإيمان، ثم الإحسان، ثم التقوى، ثم الشكر. وهذه المراتب الخمس تكون: كلما استغرق العبد في مرتبة أوصلته إلى مرتبة أخرى، حتى يصل إلى أعلى المقامات في السير إلى الله تعالى وهو مقام الشكر.

فالإسلام هو: مجموع أحكام الله في كل قضية، في العقائد والعبادات وأنظمة الحياة.....وبالمعنى الوارد في قوله تعالى: **﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾** [الحجرات: ١٤]، ندرك أن استمرار الإنسان بالقيام بأعمال الإسلام يرشحه ليأخذ حظه من مقام الإيمان القلبي.. **﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾** أي إلى الآن لم يدخل وسوف يدخل إذا استمررتم على ما أنتم عليه...

إن الانتقال من الإيمان العقلي إلى الإيمان القلبي الذوقي هو المقام الثاني من مقامات السير إلى الله في دين الله عز وجل....

وإذا استطاع الإنسان أن يتجاوز هذه المرحلة فيصل عندئذ الإيمان إلى قلبه فإن هذا الإيمان يزداد ويزداد حتى يصبح شعور بصفات الله عز وجل وأفعاله، وعندئذ يصل الإنسان إلى مقام الإحسان، الذي عبر عنه الرسول ﷺ: **«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**. إن مقام الإحسان هذا هو ذروة الإيمان، فإذا تمكن الإيمان في القلب أصبح إحساناً. ومن تعريف الإحسان في الحديث ندرك أن الإحسان هو عبادة الله في حالة شعورية محدودة.

والعبادة بشكل عام في دين الله توصل إلى مقام في دين الله أرقى وهو مقام

التقوى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢٠]، والتقوى هي مرحلة النضج الكامل للتفاعل مع الإسلام والإيمان والإحسان، فهي علم وعمل، وهي ملكة قلبية وسلوك، وهي حالة ينسجم فيها العقل مع القلب مع الجوارح، وهي في النهاية هبة الله لمن أسلم وعمل وأحسن، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد:١٧]، فالتقوى هبة الله لمن اهتدى، والهداية بدايتها الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، والطريق إليها المجاهدة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فالإيمان بالله يرافقه مجاهدة النفس بالقيام بالعبادة وأعمال الإسلام توصل إلى التقوى...

وإذا تحقق الإنسان بالتقوى أوصلته التقوى إلى مقام الشكر، وهو أعلى المقامات في السير في دين الله تعالى.. والدليل على أن التقوى توصل إلى الشكر قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران : ١٢٣]، فالشكر ذروة المقامات، وقليل أهله، وهو مقام الرسل عليهم الصلاة والسلام، قال رسول الله ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً»(١)، وقال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]. فأن يعمل الإنسان شكراً لله على منّه بأن يسخر كل شيء أعطاه الله إياه في الطريق الأحب إلى الله على ضوء شرع الله دون أن يهمل أمر الله، تاركاً المحرمات والمكروهات، مقيماً الفرائض والواجبات والمندوبات على حالة قلبية هي حالة الشكر لله عز وجل»(٢).

يقول الشيخ رشيد رضا: «﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، فإن التقوى هي التي تعدكم للقيام في مقام الشكر

---

(١) رواه مسلم (٢٨١٩).

(٢) «تربيتنا الروحية»، سعيد حوى (ص ٢٨)، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، دار التراث العربي (بتصرف).

على النعم التى يسديكم إياها، فمن لم يرض نفسه بالتقوى غلب عليه اتباع الهوى، فلا يرجى له أن يكون شاكراً يصرف النعمة إلى ما وهبت لأجله من الحكم والمنافع»(١).

فالشكر هو من أعلى المقامات في السير إلى الله تعالى وهو مقام الرسل والصديقين.

(١) «تفسير المنار» (٤ / ١١٠).

المبحث الخامس
الشكر والحمد

فرق بعض العلماء بين الحمد والشكر، بينما اعتبر بعضهم أن الحمد هو نفس الشكر.

فابن جرير الطبري وجماعة آخرون اعتبروا أن الحمد والشكر بمعنى واحد قال ابن جرير: «ولا مانع بين أهل المعرفة بلسان العرب من الحكم لقول القائل: «الحمد لله شكراً» بالصحة، فقد تبين - إن كان ذلك عند جميعهم صحيحا - أن الحمد لله قد ينطق به في موضع الشكر، وأن الشكر قد يوضع في موضع الحمد»[١]، وقال ابن كثير: «وقد نقل السلمي هذا المذهب - أنهما سواء - عن جعفر الصادق وابن عطاء من الصوفية. وقال ابن عباس: الحمد لله كلمة كل شاكر. وقد استدل القرطبي لابن جرير بصحة قول القائل: الحمد لله شكراً. وهذا الذي ادعاه ابن جرير فيه نظر، لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لايكون إلا على المتعدية، ويكون بالجنان واللسان والأركان، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة　　يدي ولساني والضمير المحجبا[١]

فليس الحمد والشكر بمعنى واحد كما ذكر ابن جرير وغيره، وهذا عند أكثر العلماء، قال الألوسي: «وأما الشكر فهو أيضاً مغاير للحمد»[٣].

فالحمد مغاير للشكر إلا أن بينهما عموماً وخصوصاً، فالحمد يعم الشكر وغيره، والحمد هو: «الثناء على الجميل الاختياري من نعمة أو غيرها»[١]، بينما

(١) «تفسير الطبري» (١ / ٦٠).
(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٢١).
(٣) «روح المعاني» (١/ ٧٢).
(٤) «تفسير البيضاوي» (٢٢/١).

الشكر هو مقابلة النعمة بالثناء. والحمد يكون باللسان فقط بينما الشكر يكون باللسان والقلب والجوارح، فبينهما عموم وخصوص من وجه، فالحمد أعم من الشكر من جهة الشيء المحمود عليه، وأخص من الشكر من جهة وسائله، قال الراغب: «الحمد لله تعالى: الثناء عليه بالفضيلة، وهو أخص من المدح وأعم من الشكر.. فقد يمدح الإنسان بطول قامته وصباحة وجهه، كما يمدح ببذل ماله وسخائه وعلمه. والحمد يكون في الثاني دون الأول. والشكر لايقال إلا في مقابلة نعمة، فكل شكر حمد، وليس كل حمد شكراً، وكل حمد مدح، وليس كل مدح حمداً»[١].

فالحمد هو ثناء على الصفات اللازمة والمتعدية أي على النعمة وغيرها فقد ذكر القرآن الحمد على الصفات المتعدية أي على النعمة كما في قوله تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ**﴾ [إبراهيم: ٣٩]، وقال: ﴿**فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وكذلك ذكر الحمد على الصفات اللازمة، قال تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة: ٢]، وقال: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ**﴾ [سبأ: ١]، قال ابن القيم في الفرق بين الحمد والشكر: «إن الشكر أعم من جهة أنوعه وأسبابه، وأخص من جهة متعلقاته. والحمد أعم من جهة المتعلقات، وأخص من جهة الأسباب.

ومعنى هذا: أن الشكر يكون بالقلب خضوعا واستكانة، وباللسان ثناء واعترافاً، بالجوارح طاعة وانقياداً. ومتعلقه النعم، دون الأوصاف الذاتية، فلا يقال: شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه، وهو المحمود عليها، كما هو محمود على إحسانه وعدله. والشكر يكون على الإحسان والنعم.

فكل مايتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس، فإن الشكر يقع بالجوارح والحمد يقع بالقلب واللسان[٢].

---

(١) «المفردات»، للراغب الأصفهاني، مادة (حمد). (٢) «مدارج السالكين» (٢ / ٢٤٦).

فالحمد في الأصل أعم من حيث متعلقاته، ولكن أكثر ما يرد الشكر بلفظ الحمد، فيكون الثناء على النعمة بلفظ الحمد، فمن حمد الله على نعمه فقد شكره، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «الحمد لله كلمة الشكر، وإذا قال العبد: الحمد لله، قال: شكرني عبدي»[١]، وقال الشوكاني في فتح القدير: أخرج الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عن النواس بن سمعان قال: سرقت ناقة رسول الله ﷺ فقال: «**لئن ردّها عليّ لأشكرن ربي**»، فرجعت، فلما رآها قال: «**الحمد لله**». فانتظروا، هل يحدث رسول الله ﷺ صوماً أو صلاة؟ فظنوا أنه نسي فقالوا: يا رسول الله! قد كنت قلت: لئن ردها الله عليّ لأشكرن ربي، قال: «**ألم أقل الحمد لله**»[٢].

فلفظ الشكر هو الحمد، ولهذا ورد أن الحمد رأس الشكر، وذلك أن الشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح، ولكن لما كان عمل القلب خافياً، وعمل الجوارح يحتمل الشكر وغيره، فكان الحمد رأساً للشكر، لأنه أكثر دلالة على الشكر، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «**الحمد رأس الشكر، ما شكر الله عبد لم يحمده**»[٣]، وقال الزمخشري: «وإنما جعله رأس الشكر لأن ذكر النعمة باللسان والثناء على موليها أشيع لها وأدل على مكانها من الاعتقاد وآداب الجوارح، لخفاء عمل القلب، وما في الجوارح من الاحتمال، بخلاف عمل اللسان وهو النطق الذي يفصح عن كل خفي ويجلي كل مشتبه»[٤] وأخرج القرطبي في تفسيره عن أنس عن النبي ﷺ قال: «**لو أن الدنيا كلها بحذافيرها في يد رجل من أمتي، ثم قال الحمد لله، لكان الحمد أفضل من ذلك**». قال القرطبي: معناه: لكان إلهامه الحمد أكبر نعمة عليه من نعم الدنيا، لأن ثواب الحمد لايفنى ونعيم الدنيا لا يبقى»[٥].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/٢٢).

(٢) «فتح القدير» (١/٢٠).

(٣) قال ابن حجر العسقلاني: (حديث: «الحمد رأس الشكر ..»، عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما به مرفوعاً. وفيه انقطاع. وعن ابن عباس مثله، رواه البغوي في تفسير سبحان، وفيه نصر بن حماد، وهو ضعيف. كتاب «الكافي الشافي فى أحاديث الكشاف» (ص ٢)، رقم (٤)، دار المعرفة. وقال الألوسي: (وهو وإن كان فيه انقطاع إلا أن له شاهداً يتقوى به، وإن كان مثله)، «روح المعاني» (١/٧٢)، وقال ابن عاشور: (وروى الديلمي ما يؤيد معنى هذا الحديث من حديث أنس بن مالك مرفوعاً)، «التحرير والتنوير» (١٤/٢٢٦).

(٤) «الكشاف» (١/٨).

(٥) «تفسير القرطبي» (١/١٣١).

المبحث السادس
الشكر والصبر

كثيراً ما يقترن في القرآن الكريم الشكر بالصبر، لأن حال الإنسان غالباً ما يكون في حالتي السراء والضراء، إذ بهما يتبين حال المؤمن، وذلك أن الشكر والصبر إنما هما نتيجة الابتلاء، فالله تعالى يبتلي المرء بحالتي السراء والضراء أي بالشر والخير فكل منهما ابتلاء، فإن قابل ما يصيبه من جزع وبلاء ومصائب بالرضا والقبول كان ذلك صبرا منه، وإن قابل النعمة بالقبول واستخدمها في ما يرضي الله تعالى كان ذلك شكراً منه. فالصبر والشكر هما كما يقال: وجهان لعملة واحدة، يقول سيد قطب: «والصبر والشكر كثيراً ما يقترنان في القرآن. الصبر على الابتلاء، والشكر على النعماء؛ وهما قوام النفس في الضراء والسراء»[١]، وقال ابن القيم: «والله سبحانه كما هو خالق الخلق فهو خالق ما به غناهم وفقرهم، فخلق الغنى والفقر ليبتلي بهما عباده أيهم أحسن عملاً، وجعلهما سبباً للطاعة والمعصية والثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر والحلال والحرام، وكلها بلاء»[٢].

وقد ورد في الحديث أن الإيمان نصفان: صبر وشكر، فقد أخرج الخرائطي في كتابه «فضيلة الشكر» عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان نصفان، فنصف في الصبر ونصف في الشكر**»[٣].

---

(١) «في ظلال القرآن» (٥/ ٣١٥٩).

(٢) «عدة الصابرين»، لابن قيم الجوزية (ص١٥٦)، طبع دار عالم الكتب، بيروت.

(٣) «فضيلة الشكر»، رقم (١٨) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: (حديث: «الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر»، أخرجه أبو منصور الديلمي في «الفردوس» من رواية الرقاشي عن أنس ويزيد، ضعيف)، «إحياء علوم الدين» (٤/ ٦٠).

وقد اختلف الناس كثيراً في أيهما أفضل: الصبر أم الشكر، وذلك أن كلاً منهما رتب عليه القرآن الكريم أجراً عظيماً، وقد عقد ابن القيم في كتابه عدة الصابرين» فصلاً طويلاً حول أيهما أفضل، وكان خلاصة قوله في ذلك: أن كلاً منها أفضل في مواضعه، فقال: «وإذا عرف أن الغنى والفقر والبلاء والعافية فتنة وابتلاء من الله لعبده، تمتحن بها صبره وشكره، علم أن الصبر والشكر مطيتان للإيمان لا يحمل إلا عليهما، ولابد لكل مؤمن منهما، وكل منهما في موضعه أفضل، فالصبر في مواطن الصبر أفضل، والشكر في مواضع الشكر أفضل»[1].

فالصبر والشكر لايفضل أحدهما على الآخر، فلا نقول الصبر مطلقاً أفضل ولانقول الشكر مطلقاً أفضل، فثواب الشكر نفسه متفاوت بين الناس وكذلك الصبر، فإن الله تعالى يثيب على النفقة بدرجات مختلفة، فرب درهم سبق ألف درهم، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. ففي الأصل الصبر والشكر لا يفضل أحدهما الآخر، كما لو قيل هل الماء البارد أفضل أم الطعام؟ والجواب أن الماء البارد أفضل للعطشان، والطعام أفضل للجائع.

إلا أن الإمام الغزالي فصل القول في ذلك، فبين أن الصبر درجات والشكر درجات فلعل درجة في الصبر أفضل درجة من الشكر أو العكس، فقال: «اعلم أن الناس اختلفوا في ذلك، فقال قائلون: الصبر أفضل من الشكر. وقال آخرون: الشكر أفضل. وقال آخرون: هما سيّان. وقال آخرون: يختلف ذلك باختلاف الأحوال.. وفي بيان ذلك مقامان:

المقام الأول: ومقتضاه، النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع، وذلك يقتضي تفضيل الصبر، فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة في فضله فإن أضيف إليه ما ورد في فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر، بل فيه ألفاظ صريحة في التفضيل، وقد قال

(١) «عدة الصابرين» (ص ١٦٩).

تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وأما قوله: «**الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر**»(١)، فهو دليل على أن الفضيلة في الصبر، إذ ذكر ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته، ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به.

المقام الثاني: .. نقول فيه: كل أمرين مبهمين لا تمكن الموازنة بينها مع الإبهام ما لم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما... والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة، فلا يتبين حكمهما في الرجحان والنقصان مع الإجمال.. فلو قال قائل: الخبز أفضل أم الماء؟ لم يكن فيه جواب حق، إلا أن الخبز للجائع أفضل، والماء للعطشان أفضل، فإن اجتمعا فلينظر إلى الأغلب، فإن تساويا فهما متساويان..

فإذن، إذا كنت لا تفصل الجواب وتطلقه لإرادة الأكثر فأطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر، فإنه صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام، فإذا أردت التحقيق ففصل، فإن للصبر درجات أقلها: ترك الشكوى مع الكراهية، ووراءها الرضا، وهو مقام وراء الصبر، ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضا إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولافرح، والشكر لايمكن إلا على محبوب مفروح به. وكذلك الشكر درجات كثيرة، وذكرنا أقصاها، ويدخل في جملتها أمور دونها: فإن حياء العبد من تتابع نعم الله عليه ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر، والاعتذار من قلة الشكر شكر، والمعرفة بعظيم حلم الله وكنف ستره شكر، والاعتراف بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر، والعلم بأن الشكر أيضاً نعمة من نعم الله و موهبة منه شكر، وحسن التواضع للمنعم والتذلل فيها شكر، وشكر الوسائط شكر؛ إذ قال ﷺ: «**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**»(٢)... وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر، وتلقي النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها. وما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر آحادها، وهي درجات مختلفة، فكيف يمكن

---

(١) رواه البخاري تعليقاً، كتاب الأطعمة، باب رقم (٥٦).

(٢) هو فقرة من حديث رواه أحمد (٢٧٨/٤).. وابن أبي الدنيا رقم (٦٣)، وقال عليه الأرناؤوط: وإسناده حسن إن شاء الله.

إجمال القول بتفضيل أحدهما إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام، كما ورد في الأخبار والآثار»[١].

والصبر والشكر هما عنوان المؤمن، لذلك قيل في تفسير الصبار الشكور أنه المؤمن. وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**»[٢]، فهذه الحالة لاتكون إلا للمؤمن، لذلك كان اجتماع الشكر والصبر من عنوان المؤمن.

وقد ورد عدد من الآيات فيها اقتران الصبر مع الشكر، والملاحظ فيها تقديم الصبر على الشكر، وذلك لكون الشكر من عواقب الصبر، فإن في الصبر على البلاء شكر،قال الألوسي: «﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ كثير الصبر على بلائه ﴿شَكُورٍ﴾ كثير الشكر على نعمائه عز وجل. وقيل: المراد لكل مؤمن.. والتعبير عن المؤمن بذلك للإشعار بأن الصبر والشكر عنوان المؤمن الدال على ما في باطنه.... وتخصيص الآيات بالصبار الشكور لأنه المنتفع بها، لا لأنها خافية عن غيره، فإن التبيين حاصل بالنسبة إلى الكل. وتقديم الصبر على الشكر: لما أن الصبر مفتاح الفرج المقتضي للشكر»[٣]، وقال أبو السعود: «وتقديم الصبار على الشكور لتقدم متعلق الصبر – أعني البلاء – على متعلق الشكر عاقبة الصبر»[٤].

روى أحمد عن أبي الدرداء قال: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «**إن الله – عز وجل يقول: ياعيسى! إني باعث من أمة، إن أصابهم ما يحبون حمدوا الله وشكروا، وإن أصابهم مايكرهون احتسبوا وصبروا، ولا حلم ولا علم. قال: يا رب! كيف هذا لهم، ولا حلم ولاعلم؟ قال: أعطيهم من حلمي وعلمي**»[٥].

---

(١) «إحياء علوم الدين» (١٤/٤).
(٢) رواه مسلم، رقم (٢٩٩٩)، ورقم (٦٤) كتاب الزهد.
(٣) «روح المعاني» (١٨٨/١٣).
(٤) «تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٤).
(٥) «مسند الإمام أحمد» (٦ / ٤٥٠).

المبحث السابع
الشكر هبة من الله

الشكر هبة من الله تعالى للإنسان، يعيطها - جل وعلا - لعباده المؤمنين المتقين. وذلك أن الشكر صعب وشاق، إذ لايستطيع الإنسان معرفة نعم الله عليه، فكيف له أن يقوم بشكرها؟! والله تعالى يمن على عباده بأن يفتح لهم أسباب الهداية فيعرفهم نعمة، ويوفقهم لشكر هذه النعم، وذلك ليزيد من مكانتهم ويرفعهم درجات عليا.

فالشكر لايتم للإنسان إلا بتوفيق من الله وعطاء منه، لذلك نجد أن النبي ﷺ يكثر من الدعاء بأن يلهمه الله شكر نعمته، ويعلم أصحابه أن يسألوا الله أن يهبهم شكر نعمته.

ولهذا نجد أن سليمان عليه السلام لما أحس بعظيم نعمة الله عليه توجه إلى ربه سائلاً إياه أن يمنحه شكر نعمته التي أنعمها عليه، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ⁽١٨⁾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [النمل ١٩]، قال الألوسي في معنى أوزعني: «اجعلني مداوماً على شكر نعمتك»(١)، وقال الراغب: «قيل: معناه ألهمني، وتحقيقه أولعني ذلك واجعلني بحيث أزع نفسي عن الكفران»(٢).

وقال سيد قطب: «﴿أَوْزِعْنِي﴾ اجمعني كلي. اجمع جوارحي ومشاعري ولساني وجناني وخواطري وخلجاتي، وكلماتي وعباراتي، وأعمالي وتوجهاتي اجمعني كلي. اجمع طاقاتي كلها...وهو المدلول اللغوي لكلمة أوزعني لتكون كلها في شكر نعمته عليّ وعلى والدي»(١).

(١) «روح المعاني» (١٩/ ١٨٠).
(٢) «المفردات»، مادة (وزع).
(٣) «في ظلال القرآن» (٥/ ٢٦٣٧).

فسليمان عليه السلام يسأل ربه أن يلهمه شكر نعمته التي أنعمها عليه وكذلك كان رسول الله ﷺ يسأل ربه أن يوفقه لشكر نعمته، وروى الترمذي عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ أنه قال: «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، وأسألك عزيمة الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك....**»[١]، وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دعوات سمعتها من رسول الله ﷺ لا أتركها ما عشت حيا. سمعته يقول: «**اللهم اجعلني أعظم شكرك، أكثر ذكرك، وأتبع نصيحتك، وأحفظ وصيتك**»[٢].

وكذلك كان ﷺ يعلم أصحابه أن يجتهدوا في الدعاء، يسألون فيه الله شكر نعمته، روى أحمد عن معاذ قال: لقيني رسول الله ﷺ فقال: «**يا معاذ! إني لأحبك**» فقلت: يا رسول الله! وأنا والله أحبك. قال: «**فإني أوصيك بكلمات تقولهن في كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[٣].

فالشكر هبة من الله للمؤمن، يعطيعها إياه حينما يعلم منه الاستقامة على هديه واستعمال النعمة فيما خلقت لأجله، يقول سيد قطب: «إن الهدى جزاء يجزي به الله من يعلم أمرهم أنهم إذا هدوا سيشكرون هذه النعمة»[٤].

أخرج ابن أبي الدنيا عن محمود الوراق أنه أنشد قائلا:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... عليّ له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر[١]

---

(١) رواه الترمذي، رقم (٣٤٠٧)، كتاب الدعوات، باب رقم (٢٣)، ورواه أحمد في «المسند» (١٢٣/٤).
(٢) «مسند الإمام أحمد» (٣١١/٢).
(٣) «مسند الإمام أحمد» (٢٤٧/٥)، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «كتاب الشكر»، رقم (٤)، وقال الأرناؤوط في تخريجه لـ«كتاب الشكر»: أنه حديث صحيح.
(٤) «في ظلال القرآن» (٢/ ١١٠١).

الفصل الثاني
كيفية الشكر

- المبحث الأول: ما يتعلق بالنعمة
- المبحث الثاني: ما يتعلق بالمنعم
- المبحث الثالث: ما لا يتم الشكر إلا به
- المبحث الرابع: الشكر على المكروه
- المبحث الخامس: وسائل الشكر
- المبحث السادس: لمن يكون الشكر

المبحث الأول
ما يتعلق بالنعمة

أولاً: معرفة النعمة: فالمرء لا يستطيع القيام بالشكر إلا بعد معرفة النعمة، والشكر يكون على النعمة ولكن لما كانت النعم غير محدودة ولا يمكن للمرء أن يحصيها كان المرء عاجزاً عن شكر نعمة الله عليه.

والله تبارك وتعالى خلق كل شيء لحكمة معينة، ولم يخلق شيئاً عبثاً. وقد خلق سبحانه وتعالى هذا الكون وسخره بكل ما فيه للإنسان، سخر له ما في السماوات والأرض فالشمس والقمر، والليل والنهار، والنجوم، والهواء والرياح، والجبال والماء، والأنعام والزروع والثمار والأنهار والبحار.. كل هذه المخلوقات خلقها الله تعالى وسخرها لخدمة الإنسان.. وخلق الإنسان في أحسن صورة ومنحه العقل والروح وأرسل له الرسل وهداه إلى هذا الدين.. وكذلك فإن الله تعالى هيأ للإنسان عيشاً آمناً فأعطاه الأمن والصحة والمال والولد والزوجة...

فأول شيء ينبغي معرفته للشاكر أن يعرف نعمة الله في مخلوقاته حتى يقوم بشكرها ويستخدمها في الجانب الذي خلقت لأجله أو يستفيد منها ويشكر الله على ذلك، إذن ينبغي تصور النعمة ومعرفة أنها نعمة.

ثانياً: إظهار النعمة: وإذا عرف المرء نعمة الله عليه فينبغي عليه إظهار هذه النعمة عليه، فإن إظهار النعمة شكرها، فإن كان المرء صاحب مال فإن من شكر هذه النعمة أن يظهر ذلك عليه في مطعمه وفي ملبسه وفي بيته وفي كل أمور حياته، أما أن يظهر الإنسان بشكل فقير لا يملك شيئا، فإن هذا ليس من شكر النعمة.

---

(١) «كتاب الشكر»، رقم (٨٢).

وقد وردت روايات كثيرة في الحث على الزهد في المال وعلى الاقتصاد على الشيء القليل في جميع أمور الحياة، ولكن الروايات تحث على الزهد في الدنيا حتى لاتكون هم الإنسان، وتشغله عن أمور دينه فيشتغل بدنياه عن دينه.

فإظهار النعمة شيء ومفهوم الزهد في الدنيا شيء آخر، فإن النبي - ﷺ - كان يتصدق بأمواله على الفقراء حتى مات ولم يكن يملك من المال إلا القليل. فالقرآن لم ينه عن جمع المال إنما حذر أن تكون الدنيا وما فيها من زينة هم الإنسان ولهذا وردت روايات كثيرة في بيان فضل الغني الشاكر، فإن المرء إذا كان غنيا وكان له مال عظيم، فإن هذا المال يكون نعمة عظيمة له إذا استخدمه في الوصول إلى الآخرة[١].

فالزهد في الدنيا مندوب حتى لا تكون الدنيا همه أما إن اكتسب ماله بطريق مشروع ونما هذا المال عنده حتى صار فيه المرء غنيا ثم أراد القيام بشكر هذه النعمة، فإن من شكر هذه النعم أن تظهر على المرء في لباسه وطعامه وشرابه وأمور حياته....

وينبغى إذا أراد شكر النعمة أن تظهر عليه النعمة بقصد شكرها لابقصد الإسراف والتبذير فإنه منهي عنهما، قال تعالى: ﴿ **وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وقال تعالى: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقد بين تبارك وتعالى أن فرعون كان من المسرفين ﴿ **وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ [يونس: ٨٣]، وكذلك التبذير فالمبذون هم إخوان الشياطين، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ** ﴾ [الإسراء: ٢٧]، والإسراف هو: تجاوز الحد في كل فعل[٢]، قال الراغب: «الإسراف تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر»، والتبذير هو تضييع المال فيما لا عاقبة له به، قال الراغب: «التبذير: التفريق،، وأصله إلقاء البذور وطرحه، فاستعير لكل مضيع لماله»[١].

فإظهار النعمة يكون شكراً للنعمة إذا خلا من الإسراف والتبذير، ومرد الأمر إلى

---

(١) انظر كتاب «رياض الصالحين»، للنووي باب فضل الزهد في الدنيا (ص ٢٣٦)، وباب فضل الجوع وخشونة

العرف.. إذن من شكر النعمة إظهارها في كل فعل للإنسان من طعام وشراب ولباس وسكن، أخرج ابن أبي الدنيا عن عمران بن الحصين أن النبي ﷺ - قال «إذا أنعم الله عز وجل على عبد نعمة يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[1]، وأخرج ابن أبي الدنيا عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «**كلوا واشربوا وتصدقوا في غير مخيلة ولاسرف، فإن الله عز وجل يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»[3]، وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي الأحوص عن أبيه قال أتيت رسول الله ﷺ وأنا قشف الهيئة، فقال: «**هل لك مال؟**» قلت: نعم قال: «**من أي المال؟**» قلت: من كل المال قد آتاني الله عز وجل؛ من الإبل والخيل والرقيق والغنم. قال: «**فإذا آتاك الله عز وجل مالاً فلير عليك**»[2].

ثالثاً: التحدث بالنعمة: فإن التحدث بالنعم شكر لها.

ويكون الحديث بالنعم شكر لها إذا كان بقصد الشكر أما إن كان بقصد الرياء والسمعة فإنه يكون من البطر المسبب لمحق النعم وليس من الشكر المسبب لزيادة النعم. ولما أنعم الله على نبيه ﷺ أمره بالتحدث بنعمته تبارك وتعالى عليه، فقال تعالى: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ [الضحى: ١١]، فأمره تعالى بالتحدث بنعمه في هذه الآية، فقال بعضهم: يراد بالنعمة النبوة والتحدث بها تبليغها، وقال البعض: يراد بالنعمة هي ما ذكر بأنه كان يتيماً فآواه وضالاً فهداه وعائلاً فأغناه.. وسياق الآية يدل على التحدث بالنعم المذكورة، ولكنه أمره بمطلق التحدث بالنعم فيندرج تحتها أهم النعم وهي نعمة النبوة، قال أبو السعود: «﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ بشكرها وإشاعتها وإظهار آثارها وأحكامها. أريد بها ما أفاضه الله تعالى عليه عليه الصلاة والسلام من فنون النعم التي من جملتها

---

(١) «كتاب الشكر»، رقم (٥١)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن.

(٢) «كتاب الشكر»، رقم (٥٢)، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح. ورواه أبو داود (٤٠٦٣).

النعم المعدودة الموجودة منها في هذه الثلاث، واقتد بالله تعالى، وأحسن كما أحسن الله إليك، فتعطف على اليتيم فآوه، وترحم على السائل وتفقده بمعروفك ولاتزجره عن بابك، وحدث بنعمة الله كلها. وحيث كان معظمها نعمة النبوة فقد اندرج تحت الأمر هدايته عليه الصلاة والسلام للضلال، وتعليمه للشرائع والأحكام حسبما هداه الله عز وجل وعلمه من الكتاب والحكمة»[١]. أخرج ابن أبي الدنيا عن الحسن قال: «أكثروا ذكر هذه النعمة فإن ذكرها شكرها»[٢]، وعن أبي نضرة قال: كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدث بها»[٣].

والتحدث بالنعمة يكون بأن يذكرها المرء في نفسه فيبقى دائم التذكر لها، ويذكرها أمام الغير، مبيناً أن الله أعطاه من فضله وأغناه.



(١) «تفسير أبي السعود» (١٧١/٩).
(٢) «كتاب الشكر»، رقم (٣٣).
(٣) «ابن كثير» (٤/ ٥٢٥).

المبحث الثاني
ما يتعلق بالمنعم

والشكر الحقيقي يكون بالنظر إلى المنعم لاإلى النعمة، فإن النعمة مسخرة من الله تعالى للإنسان، فهو وحده الذي سخر المخلوقات للإنسان، وهو وحده الذي يعطي ويمنع فيغني ويفقر ويشفي ويمرض ... فالنعم كلها من الله تعالى وهي وسائل مسخرة منه تعالى تدل على عنايته ورعايته بالإنسان.

أولاً: أن كل نعمة هي من الله وحده:

فالله تعالى هو مصدر النعمة الحقيقي، وأن جميع المخلوقات من حيوانات وجمادات وحتى البشر مسخرون من الله الذي سخرهم بعنايته وحكمته، فلا يتم الشكر إلا بعد معرفة أن النعم جميعاً منه تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**﴾ [النحل: ٥٣]، قال الألوسي: أي: أي شيء يلابسكم ويصاحبكم من نعمة كانت فهي منه تعالى»[١].

أخرج ابن الدنيا عن أبي الجلد قال: قرأت في مسألة داود عليه السلام أنه قال: «أي رب! كيف أشكرك؛ وإني لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك؟ قال: فأتاه الوحي أن يا داود! أليس تعلم أن الذي بك من النعم مني؟ قال: بلى يارب. قال: فإني أرضى بذلك منك شكراً»[٢]، فلا يتم الشكر إلا بعد معرفة أن النعم من الله وحده، وهذا كمن أهدى إليه ملك هدية فإنه لايكون شاكراً للملك إلا بأن يرى أن الشكر يعود للملك وحده فإن رأى للوسائط نعمة فليس بشاكر، قال الغزالي في الإحياء: «فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء، فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلاً في تيسير ذلك

(١) «روح المعاني» (١٤/ ١٦٦).

(٢) «كتاب الشكر»، رقم (٥).

وإيصاله إليه فهو إشراك به في نعمة، فلا يرى النعمة من كل وجه، بل منه بوجه ومن غيره بوجه فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحداً في حق الملك. نعم لا يغض من توحيده في حق الملك، كمال شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذي كتبه بقلمه وبالكاغد الذي كتب عليه، فإنه لايفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرهما، لأنه لايثبت لهما دخلاً من حيث هما موجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك. وقد يعلم أن الوكيل الموصل والخازن أيضا مضطران من جهة الملك في الإيصال، وأنه لو رد الأمر إليه ولم يكن من جهة الملك إرهاق وأمر جزم يخاف عاقبته لما سلم إليه شيئاً. فإذا عرفَّ ذلك كان نظره إلى الخازن الموصل كنظره إلى القلم والكاغد، فلا يورث ذلك شركاً في توحيده من إضافة النعمة إلى الملك.

والحيوانات التي لها اختيار مسخرات في نفس اختيارها، فإن الله تعالى هو المسلط للدواعي عليها لتفعل - شاءت أم أبت - كالخازن المضطر الذي لايجد سبيلاً إلى مخافة الملك...

فإذن لاتشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه، فإن خالجك شيء من هذا لم تكن عرفا لا بالنعمة ولا بالمنعم»[1].

ثانياً: أن يفرح بالمنعم لا بالنعمة:

فإنعام الله تعالى على عبده يدل على عنايته به، ولهذا إذا نظر إلى النعمة ونسي المنعم، فإن هذا يكون فرحه بالنعمة لا بالمنعم، وهذا حال المنافق الذي يكون راضياً فرحاً حينما تصيبه النعمة وينقلب حينما يخسر هذه النعمة كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١]، فالإنسان إذا فرح بالنعمة دون المنعم فإن فرحه يرتبط بالنعمة فقط، ولكن من يفرح بالمنعم فإن فرحه يكون دائماً في جميع الأحوال سواء كان في السراء أو في الضراء.

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٨٣).

فلا يكون الشكر شكراً إذا اقتصر الفرح على النعمة. وقد شبه الغزالي الفرح بالمنعم كالملك يهدى لإنسان فرساً فيتصور فرحه من عدة أوجه، وهي أن يفرح بعناية الملك به فيستخدمه لأغراضه، أو يفرح لعناية الملك به فيستخدمه للقيام بخدمة الملك، وهذا الأخير هو الشكر التام المطلوب فيفرح بعناية المنعم ويستخدم النعمة في القرب منه، يقول الغزالي: «الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع، وهو أيضاً في نفسه شكر على تجرده.... ولكن إنما يكون شكراً إذا كان حاوياً شرطه، وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لابالنعمة ولا بالإنعام. ولعل هذا يتعذر عليك فهمه، فنضرب لك مثلاً، فنقول: الملك الذي يريد الخروج إلى سفره فأنعم على إنسان يتصور أن يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه: أحدها» : أن يفرح بالفرس من حيث أنه فرس وأنه مال ينتفع به ومركوب يوافق غرضه.. وهذا فرح من لاحظ له في الملك، بل غرضه الفرس فقط، ولو وجده في الصحراء فأخذه لكان فرحه بالفرس مثل ذلك الفرح. «الوجه الثاني» : أن يفرح به من حيث أنه فرس بل من حيث تستدل به على عناية الملك به واهتمامه بجانبه.. ولو أعطاه غير الملك لكان لايفرح به أصلاً، لاستغنائه عن الفرس أصلاً... «الوجه الثالث» : أن يفرح به ليركبه في خدمة الملك ويحتمل مشقة السفر لينال بخدمته القرب منه... فهذه درجات ثلاث. فالأولى: لا يدخل فيها معنى الشكر أصلاً، لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس، ففرحه بالفرس لا بالمعطي. وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذيذة وموافقة لغرضه، فهو بعيد عن معنى الشكر. **الثانية:** داخلة في معنى الشكر من حيث أنه فرح بالمنعم، ولكن لا من حيث ذاته، بل من حيث معرفة عنايته التي تستحثه على الإنعام في المستقبل، وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه. وإنما الشكر التام في الفرح الثالث، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى والنزول في جواره والنظر إلى وجهه على الدوام، فهذا هو الرتبة العليا. وأمارته: أن لايفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة ويعينه عليها، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله، لأنه ليس يريد

النعمة لأنها لذيذة كما يريد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد.. بل من حيث إنه يحمله في صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه، ولذلك قال الشبلي رحمه الله: الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة، وقال الخواص رحمه الله: شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب، وشكر الخاصة على واردات القلوب، وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج ومدركات الحواس من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب، فإن القلب لايلتذ في حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه، وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين، وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة ويستحلى الأشياء المرة...

فإذن، هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى... فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية، أما الأولى فخارجة عن كل حساب، فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك، وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه»[١].

فالشكر الحقيقي يكون بالفرح بالمنعم لا بالنعمة، ويكون فرحه بالمنعم لأنه أنعم عليه بنعم عظيمة توصله إليه، فالذي آتاه الله مالاً عليه أن يفرح بعناية الله به لأنه أعطاه هذا المال ليتقرب به إلى الله تعالى، ومن ابتلاه الله بفقر أو مرض أو نحو ذلك فيشكر الله على عنايته به لأن الله إذا أحب عبده ابتلاه ليكون ذلك زاداً له في الآخرة، فيصبر ويحتسب ويكون له في ذلك الأجر العظيم. ولذلك كان النبي ﷺ يتمنى أن لايكون له حظ في الدنيا إلا ما كان مزرعة للآخرة، روى مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**لو كان لي مثل أحد ذهباً، لسرني أن ولا تمر عليّ ثلاث ليال وعندي منه شيء إلا شيء أرصده لدين**»[٢].

وكان صحابة رسول الله ﷺ يتمنى أحدهم أن يعطى من المال ما ينفقه في سبيل الله، وكانوا ينظرون للأغنياء أنهم سبقوهم بدرجات لتصدقهم أما الفقراء منهم فلا يجد أحدهم من المال ما ينفقه، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٨٤).
(٢) «مسلم» (٩١١).

ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى، والنعيم المقيم، فقال: «**وما ذاك؟**» فقالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولانتصدق، ويعتقون ولا نعتق، فقال رسول الله ﷺ: «**أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة**» فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله! فقال رسول الله ﷺ: «**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**»[٢].

وقد سمى رسول الله ﷺ من يفرح بالنعمة من المال والملبس أنه عبد لها، فقال ﷺ «**تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أعطى رضي؛ وإن لم يعط لم يرض**»[٢].

كما ينبغي مقابلة النعمة بتواضع للمنعم وأن يكون متأدباً بين يديه تبارك وتعالى فلا يقابل النعمة بالبطر والفرح وفعل مايخالف الشريعة بل يكون متواضعاً لله تعالى لذلك كان النبي ﷺ أكثر تواضعاً حينما أكرمه الله تعالى بفتح مكة، فقد روى ابن اسحاق عن عبد الله بن أبي بكر والحاكم عن أنس أن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى ذي طوى وقف على راحلته معتجزا «متعمما» بشقة برد حبرة، وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل»[٣]، يقول البوطي: «وهذا يدل كما يرى أنه ﷺ كان مستغرقاً في حالة شهود مع الله تعالى أثناء دخوله مكة. فما كانت نشوة الظفر والنصر العظيم إلى نفسه من سبيل، ولم يكن شيء من التعاظم أو التجبر ليستولي عليه شيء من مشاعره، إنما هو الانسجام التام مع شهود الله تعالى والشكر على نصره وتأييده»[٤]، ويقول

---

(١) «مسلم» (٥٩٥)، والدثور: الأموال الكثيرة.

(٢) «البخاري» (٦٤٣٥)، كتاب الرقاق باب (٨١)، والقطيفة: الثوب الذي له خمل والخميصة: الكساء المربع، «رياض الصالحين» (ص ٢٤١).

(٣) «السيرة النبوية»، لابن هشام (٤٨/٤)، دار إحياء التراث العربي، بيروت

(٤) «فقه السيرة»، د. محمد رمضان البوطي (ص ٣٧٣)، الطبعة الثامنة ١٩٨٠م، دار الفكر، دمشق.

الشيخ عفيف الطبارة: «وكان راكباً راحلته منحنياً على رحلها تكاد لحيته تمسه تواضعاً، خاشعاً على ما أكرمه الله به من الفتح. هذا التواضع من النبي عند هذا الفتح الكبير وسط هذا الجيش العرمرم لا يوجد له مثيل في كافة الفتوحات التي طالعنا بها التاريخ، وإن قيمة هذا التواضع تتضاعف إذا ما قارناه بمواقف الفخر والعظمة التي أبداها مختلف القادة في فتوحاتهم عندما حازوا على نصر أقل قيمة من فتح مكة»[١].

وكذلك لما دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحاً أتى أبو بكر بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟! قال أبو بكر: يا رسول الله! هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت»[٢].

فمن الشكر أن يكون المرء متواضعاً للمنعم ولايقابل النعمة بالبطر وشدة الفرح.

رابعاً: الثناء على المنعم:

ومن تمام الشكر أن يثنى على المنعم بما أولاه من نعم لاتعد ولا تحصى فيثني عليه بما عرف من النعم وما لم يعرف، يثني ثناءً خاصاً على كل نعمة عرفها، ويثنى ثناءً عاماً على كل نعمة لم يعرفها، وذلك أن النعم لايمكن إحصاؤها، والله تعالى لايكلف نفساً إلا وسعها فيكتفى منه عجزه عن الشكر والثناء على ما لم يعرف من النعم...

وقد كان النبي ﷺ دائم الحمد والشكر والثناء على الله تعالى، فيثني على كل نعمة عرفها بالثناء والعبادة وغير ذلك، أخرج الخرائطي عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: قال لي جبريل عن ربه عز وجل: يا محمد! إن سرك أن تعبد الله يوماً وليلة حق عبادته فقل: الحمد لله حمداً دائماً مع خلوده، والحمد لله حمداً دائماً لامنتهى له دون مشيئته، والحمد لله حمداً دائماً لايوالى قائلها إلا رضاه، والحمد لله حمداً دائماً كل طرفة عين ونفس»[٣]، وأخرج الخرائطي عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ إذا صعد أكمة من الأرض قال اللهم لك الشرف على كل

(١) «مع الأنبياء فى القرآن»، عفيف الطبارة (ص٤١٠)، الطبعة السادسة عشر ١٩٨٧م، دار العلم للملايين، بيروت.
(٢) «تهذيب سيرة ابن هشام»، عبد السلام هارون (ص ٢٨٩)، مؤسسة الرسالة ودار البحوث العلمية، الكويت.
(٣) «فضيلة الشكر»، للخرائطي، رقم (١٢).

شرف، ولك الحمد على كل حال»[١]، وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي جعفر قال: كان رسول الله ﷺ إذا شرب الماء قال: **«الحمد لله الذي جعله عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا»**[٢]، وأخرج ابن أبي الدنيا عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ إذا نظر إلى وجهه في المرآة قال: **«الحمد لله الذي سوى خلقي فعدله وكرم صورة وجهي وحسنها وجعلني من المسلمين»**[٣]، وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن غنام عن رسول الله ﷺ قال: **«من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لاشريك لك، فلك الحمد ولك الشكر إلا أدى شكر ذلك اليوم»**[٤].

فمن تمام الشكر أن يثنى على المنعم بما عرف من نعم، ويثني عليه ثناء عاما على النعم التي لا يعرفها.

خامساً: قبول النعمة:

فالله تبارك وتعالى يعطي الإنسان من النعم على حسب ما يراه من حكمة، ولهذا فالناس متفاوتون في النعم، فالله يعطي بعض الناس أموالاً كثيرة بينما يمنع آخرين، وقد يعطي الناس صحة وأمنا.. بينما يبتلي آخرين بالمرض والخوف والجوع[٥]... والإنسان الشاكر لربه عليه أن يرضى ويقبل ويقنع بما آتاه الله من نعم، وعليه أن يعلم أن ما أعطاه الله هو خير له، فإن أغناه فهو خير له وإن أفقره فهو خير له، وهكذا في بقية النعم. فالشاكر ينظر إلى النعم نظرة قبول ورضا. ورد في الحديث الذي رواه ابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا أبا هريرة! كن ورعاً تكن أعبد الناس. وكن قنعاً تكن أشكر الناس...»**[٦].

فالقناعة والرضا بعطاء الله من تمام الشكر للمنعم.

---

(١) «فضيلة الشكر»، رقم (١٤).
(٢) «كتاب الشكر»، رقم (٦٩)، قال الأرناؤوط في تخريجه: مرسل وفي سنده جابر بن يزيد الجعفي، وهو ضعيف. ولكن ذكر أن له سنداً آخر موقوفاً على الحسن البصري بسند حسن وهو يقويه.
(٣) «كتاب الشكر»، رقم (١١٧)، قال الأرناؤوط: (إسناده ضعيف، ولكن صح دعاؤه ﷺ بقوله: «اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي»، مطلقاً غير مقيد بالنظر إلى المرآة).
(٤) «كتاب الشكر»، رقم (١٦٣)، قال الأرناؤوط عنه: حديث حسن.
(٥) انظر بحث نعمة الابتلاء، وبحث شكر المكروه.
(٦) جزء من حديث رواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب (٢٤)، تحقيق فؤاد عبد الباقي، قال في الزوائد: إسناده حسن.

المبحث الثالث
ما لا يتم الشكر إلا به

ولايتم للشاكر شكر نعمة الله عليه إلا بعد معرفة أمور تتعلق بالشكر، فلا يتم الشكر بمجرد أن يقول: الحمد لله، بل لابد له من أن يكون دائم الصلة بالله تبارك وتعالى، فتجعله النعمة دائم الارتباط بالمنعم مثنياً عليه عابداً إياه عارفاً ما يحبه وما يكرهه... فلا يتم الشكر إلا بما يلي:

أولاً: الشعور بالعجز عن القيام بالشكر:

لما كانت نعم الله غير محصورة ولا يمكن إحصاؤها كان القيام بالشكر صعباً وغير متيسر للإنسان، ولما كان الله تعالى رحيماً بعباده فإنه لم يكلفهم إلا وسعهم، لذلك كان على الإنسان الشاكر لربه أن يحمد الله على قدر ما يستطيع، ولكن عليه أن يشعر بنفس الوقت أنه عاجز عن القيام بشكر ما أنعم الله عليه، ولهذا أرشد الله العباد لأن يشعروا بالعجز عن القيام بشكر النعمة، قال تعالى: ﴿**وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ**﴾ [الزخرف: ١٤]، قال أبو السعود: «﴿**ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ**﴾» أي تذكروها بقلوبكم معترفين بها مستعظمين لها، ثم تحمدوا عليها بألسنتكم ﴿**وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا**﴾ متعجبين من ذلك... ﴿**وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ**﴾ أي مطيقين... وهذا من تمام ذكر نعمته تعالى، إذ بدون اعتراف المنعم عليه بالعجز عن تحصيل النعمة لايعرف قدرها ولاحق المنعم بها»[1].

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٨/٤١).

وهذه نعمة واحدة هي نعمة ركوب الفلك والأنعام، فكيف ببقية النعم؟ أخرج ابن أبي الدنيا عن الحسن البصري أنه قال: قال داود ﷺ: **«إلهي! لو أن لكل شعرة مني لسانين يسبحانك بالليل والنهار ما قضيت نعمة من نعمك»**[١]، وقال ابن كثير: «.. وقد روي في الأثر أن داود ﷺ قال: «رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك عليّ؟» فقال الله تعالى: «الآن شكرتني ياداود». أي حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم. وقال الشافعي رحمه الله: الحمد لله الذي لاتؤدى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب شكره بها. وقال القائل في ذلك:

لو كل جارحة منّي لها لغة ... تثني عليك بما أوليت من حسن

لكان ما زاد شكري إذ شكرت به ... إليك أبلغ فى الإحسان والمنن[٢]

وأخرج ابن أبي الدنيا عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب «زين العابدين» أنه كان بمنى، فظهر من دعائه أن قال: «كم من نعمة أنعمتها عليّ قلّ لك عنها شكري، وكم من بلية ابتليتني بها قلّ لك عندها صبري. فيا من قل شكري عند نعمته فلم يحرمني، ويا من قل صبري عند بلائه فلم يخذلني، ويا من رآني على الذنوب العظام فلم يفضحني ولم يهتك ستري، ويا ذا المعروف الذي لاينقضي، ويا ذا النعم التي لاتحول ولا تزول، صل على محمد وعلى آل محمد واغفر لنا وارحمنا..»[٣].

ثانياً: معرفة حكمة الله تعالى في المخلوقات:

خلق الله تعالى كل شيء لحكمة، ولايتم شكر النعمة إلا باستعمالها وفق الحكمة التي خلقت لأجلها، فالله تعالى خلق عين الإنسان ليبصر بها، فمن لم يعرف حكمة الله في تركيب العين بهذا الشكل العجيب، ولماذا خلق الله هذه العين وما هي فوائدها لم يستطع القيام بشكر هذه النعمة. وكذلك الأمر في كل مخلوق خلقه الله

(١) «كتاب الشكر»، رقم (٢٥).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٢٠).
(٣) «كتاب الشكر»، رقم (٤٢).

تعالى. وهناك حكم خفية للمخلوقات وحكم جلية، فالحكم الجلية يعرفها عادة عامة الناس، أما الخفية فلا يعرفها إلا الخاصة، فما يعرفه العامة من حكمة الشمس والقمر غير الذي يعرفه الخاصة منهما كالعلماء وأصحاب الفلك وغيرهم، فما يراه العامة هو جزء يسير مما يراه الخاصة، فعلى العامة أن يشكروا نعمة ربهم على ما عرفوه، ويدركوا عجزهم عن شكر ما لم يعرفوه. يقول الغزالي: «اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لايتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه، إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى في محابه، ومعنى الكفر نقيض ذلك: إما بترك الاستعمال أو باستعمالها في مكارهه. ولتمييز ما يحبه الله تعالى مما يكرهه مدركان: «أحدهما»: السمع، ومستنده الآيات والأخبار، «والثاني»: بصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار، وهذا الأخير عسير، وهو لأجل ذلك عزيز، فلذلك أرسل الله تعالى الرسل، وسهل بهم الطريق على الخلق. ومعرفة ذلك تنبني على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد، فمن لا يطلع على أحكام الشرع في جميع أفعاله لم يمنكه القيام بحق الشكر أصلاً. وأما الثاني، وهو النظر بعين الاعتبار فهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه، إذ ماخلق شيئاً في العالم إلا وفيه حكمة وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب. وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية، أما الجلية كالعلم بأن الحكمة في خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار فيكون النهار معاشاً والليل لباساً فتتيسر الحركة عند الإبصار والسكون عند الاستتار، فهذا من جملة حكم الشمس لاكل الحكم فيها بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة... وأما الحكمة في سائر الكواكب السيارة منها والثوابت مخفية لايطلع عليها كافة الخلق، والقدر الذي يحتمله فهم الخلق أنها زينة للسماء... فجميع أجزاء العالم: سماؤه وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لاتخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة من حكمه... وكذا أعضاء الحيوان تنقسم إلى ما يعرف حكمتها، كالعلم بأن العين للإبصار.. واليد للبطش.. فأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء والمرارة والكبد وآحاد العروق والأعصاب والعضلات وما هي من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة

والغلظ وسائر الصفات، فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس، والذين يعرفونها لا يعرفون منها إلا قدراً يسير بالإضافة إلى ما في علم الله تعالى ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾. فإذن كل من استعمل شيئاً في جهة غير الجهة التي خلق لها أو على الوجه الذي أريد به فقد كفر فيه نعمة الله تعالى، فمن ضرب بيده فقد كفر نعمة اليد»[١].

وعليه فلا يتم شكر النعمة إلا بعد معرفة حكمة الله في المخلوقات، وكذلك في التشريعات، لأن الشكر يكون باستعمال نعم الله تعالى فيما شرع النعمة لأجله «فمن فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر، واستقصاء ذلك يحتاج إلى مجلدات ثم لا تفي إلا بالقليل.. وذلك ليعلم علة الصدق في قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]»[٢].

ثالثاً: استعمال النعمة في مايحبه الله تعالى:

وإذا عرف المرء حكمة الله تعالى في المخلوقات فعليه أن يطبق تلك المعرفة في أفعاله فتكون أفعاله طبقا لما علمه من معرفة الحكمة.

وينظر لهذا الاستعمال من وجهين: الأول: وهو أن يستخدم النعمة وفقا يحبه تعالى، وهذا من شكر النعمة: الثاني: أن لايستخدم النعمة في المعصية فتكون النعمة سبباً للمعصية، وهذا من شكر النعمة. فالعين خلقها الله تعالى للإبصار فبعد أن عرف حكمة الله في خلق العين وفائدتها عليه أن يستعملها في مايحبه الله تعالى كالنظر إلى السماوات والأرض متفكراً فيها، وألا يستعملها في المعصية، فلا ينظر إلى محرم.. وقس هذا الأمر على جميع النعم كنعمة المال، فبعد أن عرف نعمة الله في المال وأن الله تعالى جعله قياماً للناس لتيسير أمورهم، كان عليه أن يعمل بالمال وفقاً للحكمة التي خلقه الله لأجلها، فيجمعه من طريقه المشروع ويصرفه في الطريق المشروع، فلا يتعامل فيه بالربا ولا يسرف ولا يبذر.. وهكذا.

فمن تمام الشكر أن يستعمل النعمة في ما يحبه الله تبارك وتعالى، وألا يستعملها

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/٩٠).

(٢) المصدر السابق (٤/٩٥).

في ما يكرهه، أخرج ابن أبي الدنيا أن رجلاً قال لأبي حازم: ما شكر العينين يا أبا حازم؟ قال: إن رأيت بهما خيراً أعلنته، وإن رأيت بهما شراً سترته. قال: فما شكر الأذنين؟ قال: إن سمعت بهما خيراً وعيته، وإن سمعت بهما شرا أخفيته.. قال: ما شكر البطن؟ قال: أن يكون أسفله طعاماً وأعلاه علما»[١] وقال الغزالي: «.. حتى إن شكر العينين: أن تستر كل عيب تراه لمسلم، وشكر الأذنين: أن تستر كل عيب تسمعه فيه»[٢].

رابعاً: العبـادة:

ولايتم شكر النعمة إلا بالعبادة، لأن العبادة هي أهم مظاهر الشكر فلما كان أمر الشكر غير مقدور للإنسان جعل الله برحمته العبادة شكراً لله تعالى، ولما كانت العبادة من أهم مظاهر الشكر لله تعالى كان رسول الله ﷺ كثير العبادة شكراً لله على نعمته، حتى إنه كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه.

فالعبادة بكل أصنافها من أهم مظاهر الشكر، فكل عبادة بنية الشكر تكون شكراً لله تعالى وصور العبادة كثيرة منها.

١- الصلاة وقيام الليل:

وقد كان رسول الله ﷺ يجهد نفسه في العبادة قائما لليله، روى البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة ﵂ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه، قالت عائشة: يا رسول الله! أتصنع هذا، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**ياعائشة! أفلا أكون عبداً شكوراً؟**»[٣]، وأخرج الخرائطي في «فضيلة الشكر» عن عائشة ﵂ الت: لما نزلت هذه الآية: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾ [الفتح: ١]، اجتهد النبي ﷺ في العبادة، فقيل له: يا رسول الله! ما هذا الاجتهاد؟! أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً؟**»[٤].

فالنبي ﷺ كان يقابل نعم الله عليه بالعبادة وقيام الليل شكراً لله على نعمه، قال ابن

(١) «كتاب الشكر»، رقم (١٢٦). (٢) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٨٤).
(٣) «مسلم»، كتاب المنافقين رقم (٨١) «والبخاري»، كتاب التهجد باب (١٩)، و«أحمد» (٦/١١٥).
(٤) «فضيلة الشكر»، رقم (٥٢).

حجر العسقلاني: «قال العلماء: إنما ألزم الأنبياء أنفسهم بشدة الخوف لعلمهم بعظيم نعمة الله تعالى عليهم، وأنه ابتدأهم بها قبل استحقاقها، فبذلوا مجهودهم في عبادته ليؤدوا بعض شكره، مع أن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد. والله أعلم»[1].

وأخرج ابن ماجه عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ صلى يوم بُشِّر برأس أبي جهل ركعتين[2].

٢- سجود الشكر:

فإن لم يصل فليسجد شكراً لله. ويسن سجود الشكر عند كل نعمة حادثة، أخرج ابن ماجه عن أبي بكرة، أن النبي ﷺ كان إذا أتاه أمر يسره أو يسر به خر ساجداً، شكراً لله تبارك وتعالى[3]، وأخرج أحمد وابن أبي الدنيا عن عبد الرحمن بن عوف، أن رسول الله ﷺ قال له: «**إن جبريل عليه السلام أتاني فبشرني فقال: إن الله عز وجل يقول: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه، فسجدت لله عز وجل شكراً**»[4]، وأخرج أبو داود في سننه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ من مكة نريد المدينة، فلما كنا قريباً من عزوراء[5]، نزل ثم رفع يديه، فدعا الله ساعة، ثم خر ساجداً، فمكث طويلاً، ثم قام فرفع يديه ساعة، ثم خر ساجداً فعله ثلاثاً وقال: «**إني سألت ربي، وشفعت لأمتي، فأعطاني الثلث الآخر فخررت ساجداً لربي شكراً ثم رفعت رأسي فسألت ربي لأمتي فأعطاني الثلث الآخر فخررت ساجداً لربي**»[6].

٣- الصوم:

فقد أخرج الإمام ابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة،

---

(١) «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، كتاب التهجد باب (١٩) (ج٣/ص١٥).

(٢) «ابن ماجه»، كتاب إقامة الصلاة باب (١٩٢)، رقم الحديث (١٣٩١).

(٣) «ابن ماجه»، كتاب إقامة الصلاة باب رقم (١٩٢)، رقم الحديث (١٣٩٤). وأخرجه ابن أبي الدنيا رقم (١٣٢)، قال عنه الأرناؤوط: إسناده حسن. ورواه أبو داود في سننه (٢٧٧٤)، في الجهاد، باب في سجود الشكر.

(٤) «مسند أحمد» (١/٩١)، وابن أبي الدنيا، «كتاب الشكر»، رقم (١٣٥)، قال عنه الأرناؤوط: حديث صحيح لطرقه وشواهده.

(٥) عزوراء: موضع قريب من مكة. انظر تخريج «رياض الصالحين». (٦) «أبو داود» (٢٧٧٥).

فوجد يهود يصومون يوم عاشوراء فقال: «**ما هذا؟**» فقالوا هذا يوم عظيم، يوم نجى الله موسى وأغرق آل فرعون، فصامه موسى شكراً. قال النبي ﷺ «**فإني أولى بموسى وأحق بصيامه فصامه وأمر بصيامه**»[١].

٤- ذكر الله تعالى:

أخرج ابن أبي الدنيا عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «**أفضل الدعاء لا إله إلا الله.، وأفضل الذكر الحمد لله**»[٢].

فالعبادة من أهم مظاهر الشكر، وكل خير تعمله لله عز وجل شكر، وأفضل الشكر الحمد[٣].



(١) «مسند أحمد» (١/ ٣٣٦)، و«ابن ماجه»، كتاب الصيام، باب رقم (٤١).
(٢) «كتاب الشكر»، رقم (١٠٢)، قال الأرناؤوط: إسناده حسن.
(٣) «ابن كثير» (٣/٥٠٧).

المبحث الرابع
الشكر على المكروه

الشكر إما على نعمة مفروح بها أو على مكروه، وشكر المكروه يكون بالرضا والثناء على الله تبارك وتعالى. فالابتلاء نعمة عظيمة تعود على المؤمن بالثواب العظيم ويقوى بذلك إيمانه وتتربى نفسه على المصاعب. وكون الابتلاء نعمة بالنظر إلى المآل لا بالنظر إلى الحال. لذلك ينبغي على المرء أن يشكر ربه على المكروه الذي يأتيه منه.

وقد بينت سابقاً أن ما يصيب الإنسان من ابتلاء قد يكون نعمة عظيمة له، وذلك لأن الله يبتليه ليختبره في ذلك، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾ [البقرة: ١٥٦]، وكذلك قد تكون النعمة بلاء عليه، فالمال والولد والزوجة نعمة عظيمة، ولكن قد تكون هذه النعم فتنة للمؤمن، ولهذا حذر الله منها.

فما يراه الإنسان مكروهاً قد يكون نعمة عليه، وقد يكون ابتلاء لامتحان صبره ولذلك فإن المؤمن يكون كثير الثناء على الله في أي حال كان.

والشكر على المكروه درجات:

أولها وأقلها: ترك الشكوى مع الكراهية، فإن أصابه بلاء فلا يتوجه بالشكوى للعباد، ولكن يتوجه إلى الله تعالى، كما قال أيوب: ﴿ **أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فإن ترك العبد الشكوى للعباد كان صبرا منه، وهذا أقل درجات لالشكر على المكروه.

ثانيها: الرضا بالمصيبة: فيرضى بمصيبته ويعلم أنها من عند الله تعالى، وإنما ابتلاه تعالى بذلك ليمتحن بها صبره، ويعلم أن البلاء الذي فيه الأجر العظيم لا يكون

إلا للمؤمن أن الله تعالى إذا أحب عبداً ابتلاه، ولهذا قال ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يصب منه**»(١)، وقال أيضاً: «**عجبت من أمر المؤمن، إن أمر المؤمن كله له خير، وليس ذلك لأحد غير المؤمن: إن أصابته سراء شكر كان ذلك له خيراً، وإن أصابته ضراء فصبر كان ذلك له خيراً**»(٢).

ثالثاً: الشكر على البلاء: فيثني على الله، بما أتاه من مكروه بعد ما علم أن ذلك لامتحانه، وأن الله يريد أن يزيد في ثواب المؤمن ومكانته فيبتليه بأنواع الابتلاءات، كما ابتلى أصفياءه وأولياءه وأنبياءه، فابتلى أيوب بمرضه، ويعقوب بفقد ولديه ويوسف بالسجن وإبراهيم بذبح ولده، وإحراقه بالنار.. إلى غير ذلك من الابتلاءات التي لايخلو منها عبد. فإذا علم المؤمن ذلك فإنه يثني على الله تعالى، يثني عليه بأن كون المصيبة ما أصابه ولم تكن أعظم منه، وأنها كانت في دنياه ولم تكن في دينه، وأنها كانت في الدنيا ولم تكن في الآخرة؛ وذلك أن مصائب الدنيا سهلة جداً بالنسبة لمصائب الآخرة، كما أن ثوابها أكبر بكثير، كالدواء الكريه الذي يؤلم في الحال وينفع في المآل.. يقول النبي ﷺ: «**إذا أراد الله بعبده خيراً عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة**»(٣).

وقال النبي ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**».

ومن أهم ألفاظ الشكر على المكروه: **أن يحمد الله على ما أصابه**، فقد روى الخرائطي في كتابه فضيلة الشكر عن حبيب بن أبي ثابت قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه الأمر يعجبه قال: «**الحمد لله المنعم المفضل، اللهم بنعمتك تتم الصالحات، وإذا أتاه الأمر يكرهه قال: الحمد لله على كل حال**»(٤)، وعن موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله: ياملك الموت! قبضت ولد عبدي، قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم. قال: فما قال؟ قال: حمدك واسترجع. قال: ابنوا له بيتاً في**

(١) رواه البخاري (٥٦٤٥)، كتاب المرضى (٧٥). (٢) رواه أحمد (٤ / ٣٣٢).
(٣) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن (٢٣٩٨).
(٤) «فضيلة الشكر»، محمد بن جعفر المعروف بالخرائطي، رقم (٢٣)، تحقيق محمد مطيع الحافظ.

الجنة، وسموه بيت الحمد»[1] وقوله استرجع: أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، وهذا يقال أيضاً عند المصيبة، كما امتدح الله الصابرين بقولهم: إنا لله وإنا إليه راجعون، قال تعالى: ﴿**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٦].

فشكر المكروه أن: يترك الشكوى للعباد مع التألم، وأن يرضى بمصيبته، وأن يحتسب ذلك عند الله تعالى، ثم يثني على الله تعالى فيحمده ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

ولابد من الإشارة إلى أن شكر المكروه يكون من خلال القلب واللسان الجوارح، فبقلبه يرضى بمصيبته ويحتسب ذلك عند الله، وبلسانه يثني على الله تعالى بما هو أهله، وبجوارحه: يعمل بها بما يرضي الله تعالى ولايعمل بها بما لا يرضيه، كالنياحة وحلق الرأس وشق الثوب وغير ذلك من الأمور التي ورد النهي عنها عند المصيبة.



(١) رواه الترمذي (١٠٢١)، وقال: حسن.

المبحث الخامس
وسائل الشكر

والشكر يتم بوسائل ثلاث، وهي: القلب واللسان والجوارح، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعمـــاء مني ثلاثة　　　يدي ولساني والضمير المحجبا

وعمل القلب في ذلك هو: تصور النعمة، وقبولها، والشعور بالعجز عن القيام بالشكر ومعرفة حكمة الله في المخلوقات.... أما اللسان: فيكون عمله بإظهار الرضا عن الله تعالى بالثناء عليه، وأما الجوارح: فيكون عملها باستعمال نعمة الله تعالى في ما يحب، والتوقي من الاستعانة بها على مصيبته، قال الراغب: «والشكر على ثلاثة أضرب: شكر القلب وهو تصور النعمة. وشكر اللسان، وهو الثناء على المنعم. وشكر سائر الجوارح، وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقها ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ [سبأ: ١٣]،... ذكر اعملوا ولم يقل اشكروا لينبه على التزام الأنواع الثلاثة من الشكر بالقلب واللسان وسائر الجوارح»(١).

فوسائل الشكر هي: القلب واللسان والجوارح، ولكن لابد من الإشارة إلى أنه لايتحقق الشكر بحقيقته إلا باستعمال الوسائل الثلاث مجتمعة، فلا يكفي المرء أن يحمد بلسانه بينما يخالف قلبه ذلك، كمن يحمد الله تعالى على الابتلاء بلسانه ويكون قلبه غير راض بذلك، فلابد من اجتماع عمل القلب واللسان، وكذلك الجوارح فمن شكر الله تعالى على نعمه بلسانه، ولكن جوارحه تظهر غير ذلك كمن يشكر الله تعالى على نعمة المال لكنه يستخدم هذه النعمة بالإسراف والتبذير، فكيف يكون هذا شكراً؟.

---

(١) «المفردات»، للراغب، مادة (شكر).

المبحث السادس
لمن يكون الشكر

الشكر هو مقابلة النعمة بالثناء ونحوه. والشكر الحقيقي يكون للمصدر الأساسي للنعمة، وهو الله تبارك وتعالى، فهو خالق المخلوقات جميعاً، وهو الذي سخرها للإنسان، فكل نعمة هي من الله وحده. ولكن الله تعالى جعل وسائط لإيصال النعمة إلى العبد، فقد يكون الإنسان نفسه واسطة لإيصال النعمة للآخرين، وهذا لابد من شكره. ولكن شكره يكون تبعا لشكر المنعم الأساسي وهو الله تعالى. فقد ينعم إنسان إلى إنسان مثله بنعمة، كأن يساعد ضعيفاً، أو يهدي له هدية، أو يهبه مالاً، أو يعلمه علماً، أو يهتم الطبيب بالمريض حتى يتم شفاؤه، فهذه النعم هي أساساً من الله تعالى حيث سخر هؤلاء العباد فكانوا واسطة لإيصال النعمة، فلا بد من شكر الله ثم شكر هؤلاء الناس.

أولاً: شكر الإنسان لله تعالى وشكر الله للإنسان:

فهو وحده مصدر النعم سواء كانت النعم عن طريق المخلوقات التي سخرها تبارك وتعالى، كما سخر الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحب، وكما سخر الماء والتراب والجبال والأنعام.... للإنسان. فالشكر الأساسي يكون لله وحده.

وقد وردت آيات وأحاديث تفيد شكر الله للعبد، فما معنى ذلك؟

معنى أن الله شكور: أي أنه كثير الثناء على عباده لأفعالهم الحسنة، وأنه يثيبهم أحسن الثواب، قال تعالى: ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا** ﴾ [النساء: ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ** ﴾ [التغابن: ١٧]، قال الألوسي: «شاكراً: أي مثيباً على الشكر... وقال غير واحد: الشاكر وكذا الشكور من أسمائه تعالى، هو الذي يجزي بيسير الطاعات كثير الدرجات ويعطي بالعمل في أيام معدودة نعماً في الآخرة غير

محدودة»[١]، وقال ابن كثير: «أي يثيب على القليل بالكثير»[٢]، وقال الشوكاني: «أي يشكر عباده على طاعته، فيثيبهم عليها ويتقبلها منهم»[٣]، وقال الأستاذ عبد الرحمن حبنكة الميداني: «الشكور: صيغة مبالغة لشاكر، والشكر يأتي بمعنى: كثرة الثناء على الأفعال الحسنة، ومقابلة الحسنة بمثلها أو أحسن منها.

ومعنى كون الله سبحانه شكوراً: أنه كثير الثناء على عباده في طاعاتهم، وأفعالهم الحسنة، والمغدق عليهم الثواب الجزيل على العمل الضئيل، فضلاً منه ورحمة»[٤]، وقال الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار: «وصف الباري تعالى بالشاكر لايظهر على حقيقته، فلابد من حمله على المجاز... إذ لايمكن أن يكون لأحد عنده يد أو يناله من أحد نعمة يشكرها له بهذا المعنى، فبهذا المعنى سميت مقابلة العامل بالجزاء الذي يستحقه شكراً»[٥]، قال الرازي: «وإنما سمى المجازاة على الطاعة شكراً لوجوه: الأول: أن اللفظ خرج مخرج التلطف للعباد مبالغة في الإحسان إليهم، كما قال تعالى: ﴿**من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً**﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وهو تعالى لا يستقرض من عوض، ولكنه تلطف في الاستدعاء، كأنه قيل: من ذا الذي يعمل عمل المقرض فيأخذ أضعاف ما قدم. الثاني: أن الشكر لماكان مقابلاً للإنعام أو الجزاء عليه سمّى كل ما كان جزاء شكر على سبيل التشبيه. الثالث: كأنه يقول: أنا وإن كنت غنياً عن طاعتك، إلا أني أجعل لها من الموقع بحيث لو صح على أن أنتفع بها... وبالجملة، فالمقصود بيان أن طاعة العبد مقبولة عند الله وواقعة موقع القبول في أقصى الدرجات»[٦].

فمعنى أن الله تعالى شاكر لعبده أي أنه كثير الثناء على العباد في طاعتهم وأفعالهم الحسنة، والمغدق عليهم الثواب العظيم، وقد ورد في الحديث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**أن رجلاً رأى كلباً يأكل الثرى من العطش، فأخذ الرجل خفّه فجعل يغرف له به حتى أرواه، فشكر الله له، فأدخله الجنة**»[٧]، وفي رواية أخرى:

---

(١) «روح المعاني» (٥ / ١٨٠).
(٢) «تفسير ابن كثير» (١ / ١٩٠).
(٣) «فتح القدير» (١ / ٥٣٠).
(٤) «العقيدة الإسلامية وأسسها» (ص ٢٢٨)، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م، دار القلم دمشق.
(٥) «تفسير المنار» (٢ / ٤٦).
(٦) «تفسير الفخر الرازي» (٢ / ١٦٢).
(٧) «البخاري»، كتاب الوضوء باب (٣٣).

«**فشكر الله له فغفر له**»[١]، قال ابن حجر في فتح الباري: «**فشكر الله له**» أي أثنى عليه، فجزاه على ذلك قبل عمله وأدخله الجنة»[٢]، وقال أيضاً في الرواية الأخرى: «**فشكر الله له**» أي أثنى عليه، أو قبل عمله، أو جازاه بفعله. وعلى الأخير فالفاء في قوله ﴿**فغفر له**﴾ تفسيرية، أو من عطف الخاص على العام. وقال القرطبي: معنى قوله «**فشكر الله له**» أي ظهر ما جازاه به عند ملائكته»[٣].

ثانياً: شكر الإنسان للإنسان:

وحتى لايضيع المعروف بين الناس، وحثاً على عمل المعروف إلى الغير فقد شرع الله تعالى ورسوله شكر العباد، فأمر الله العباد بشكر الوالدين، وجعل الرسول ﷺ شكر الناس من شكر الله تعالى.

وأول الناس الذين ينبغي شكرهم هم الأنبياء، فالأنبياء هم السبب في تعليم الناس أمور دينهم ودنياهم، وهذه من أعظم النعم على العباد. وشكر الرسل يكون بالصلاة والسلام عليهم والدعاء لهم والشهادة بأنهم قد بلغوا رسالة ربهم...

ثم يأتي بعد ذلك شكر الوالدين فإنهما سبب الإيجاد، والوجود هو أساس النعم جميعاً، ولهذا أمر الله بشكره وقرن شكرهما بشكره، فقال تعالى: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ**﴾ [لقمان: ١٤]، فالله تعالى هو الذي جعل الحنان في قلب الأم لتحمل ولدها وتتحمل المشاق والصعاب، فالشكر لله أولاً ثم للوالدين على ما أولياه من رعاية واهتمام، وقد تحملا في سبيل تربيته وعنايته كل ما يمكن تحمله.

وشكر الوالدين يكون ببرهما والإحسان إليهما في القول والعمل والدعاء لهما بالرحمة وغير ذلك، قال تعالى: ﴿**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا**

---

(١) «البخاري»، كتاب المساقاة باب (٩)، و«مسلم»، كتاب السلام حديث رقم (١٥٣)، و«أحمد» (٢ / ٣٧٥).
(٢) «فتح الباري» (١ / ٢٧٨)، تحقيق ابن باز ومحب الدين الخطيب وفؤاد عبد الباقي، المكتبة السلفية، الرياض.
(٣) «فتح الباري» (٥ / ٤١).

جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٤]، روى أبو داود عن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال: يا رسول الله! هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ فقال: «**نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لاتوصل إلا بهما، وإكرام صديقهما**»[١].

فالوالدان هما أولى الناس بالشكر حتى لو كان الأبوان على الشرك: ﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا** ﴾ [لقمان: ١٥].

ثم يأتي بعد ذلك شكر الإنسان لأخيه الإنسان، وذلك أن شكر الإنسان للإنسان هو من شكر الله، فلا يكون شكراً لله إلا بأن يشكر الإنسان الذي أسدى إليه معروفاً، روى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله عز وجل التحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر. والجماعة رحمة، والفرقة عذاب**»[٢]، فشكر الناس من شكر الله عز وجل.

وشكر الناس يكون بالمكافأة بمعروف مثله كأن يقدم له هدية أو نحوها، فإن لم يجد فليثن على فاعله ويدعو له ويذكر له معروفه، أخرج الخرائطي عن علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ قال: «**من أنعم عليه أحد بنعمة فليكافئه بها إن كان يجد ذلك، فإن لم يجد فثناء حسن ودعاء له**»[٣]، وروى الترمذي عن جابر عن النبي ﷺ قال: «**من أعطى عطاء فوجد فليجز به، ومن لم يجد فليثن، فإن من أثنى فقد شكر؛ ومن كتم فقد كفر. ومن تحلى بما لم يعطه كان كلابس ثوبي زور**». قال الترمذى:

---

(١) «أبو داود» (٥١٤٢)، و«ابن ماجه» (٣٦٦٤)، و«ابن حبان» (٤١٩)، وفي سنده علي بن عبيد الساعدي لم يوثقه غير ابن حبان، وباقي رجاله ثقات، خرجه الأرناؤوط في «رياض الصالحين» (ص ١٨٦).

(٢) «مسند أحمد» (٤ / ٢٧٨)، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «كتاب الشكر»، رقم (٦٣)، قال عنه الأرناؤوط في تخريجه: وإسناده حسن.

(٣) «فضيلة الشكر»، رقم (٨٩).

هذا حديث حسن غريب[١]، وروى الترمذي عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ **«من صنع إليه معروفا فقال لفاعله: جزاك الله خيراً، فقد أبلغ في الثناء»** قال الترمذي: هذا حديث حسن جيد غريب[٢]. أخرج أحمد في مسنده عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: **«من أتى إليه معروف فليكافيء به ومن لم يستطيع فليذكره، فمن ذكره فقد شكره، ومن تشبع بما لم ينل فهو كلابس ثوبي زور»**[٣].



(١) «الترمذي» (٢٠٣٤)، كتاب البر باب (٨٧).
(٢) «الترمذي»، كتاب البر باب (٨٧)، رقم الحديث (٢٠٣٥).
(٣) «مسند أحمد» (٦ / ٩٠).

الفصل الثالث
ثمرات الشكر وآثاره

- المبحث الأول: الحفاظ على النعمة وزيادتها
- المبحث الثاني: الجزاء العظيم في الآخرة
- المبحث الثالث: رفع العذاب في الآخرة
- المبحث الرابع: النجاة من عذاب الدنيا
- المبحث الخامس: حب الله تعالى
- المبحث السادس: رضوان الله تعالى

المبحث الأول
الحفاظ على نعمة وزيادتها

إن نعم الله تعالى لاتعد ولاتحصى، والله تعالى يعطيها العبد، وقد تكون فتنة وابتلاء، فإذا أفاض الله نعمه على عبده، ثم قام بشكرها، فإن شكر النعمة هو الكفيل بالحفاظ عليها. وإذا لم يشكر المرء نعمة ربه، فإنه يعرض نفسه لعقاب الله ويعرض النعمة للزوال، روي عن الحسن البصري أنه قال: «إن الله عز وجل ليمتع بالنعمة بما يشاء، فإذا لم يشكر قلبها عليهم عذاباً»[١].

فبالشكر يتم الحفاظ على النعمة من الذهاب ومن أن تقلب عذاباً، أخرج ابن أبي الدنيا عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ فرأى كسرة ملقاة، فمسحها فقال: «**يا عائشة! أحسني جوار نعم الله عز وجل، فإنها قلما نفرت عن أهل بيت فكادت أن ترجع إليهم**»[٢]، وأخرج ابن أبي الدنيا عن عمر بن عبد العزيز قال: «قيدوا نعم الله عز وجل بالشكر لله تعالى»[٣].

وبالشكر يتم زيادة النعمة وإفاضة الخيرات والأرزاق، ورغم أن الله تبارك وتعالى قسم أرزاق العباد فأعطى كلاً منهم حسب حكمته، إلا أنه جعل للرزق أسباباً منها الاستقامة على هدي الله تبارك وتعالى، ومنها شكر النعمة، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [سبأ: ٣٦]، فهذه المسألة – مسألة بسط الرزق وتقديره – تتعلق بحكمة من عند الله تبارك وتعالى، فهو يوسع على من يشاء ويقدر على من يشاء، فقد يغدق على أهل الخير أو على أهل الشر، وقد يضيق عليهم، كل ذلك ليبتليهم بأمر الرزق، يقول سيد قطب: «وقد يغدق

---

(١) «كتاب الشكر»، لابن أبي الدنيا رقم (١٧).

(٢) «كتاب الشكر»، رقم (٢)، وسنده ضعيف ولكن له شاهد آخر ضعيف مثله (انظر تخريج الأرناؤوط «كتاب الشكر»).

(٣) «كتاب الشكر»، رقم (٢٣).

الله الرزق على من هو عليه غاضب، كما يغدقه على من هو عليه راض. وقد يضيق الله على أهل الشر كما يضيق على أهل الخير، ولكن العلل والغايات لاتكون واحدة في جميع الحالات.

فقد يغدق الله على أهل الشر استدراجاً لهم ليزدادوا سوءاً وبطراً وإفساداً ويتضاعف رصيدهم من الإثم والجريمة، ثم يأخذهم في الدنيا أو في الآخرة - وفق حكمته وتقديره - بهذا الرصيد الأثيم! وقد يحرمهم فيزدادوا شراً وفسوقاً وجريمة وجزعاً وضيقاً ويأساً من رحمة الله، وينتهوا بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الشر والضلال.

ولقد يغدق الله على أهل الخير، ليمكنهم من أعمال صالحة كثيرة ما كانوا بالغيها لو لم يبسط لهم الرزق، وليشكروا نعمة الله عليهم بالقلب واللسان والفعل الجميل، ويدخروا بهذا كله رصيداً من الحسنات يستحقونه عند الله بصلاحهم وبما يعلمه من الخير في قلوبهم. وقد يحرمهم فيبلو صبرهم على الحرمان وثقتهم بربهم، ورجاءهم فيه، واطمئنانهم إلى قدره، ورضاهم بربهم وحده، وهو خير وأبقى، وينتهوا بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الخير»[١].

فقضية بسط الرزق وتقديره ترجع في الأصل لحكمة يعلمها الله تبارك وتعالى، فيعطي كل إنسان بما يشاء وبالقدر الذي يكون أفضل للإنسان المؤمن، فالله تعالى يعلم من أحوال بعض المؤمنين أن قلة المال هو أفضل لهم حتى لايشغلهم المال عن ربهم فيضيق عليهم. والمال في حد ذاته فتنة ﴿**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ**﴾ [التغابن: ١٥]، إلا من عصمه الله تبارك وتعالى، ولهذا يضيق الله على بعض المؤمنين حتى لاتكون فتنة لهم ﴿**وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ**﴾ [الشورى: ٢٧]، قال تعالى: ﴿ **وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ**

(١) «في ظلال القرآن» (٥ / ٢٩١٠).

للمتقين﴾ [الزخرف: ٣٥]، فلولا الخشية - رحمة بالمؤمنين - من أن يكون المال فتنة لهم لكان من علامة الكافرين أن يغدق عليهم المال الكثير.

والله تبارك وتعالى جعل الأرزاق والخيرات مرتبطة بأسباب، منها: أولاً: السعي، فقال تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥]: ثانياً: الاستقامة على هدي الله تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

فمن آمن بالله وعمل بما أمره به وانتهى عما نهاه عنه، فإن الله تعالى يفيض عليه النعم والأرزاق. وكثيراً ما يربط القرآن بين الإيمان وصلاح القلوب وبين إفاضة النعم الدنيوية فضلاً عن الأخروية، فقد جاء على لسان نوح - عليه الصلاة والسلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٢]، يقول سيد قطب: «وقد ربط بين الاستغفار وهذه الأرزاق. وفي القرآن مواضع متكررة فيها هذا الارتباط بين صلاح القلوب واستقامتها على هدي الله، وبين تيسير الأرزاق وعموم الرخاء.. جاء في موضع: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وجاء في موضع: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]، وجاء في موضع: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣].

وهذه القاعدة التي يقررها القرآن في مواضع متفرقة قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد الله، ومن سنة الحياة، كما أن الواقع العملي يشهد بتحققها على مدار القرون. والحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد. وما من أمة قام فيها شرع الله، اتجهت اتجاهاً حقيقياً لله بالعمل الصالح والاستغفار المنبىء عن خشية الله..

ما من أمة اتقت الله وعبدته وأقامت شريعته فحققت العدل والأمن للناس جميعاً إلا فاضت فيها الخيرات، ومكن الله لها في الأرض، واستخلفها فيها بالعمرات وبالصلاح سواء.

ولقد نشهد على بعض الفترات أمماً لا تتقى الله ولا تقيم شريعته، وهي مع هذا موسع عليها الرزق، ممكن لها في الأرض.. ولكن هذا إنما هو الابتلاء ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥][١].

فالاستقامة على هدي الله تبارك وتعالى هي من أهم أسباب إفاضة النعم الدنيوية، أما من أفاض الله عليه من الرزق والخيرات من الأمم الكافرة والعاصية فهو فتنة وابتلاء واستدراج.

وأهم أسباب إفاضة النعم هو شكرها فبالشكر يتم المزيد، «وقد قطع الله تعالى بالمزيد لمن شكر ولم يستثن، فقال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ واستثنى في خمسة أشياء: في الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة فقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾ [التوبة: ٢٨]، وقال: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١]، وقال: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢]، وقال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ [التوبة: ١٥]»[٢].

فبالشكر يتم زيادة النعم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، ومعنى ﴿تَأَذَّنَ﴾ أي أعلم فالأذان هو الإعلام، قال الراغب: أذن: استمع، نحو قوله: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ ويستعمل ذلك في العلم الذي يتوصل إليه بالسماع، نحو قوله: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾»[٣]، قال ابن عاشور: «ومعنى ﴿تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ تكلم كلاماً علناً.»[٤]. وقال الفخر الرازي في معنى ﴿تَأَذَّنَ﴾ .. ولابد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل، كأنه قيل: وإذ آذن ربكم إيذاناً بليغاً ينتفى عنده الشكوك»[٥]، وقال أبو السعود: «أي آذن إيذاناً لاتبقى معه شائبة شبهة، لما في صيغة التفعل من معنى

(١) «في ظلال القرآن» (٦ / ٢٧١٣).
(٢) «إحياء علوم الدين» (٤ / ٨٠).
(٣) «المفردات»، للراغب، مادة (أذن).
(٤) «التحرير والتنوير» (١٣ / ١٦٤).
(٥) «تفسير الرازي» (١٩ / ٨٦).

التكلف المحمول في حقه سبحانه على عنايته التي هي الكمال»[١] فمعنى ﴿تَأَذَّنَ﴾ أي أعلم، ولكن صيغة التفعل أفادت المبالغة في الإيذان.

وقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، أي: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم نعمة إلى نعمة. قال الشوكاني: «والمعنى: لئن شكرتم إنعامي عليكم بما ذكر لأزيدنكم نعمة إلى نعمة تفضلاً منّي، وقيل: لأزيدنكم من طاعتي، وقيل لأزيدنكم من الثواب، والأول أظهر»[٢]، وقال الألوسي: «والظاهر على ما قيل: يحتمل أن تكون في الدنيا وفي الآخرة، وليس ببعيد[٣]، فشكر النعمة يؤدي إلى زيادتها، يقول سيد قطب: «إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية، فالخير يشكر لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعي في الفطرة المستقيمة.

هذه واحدة .. والأخرى: أن النفس التي تشكر الله تعالى على نعمته تراقبه في التصرف بهذه النعمة. بلا بطر، وبلا استعلاء على الخلق، ولا استخدام للنعمة في الأذى والشر والدنس والفساد.

وهذه وتلك مما يزكي النفس، ويدفعها للعمل الصالح، وللتصرف الصالح في النعمة بما ينميها ويبارك فيها، ويرضى الناس عنها وعن صاحبها،، فيكونون له عوناً، ويصلح روابط المجتمع فتنمو فيه الثروات في أمان. إلى آخر الأسباب الطبيعية الظاهرة لنا في الحياة. وإن كان وعد الله بذاته يكفي لاطمئنان المؤمن أدرك الأسباب أو لم يدركها. .»[٤].

فزيادة النعمة ثمرة طبيعية للشكر، أخرج ابن أبي الدنيا عن يحيى بن عطارد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لايرزق الله عبداً الشكر فيحرمه الزيادة**، لأن الله عز وجل يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]»[٥]، وأخرج ابن أبي الدنيا عن علي بن أبي طالب أنه قال: «إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر متعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله عز وجل حتى ينقطع الشكر من العبد»[٦].

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٥ / ٣٤).
(٢) «فتح القدير» (٣ / ٩٦).
(٣) «روح المعاني» (١٣ / ١٩٠).
(٤) «في ظلال القرآن» (٤ / ٢٠٨٩).
(٥) «كتاب الشكر»، رقم (٣)، والحديث معضل ولكن له شواهد (انظر تخريج الأرناؤوط له في «كتاب الشكر»). أورده السيوطي في الدر المنثور» (٤ / ٧١)، وزاد نسبته للبيهقي في «شعب الإيمان».
(٦) «كتاب الشكر»، رقم (١٨).

المبحث الثاني
الجزاء العظيم في الآخرة

فمن يشكر نعمة الله تبارك وتعالى ويقوم بحقها فإن الله يثيبه ثواباً عظيماً في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٥]

والحديث في هاتين الآيتين عن شكر نعمة الله في الدين والهداية، وذلك باتباع شرع الله تبارك وتعالى وإرادة الآخرة عن الدنيا. والملاحظ أن الله لم يذكر ماهو جزاؤه في الآخرة، ويكفي في ذلك وعد الله بالجزاء، فإنه جزاء من أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، يقول سيد قطب: «﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ الذين يعرفون مقدار النعمة التي منحها الله لعباده في إعطائهم هذا المنهج، فيشكرونها باتباع المنهج، ويشكرونها بالثناء على الله، ومن ثم يسعدون بالمنهج فيكون هذا جزاء طيباً على شكرهم، ثم يسعدون بجزاء الله لهم في الآخرة، وهو أكبر وأبقى..»[١]، ويقول أيضاً: «﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ الذين يدركون نعمة التكريم الإلهي، فيرفعون عن مدارج الحيوان؛ ويشكرون الله على تلك النعمة، فينهضون بتبعات الإيمان...»[٢].

ويقول ابن كثير: «﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ أي سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم»[٣]، وقال أبو السعود: ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ أي الثابتين على دين الإسلام الذي هو أجل نعمة

(١) «في ظلال القرآن» (١ / ٤٨٦).
(٢) «في ظلال القرآن» (١ / ٤٨٧).
(٣) «تفسير ابن كثير» (١ / ٣٨٧).

وأعز معروف. سموا بذلك لأن الثبات عليه شكر له وعرفان لحقه... وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لإبراز مزيد الاعتناء بشأن جزائهم»[١]، وقال الألوسي: «﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ يحتمل أنه أريد بهم المريدون للآخرة، ويحتمل أنه أريد بهم جنس الشاكرين، وهم داخلون فيه دخولاً أولياً. والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله ووعد بالمزيد عليه. وفي تصديرها بالسين وإبهام الجزاء من التأكيد والدلالة على فخامة شأن الجزاء وكونه بحيث يضيق عنه نطاق البيان..»[٢].

فالشكر جزاؤه عظيم جداً، ولذلك أبهم الجزاء واكتفى بالوعد به.وقد وردت أحاديث تفيد بعضا مما يثاب به الشاكرون يوم القيامة، روى أن النبي ﷺ قال: «**من ابتلي فصبر، وأعطي فشكر، وظُلم فغفر، وظلم فاستغفر**» ثم سكت، قالوا: ما له يا رسول الله؟ قال: «**أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**»[٣]، فالشاكرون يأمنون من فزع ذلك اليوم ويكونون من المهتدين في الدنيا والآخرة.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**ينادي يوم القيامة ليقم الحمادون، فتقوم زمرة فينصب لهم لواء، فيدخلون الجنة**»، قيل: ومن الحمادون؟ قال: «**الذين يشكرون الله تعالى على كل حال**» وفي لفظ آخر: «**الذين يشكرون الله على السراء والضراء**»[٤] وأخرج الخرائطي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «**أول من يدخل الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله عز وجل في السراء والضراء**»[٥].

ولكن أصح ما ورد في بيان أجر الشاكرين - بشكل عام - قول النبي ﷺ: «**الطاعم الشاكر مثل الصائم الصابر**» رواه البخاري تعليقاً وأحمد والترمذي وابن

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٢ / ٩٤). (٢) «روح المعاني» (٤ / ٧٩).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «كتاب الشكر»، رقم (١٦٥)، قال الأرناؤوط: (وفي سنده أبو داود الأعمى .. متروك .. وذكره السيوطي في الجامع الصغير، ونسبه للطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «شعب الإيمان»). ونقله ابن كثير عن ابن مردويه «تفسير ابن كثير» (٢ / ١٤٦).

(٤) قال العراقي في تخريج أحاديث «الإحياء»، والحديث: (أخرجه الطبراني وأبو نعيم في «الحلية»، والبيهقي في «الشعب»، من حديث ابن عباس بلفظ «أول من يدعى إلى الجنة الحمادون ...»، وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور)، «إحياء علوم الدين» (٤ / ٨١).

(٥) «فضيلة الشكر»، رقم (٣٣)، وقد سبق تخريجه في الحديث السابق.

ماجه وابن حبان[١]، وقال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: «قال ابن بطال: هذا من فضل الله على عباده أن جعل للطاعم إذا شكر ربه على ما أنعم عليه ثواب الصائم الصابر.. وفي الحديث الحث على شكر الله على جميع نعمه، إذ لا يختص ذلك بالأكل».

فالطاعم الذي يأكل والشاكر الذي يشكر له أجر مثل أجر الصائم الصابر وأجر الصائم عظيم جداً، كما ورد في الحديث: «**كل عمل ابن آدم يضاعف: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. قال تعالى: «إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به: يدع شهوته وطعامه من أجلي...**»[٢]، وقال تعالى في جزاء الصابرين: **﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾** [الزمر: ١٠]، فالصائم الصابر له من الأجر ما لا يعلمه إلا الله تعالى. وقد شبه النبي ﷺ من يأكل ويشكر الله بالصائم الصابر.

وأخرج الخرائطي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال المهاجرون: يا رسول الله! ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً من كثير، كفونا المؤنة وأشركونا في المهنى، حتى لقد خشينا أن قد ذهبوا بالأجر كله. قال: «**لا ما أثنيتم عليهم**»[٣].



(١) «البخاري»، كتاب الأطعمة باب (٥٥)، وقال العراقي: (علقه البخارى، وأسنده الترمذي وحسنه، وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة..) «الإحياء» (٤ / ٨١).

(٢) «مسلم» (١١٥١) و(١٦٣).

(٣) «فضيلة الشكر» رقم (٩٠).

المبحث الثالث
رفع العذاب في الآخرة

ومن ثمرات الشكر أن الله تعالى يغفر لعباده تقصيرهم في شكر نعمته وذلك أن النعم لاتعد ولا تحصى، وطبيعة الإنسان أنه لايستطيع القيام بحقيقة الشكر ولذلك فإن الله غفور رحيم يقابل تقصير عباده بالمغفرة.

يـقول تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فطبيعة الإنسان بعدما عرف هذه النعم أنه ﴿ ظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾، والإنسان يحتمل أن يراد به جنس الإنسان، فيكون المؤمن ظلوماً بتقصيره عن الشكر، ولهذا كان الشاكرون قلة ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣]، ولكن الظاهر أن المراد به جنس الإنسان ويقصد به الكافر خاصة، لأن الله تعالى علم أن عباده لا يستطيعون القيام بشكر النعمة، ولهذا كلفهم على قدر استطاعتهم، والله لايكلف نفساً إلا وسعها، فقد أخرج البيهقي في «الشعب» عن سليمان التيمي قال: «إن الله تعالى أنعم على العباد على قدره سبحانه، وكلفهم الشكر على قدرهم»[١]، قال الشوكاني: «﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ ﴾ لنفسه بإغفاله لشكر نعم الله عليه. وظاهره شمول كل إنسان. وقال الزجاج: إن الإنسان، اسم جنس يقصد به الكافر خاصة كما قال: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾. ﴿ كَفَّارٌ ﴾. أي شديد كفران نعم الله عليه، جاحد لها غير شاكر لله سبحانه عليها كما يجب عليه»[٢]، وقال ابن عاشور: «وصيغتا المبالغة في ﴿ ظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ اقتضاهما كثرة النعم المفاد من قوله ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ إذ بمقدار كثرة النعم يكثر كفر الكافرين بها إذا أعرضوا عن عبادة المنعم

---

(١) «شعب الإيمان» (٤٥٧٨) - (٤ / ١٣٨)، أحمد بن الحسين البيهقي، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) «فتح القدير» (٣ / ١١٠).

وعبدوا ما لا يغني عنهم شيئاً، فأما المؤمنون فلا يجحدون نعم الله ولا يعبدون غيره»[١].

فالإنسان ظلوم كفار ،ولكن الله غفور رحيم يقابل جحود العباد وتقصيرهم بالمغفرة، فمن شكر بعض ما استطاع وشعر بعجز الشكر عما لايستطيع فإن الله يغفر له تقصيره ذلك ولايعاقبه، وكذلك فإنه جعل الباب مفتوحاً لمن أراد التوبة – بالنسبة لغير المؤمنين – إذا أرادوا التوبة من جحودهم للنعمة، ولهذا قال تعالى في سورة النحل: ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [النحل: ١٨]، فكانت صفة الله تعالى مقابلة لصفة الإنسان ﴿ **ظَلُومٌ كَفَّارٌ** ﴾، والتى ذكرها في سورة إبراهيم. قال الشوكاني: «وما أحسن ما ختم به هذا الامتنان الذي لا يلتبس على الإنسان، مشيراً إلى عظيم غفرانه وسعة رحمته فقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ أي كثير المغفرة والرحمة لايؤاخذكم بالغفلة عن شكر نعمه، والقصور عن إحصائها والعجز عن القيام بأدناها، ومن رحمته إدامتها عليكم، وإدرارها في كل لحظة، وعند كل نفس تتنفسوه وحركة تتحركون بها»[٢]، وقال البيضاوي: «﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ** ﴾ حيث يتجاوز عن التقصير في أداء شكرها ﴿ **رَّحِيمٌ** ﴾ لايقطعها لتفريطكم فيه، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها»[٣]، وقال الرازي: «إنه تعالى قال في هذا الموضع: ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** ﴾ وقال في سورة النحل: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾. ولما تأملت فيه لاحت لي فيه دقيقة، كأنه يقول: إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت الذى أخذتها وأنا الذى أعطيتها فحصل لك عند أخذها وصفان: وهما كونك ظلوماً كفاراً، ولي وصفان عند إعطائهما وهما كوني غفوراً رحيماً، والمقصود كأنه يقول: إن كنت ظلوماً فأنا غفور، وإن كنت كفاراً فأنا رحيم أعلم عجزك وقصورك فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوفير ولا أجازى جفاءك إلا بالوفاء»[٤].

فالله تعالى غفور رحيم يقابل تقصير الإنسان وجحوده بالمغفرة، ولهذا قال تعالى: ﴿ **مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا** ﴾ [النساء:

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٣ / ٢٣٧).
(٢) «فتح القدير» (٣ / ١٥٤).
(٣) «تفسير البيضاوي» (٣ / ١٧٨).
(٤) «تفسير الرازي» (١٩ / ١٣١).

١٤٧]، فمدار تعذيب من حكم عليهم بذلك إنما هو عدم شكرهم، وظاهر الخطاب أنه للمنافقين وقد يكون عاما، قال الألوسي: «أى أيَّ شيء يفعل الله سبحانه بسبب تعذيبهم، أيتشفى به من الغيظ؟ أم يدرك الثأر؟ أم يجلب نفعا؟ أو يستدفع به ضرراً كما هو شأن الملوك، وهو الغني المطلق المتعالي عن أمثال ذلك؟ وإنما هو أمر يقتضيه مرض كفركم ونفاقكم»(٢).

وقال سيد قطب: «إن عذابه لجزاء على الجحود والكفران. وتهديد، لعله يقود إلى الشكر والإيمان. إنهما ليست شهوة التعذيب؛ ولا رغبة التنكيل، ولا التذاذ الآلام، ولا إظهار البطش والسلطان. تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيراً. فمتى اتقيتم بالشكر والإيمان فهنالك الغفران والرضون»(٣).

فشكر النعم يؤدي إلى رفع العذاب عنهم وغفران ذنوبهم بسبب تقصيرهم وعجزهم عن ذلك، أخرج الخرائطي عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «يجاء بعبد من عبيد الله، فيوقف بين يدي الله عز وجل، فيقول الله: أي عبدي، هات حقي قبلك أجزك بحقك قبلي بأدائك حقي عليك، قال: فينظر في ذلك فلا يستطيع أن يحير جواباً. فيقول لملائكته: يا ملائكتي! انظروا في عمل عبدي ونعمتي عليه، أظنه قال: فينظرون فيقولون: ولايقدر نعمة واحدة من نعمتك عليه، قال: فيقول: يا ملائكتي! انظروا في عمل عبدي سيئه وصالحه، فينظرون فيجدونه كفافاً، فيقول: عبدي! قد قبلت حسناتك وغفرت لك سيئاتك، وقد وهبت لك نعمتي ما بين ذلك»(٣).

وأخرج الخرائطي عن جابر بن عبد الله قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ فقال: «خرج من عندي خليلي جبريل آنفا فقال: يا محمد! والذي بعثك بالحق، إن لله عبداً من عباده عبد الله خمسمئة عام على رأس جبل عرضه وطوله ثلاثون ذراعاً في ثلاثين ذراعاً، والبحر محيط به أربعة آلاف فرسخ من كل ناحية، وأخرج الله له عيناً بعرض إصبع تفيض بماء عذب فتستنقع في أسفل الجبل، وشجرة رمان تخرج له كل يوم

(١) «روح المعاني» (٥ / ١٧٩). (٢) «في ظلال القرآن» (٢ / ٧٨٦).
(٣) «فضيلة الشكر»، رقم (٥٧).

رمانة فيغذيه يومه، فإذا أمسى أصاب من الوضوء، وأخذ تلك الرمانة فأكلها، ثم قام لصلاته فسأل ربه عند وقت الأجل أن يقبضه ساجداً، ولا يجعل للأرض ولا لشيء يفسده عليه سبيلاً، ثم يبعثه وهو ساجد ففعل، فنحن نمر عليه إذا هبطنا وإذا عرجنا، فنجد في العلم أنه يبعث يوم القيامة فيقف بين يدي الله عز ٠جل فيقول الرب: ادخلوا عبدي الجنة برحمتي، فيقول: بل بعملي، فيقول: أدخلوا عبدى الجنة برحمتى. فيقول: بل بعملي، فيقول الله لملائكته: قايسوا عبدي بنعمتي عليه وبعمله. قال: فتوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادته خمسمئة عام وبقيت نعمة الجسد فضلاً عليه، فيقول: أدخلوا عبدي النار. قال: فيجر إلى النار، فينادي: رب برحمتك أدخل الجنة. فيقول: ردوه، فيوقف بين يديه، فيقول: يا عبدي! من خلقك ولم تك شيئاً؟ فيقول: أنت يارب، فيقول: أكان ذلك من قبلك أم برحمتي؟ فيقول: بل برحمتك. فيقول: من قواك على عبادة خمسمئة عام؟ فيقول: أنت يارب. فيقول: من أنزلك في جبل في وسط اللجة وأخرج لك الماء العذب من الماء المالح وأخرج لك كل يوم رمانة، وإنما تخرج كل سنة، وسألتني أن أقبضك ساجداً ففعلت ذلك بك؟ فيقول: أنت يارب. فيقول: فذلك برحمتي وبرحمتي أدخلك الجنة، أدخلوا عبدي الجنة برحمتي، فنعم العبد كنت يا عبدي فيدخله الجنة. فقال جبريل: إنما الأشياء برحمة الله يا محمد»[1].

---

(١) «فضيلة الشكر»، رقم (٥٩)، ذكره الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٢ / ٢٢٧)، عن الليث بن سعد عن سليمان بن هرم. ورواه الحاكم في «المستدرك»، من طريق يحيى بن بكير (٤ / ٢٥٠)، وقال ابن حجر في «لسان الميزان»: ولما أخرج الحاكم في «المستدرك»، هذا الحديث قال: صحيح. والليث لا يروى عن المجهولين.



المبحث الرابع
النجاة من عذاب الدنيا

العذاب قد يكون في الدنيا وقد يكون يكون في الآخرة، وعذاب الدنيا قد يكون للكافرين، وقد يكون لعصاة المؤمنين وذلك لتكفير الذنوب عنهم كما يصيب الإنسان أنواع من الابتلاءات.

وكثيراً ما كان يحصل للأمم أن يأخذهم الله بذنوبهم، وذلك أن كل نبي كان يبعث لقومه خاصة، فلما يعلم الله من هؤلاء أنه لم يعد فيهم خير يعذبهم الله بذنوبهم[١]، أما رسالة النبي محمد ﷺ فإنها لما كانت للبشر لم يأخذ الله الناس بذنوبهم كما كان الأمر في الأقوام السابقة بل أرجأهم لليوم الآخر، لأنه إذا لم يؤمن قوم فقد يؤمن آخرون، فقوم نوح كذبوه ولم يؤمن معه إلا القليل فأغرقهم الله بالطوفان فكان الماء ينزل من السماء وينبع من الأرض .. وقوم عاد كذبوا رسولهم فأرسل الله عليهم ريحاً صرصراً تقتلع الناس من أماكنهم .. وكذلك قوم ثمود كذبوا برسولهم صالح وعقروا الناقة فأرسل الله عليهم صيحة فكانوا كالهشيم المتحطم ... فقد كان في الأمم السابقة أن يأخذ الله من لم يؤمن في الدنيا.

وقد بين القرآن أن سبب أخذهم هو جحودهم وعدم شكر نعمة الرسل بالإيمان بهم والعمل بما يأمرهم به الله .. كما بين أن الشكر هو الذي ينجي من عذاب الدنيا. قال تعالى: ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ [النحل: ١١٢]، وعاقب الله قوم سبأ لما كفروا نعمة الله فقال: ﴿ **فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ**

(١) كما قال تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾، [هود: ٣٦].

قليل ﴿١٦﴾ ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور﴾ [سبأ: ١٧]، فقد يكون العذاب بأن يهلكهم الله تعالى كما حصل لقوم نوح وعاد وثمود .. وقد يكون بتبديل النعمة كما حصل لقوم سبأ وغيرهم..

وكذلك بين القرآن أن الشاكرين ينجون من عذاب الله تعالى كما حصل لنبي الله لوط عليه السلام حينما نجاه الله مما أهلك به قومه، فقال تعالى: ﴿كذبت قوم لوط بالنذر ﴿٣٣﴾ إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر ﴿٣٤﴾ نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر﴾ [القمر: ٣٥]، فالله تعالى ينجي من شكر نعمته كما أنجى لوطا، عليه السلام وقد كان في إنجاء لوط آية بينة على نجاة الشاكرين، فقد أرسل الله الملائكة ليخرجوا منها لوطاً وأهله، ولهذا لما كان الاستغراب من إبراهيم بشرته الملائكة بأنهم سيخرجون منها لوطاً، ﴿ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين ﴿٣١﴾ قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ [العنكبوت: ٣٢]، ولما ذهبت الملائكة إلى لوط عليه السلام طلبوا منه أن يسري بأهله إلا امرأته فخرج لوط في الليل.. ثم أهلكهم الله فجعل القرية عاليها سافلها وأمطر عليهم الحجارة، قال تعالى: ﴿قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴿٨١﴾ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود﴾ [هود: ٨٢]، قال ابن كثير: «﴿إلا آل لوط نجيناهم بسحر﴾ أي خرجوا من الليل فنجوا مما أصاب قومهم، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد، ولا رجل واحد، حتى ولا امرأته التى أصابها ما أصاب قومها، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالما لم يمسه سوء»[١].

فكما أنجى الله تعالى لوطاً عليه السلام وأهله، فإنه تعالى ينجي من شكر نعمته، قال تعالى: ﴿كذلك نجزي من شكر﴾ [القمر: ٣٥].. وكذلك أنجى الله نوحاً وقومه،

(١) «تفسير ابن كثير» (٤ / ٢٦٨).

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ۝ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر: ١٤].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ۝ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٣].

فالله تبارك وتعالى ينجي الشاكرين من عذاب الدنيا والآخرة. أما ما يصيبهم من بلاء في الدنيا فليس بعذاب إنما هو نعمة لهم ليكفر بذلك من سيئاتهم ويغفر لهم ذنوبهم[١].



(١) انظر بحث نعمة الابتلاء، وبحث شكر المكروه.

المبحث الخامس
حب الله تعالى

ومن ثمرات الشكر حب الله تعالى، وهو حب من الإنسان لله ومن الله للإنسان.

فالشاكر يثمر شكره بالنسبة إليه أنه يتوصل بمعرفة النعمة إلى المنعم، وأن المنعم عظيم العناية بالإنسان، فأعطى الإنسان من النعم على قدر عنايته ورحمته بالإنسان، وكلفه بالشكر على قدر استطاعته. يقول الألوسي: «والشاكر يكون أبداً في مطالعة أقسام نعم الله تعالى وأنواع فضله وكرمه، وذلك يوجب تأكد محبة الله تعالى، المحسن عليه بذلك، ومقام المحبة أعلى مقامات الصديقين. ثم قد يترقى العبد من تلك الحالة إلى أن يكون حبه للمنعم شاغلاً له عن الالتفات إلى النعمة، وهذه أعلى وأغلى»[١]، ويقول ابن القيم: «.. ومتى عرف المنعم أحبه وجد طلبه، فإن من عرف الله أحبه لا محالة»[٢]، فالشكر يثمر في نفس الشاكر حب الله تعالى لأن النعمة توصل إلى المنعم، ومن عرف المنعم بحق فإنه يحبه لامحالة، يقول الشيخ سعيد حوى: «إن محبة العبد لله أثر فطري عن الشعور بنعمة الله على العبد، ولذلك قال ﷺ: **«أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله إياي، وأحبوا آل بيتي لحبي»**[٣][٤].

وكذلك، فإن من يشكر الله فإن الله يحبه. ومحبة العبد لله أمر معلوم ويمكن حمله على حقيقته، فتحمل على معنى: ميل القلب إلى أمر يراه خيراً ويستلذ به، قال الراغب:: «والمحبة: إرادة ما تراه أو تظنه خيراً. وهي على ثلاثة أوجه: محبة للذة، كمحبة الرجل المرأة.. ومحبة شيء ينتفع به.. ومحبة فضل، كمحبة أهل العلم بعضهم لبعض لأجل العلم. وربما فسرت المحبة بالإرادة في نحو قوله تعالى: ﴿ **فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن**

---

(١) «روح المعاني» (١٣ / ١٩١).
(٢) «مدارج السالكين» (٢ / ٢٤٧).
(٣) رواه الترمذي في «المناقب» (٣٧٩٢)، والحاكم في فضائل أهل البيت» (٣ / ١٤٩)، ورمز السيوطي لصحته (٢٢٤) (١ / ٣٩).
(٤) «جند الله»، سعيد حوى (ص ١٨٩).

﴿يَتَطَهَّرُوا﴾(١)، ليس كذلك، فإن المحبة أبلغ من الارادة.. فمحبة الله تعالى للعبد إنعامه عليه، ومحبة العبد له طلب الزلفى لديه»(٢).. وتحدث الألوسي عن المحبة ومعناها فقال: «المحبة لغة: ميل المتصف بها إلى أمر ملذ». وتكلم عن أنها يمكن توفرها في العبد حقيقة.. أما محبة الله للعبد فهي من المتشابهات، فقال: «أنت تعلم أن ذلك من المتشابه، والمذاهب فيه مشهورة»(٣)، وقال البيضاوي: «ومحبة الله تعالى للعباد: إرادة الهدى والتوفيق لهم في الدنيا وحسن ثواب الآخرة»(٤)، وذكر ابن القيم عن محبة الله لعبده فقال: «محبة الرب لأوليائه وأنبيائه ورسله صفة زائدة على رحمته وإحسانه وعطائه. فإن ذلك أثر المحبة وموجبها. فإنه لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وبره أتم نصيب»(٥) ويقول الشيخ سعيد حوى: «محبة الله ليس كمثلها شيء فليست كمحبتنا إنما هي محبة تليق بجلال الله وكماله وتنزيهه»(٦).

وعلى كل حال، فقد أثبت القرآن الكريم والسنة حب الله تعالى لعباده المؤمنين. ولهذه المحبة طريق يسلكه السالكون، وأثر يظهر على جوارحهم. وقد وصف الله تعالى نفسه بالودود، وصفة الودود مأخوذة من الود، وهو الحب، يقول الأستاذ عبد الرحمن حبنكة الميداني: «اسم الله «الودود» مأخوذ من الود وهو الحب. ومحبة الله خاصة بصنف من عباده وهم المؤمنون الطائعون، قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، والمراد من محبة الله لعبده: زيادة إنعامه عليه بجعله من أهل القربى عنده. ويتضمن معنى الود من الإنعام ما لا يتضمنه معنى الرحمة والرأفة»(٧).

وقد رسم لنا القرآن الكريم الطريق العام لنيل محبة الله تعالى، فقال جل شأنه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، فالطريق لنيل محبة الله هي اتباع الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله وصفاته. وبين النبي ﷺ أن بعض العبادات تزيد العبد قربا من الله تعالى حتى

---

(١) التوبة (١٠٨).
(٢) «المفردات»، للراغب، مادة (حب).
(٣) «روح المعاني» (٦ / ١٦٣).
(٤) «تفسير البيضاوي» (٢ / ١٥٥).
(٥) «مدارج السالكين» (٣ / ١٨)، دار الرشاد، الدار البيضاء، المغرب.
(٦) «جند الله، ثقافة وأخلاقا» (ص ٣٤٢).
(٧) «العقيدة الإسلامية وأسسها» (ص ٢٢٠).

بحبه الله تعالى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه..**»[١]، فالنوافل تقرب العبد من الله حتى ينال حبه تبارك وتعالى.

أثر محبة الله تعالى:

وإذا أحب الله تعالى عبده فإنه يوقع له المحبة من أهل السماء وأهل الأرض، قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحببه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض عبداً دعا جبريل، فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضوه، فيبغضه أهل السماء، ثم توضع له البغضاء في الأرض**»[٢].

وكذلك إذا أحب الله تعالى عبده فإنه يؤيده وينصره، قال ﷺ: «**إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته ولئن استعاذني لأعيذنه**»[٣].

وكذلك فإن في الشعور بمحبة الله لعباده من الطمأنينة والثبات في الحس والشعور مالا يدركه من البشر إلا من عرف الله بصفاته وأفعاله وذاته، يقول سيد قطب: «وحب الله لعبد من عبيده أمر لايقدر على إدراك قيمته إلا من يعرف الله سبحانه بصفاته، كما وصف نفسه، و إلا من وجد إيقاع هذه الصفات في حسه ونفسه وشعوره وكينونته كلها.. أجل لايقدر حقيقة هذا العطاء إلا الذي يعرف حقيقة المعطي. الذي يعرف من هو الله.. من هو صانع هذا الكون الهائل، وصانع الإنسان

---

(١) «البخاري» (٦٥٠٢)، كتاب الرقاق باب (٣٨).
(٢) «مسلم» (٢٦٣٧).
(٣) «البخاري» (٦٥٠٢١)، الرقاق (٣٨).

الذي يلخص الكون وهو جرم ضعير! من هو في عظمته . ومن هو العبد الذي يتفضل الله عليه منه بالحب .. والعبد من صنع يديه سبحانه وهو الجليل العظيم، الحي الدائم، الأزلي الأبدي، الأول والآخر والظاهر والباطن.

وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد لا يدركها كذلك إلا من ذاقها»[١].

فمن ثمرات الشكر أن الله تعالى يحب عباده الشاكرين، كما قال رسول الله ﷺ: **«كلوا واشربوا وتصدقوا في غير مخيلة ولاسرف، فإن الله عز وجل يحب أن يرى أثر نعمته على عباده»**[٢].



(١) «في ظلال القرآن» (٢ / ٩١٨).
(٢) «كتاب الشكر»، لابن أبي الدنيا رقم (٥١)، قال الأرناؤوط: وإسناده حسن.

المبحث السادس
رضوان الله تعالى

ومن ثمرات الشكر أن الله تعالى يرضى عن العبد الشاكر، كما قال تعالى: ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾ [الزمر: ٧].

وإذا رضي الله عن العبد فإنه يكون عنده من المقربين ويجزيه أحسن الجزاء، والرضا يقابله السخط، قال الراغب: «السَّخَط والسُّخْط: الغضب الشديد المقتضي للعقوبة»[١].

ورضون الله هو أعظم ما يناله العبد في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩]، فالفوز العظيم أن ينال المؤمن رضوان الله تعالى. وقد بين تعالى أنه منح رضوانه للسابقين من المهاجرين والأنصار ومن اتبعهم بإحسان، فقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وكان من أهم ما أعطى أصحاب البيعة أن رضي عنهم فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، لهذا سميت هذه البيعة بـ «بيعة الرضوان» كما بين تعالى أنه سيجزي من خشيه بالرضا فيرضى عنه ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨].

فرضوان الله تعالى من أعظم مايناله العبد في الدنيا والآخرة، لذلك بين القرآن أن

(١) «المفردات»، للراغب، مادة (سخط).

أعظم الجزاء في الآخرة هو «رضوان الله»، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]، يقول سيد قطب: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.. إن الجنة بكل ما فيها من نعيم لتتضاءل وتتوارى في هالات ذلك الرضوان الكريم... إنه لحظة اتصال بالله. لحظة شهود لجلاله، لحظة انطلاق من حبسة هذه الأمشاج، ومن ثقلة هذه الأرض وهمومها القريبة، لحظة تنبثق فيها أعماق القلب البشري شعاعة من ذلك النور الذي لا تدركه الأبصار، إشراق تنير فيها حنايا الروح بقبس من روح الله.. إن لحظة واحدة من هذه اللحظات التي تتفق للندرة القليلة من البشر في ومضة صفاء، ليتضاءل إلى جوارها كل متاع، وكل رجاء.. فكيف برضوان من الله يغمر هذه الأرواح، وتستشعره بدون انقطاع؟ ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾»[١].



(١) «في ظلال القرآن» (٣ / ١٦٧٦).

الفصل الرابع
صور من شكر الشاكرين

- المبحث الأول: شكر نوح عليه السلام
- المبحث الثاني: شكر إبراهيم عليه السلام
- المبحث الثالث: شكر داود عليه السلام
- المبحث الرابع: شكر سليمان عليه السلام
- المبحث الخامس: شكر موسى عليه السلام
- المبحث السادس: شكر محمد صلى الله عليه وسلم
- المبحث السابع: شكر المؤمنين في الجنة

المبحث الأول
شكر نوح عليه السلام

بقي نبي الله نوح عليه السلام يدعو قومه «ألف سنة إلا خمسين عاماً» إلا أن قومه استمروا في الطغيان، وبعد هذه الفترة الطويلة لم يؤمن معه إلا القليل. وبعدها وقع عليهم قضاء الله تعالى فأهلكهم بالطوفان.

نعمة الله على نوح:

فقد أنعم الله على نوح ومن معه بنعمة النجاة من الغرق، وفي هذه النجاة بقيت ذرية نوح الذين آمنوا معه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝٧٦ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ۝٧٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝٧٨ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ۝٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٨٠ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝٨١ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الصافات: ٨٢].

شكر نوح عليه السلام:

ولما وقع الطوفان وأغرق الله الكافرين ونجى المؤمنين طلب الله من نوح أن يحمده على إنجائه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنين: ٢٨]، قال الألوسي: «فإن الحمد على النجاء منهم متضمن للحمد على إهلاكهم، وإنما قيل ما ذكر ولم يقل فقل الحمد لله الذي أهلك القوم الظالمين لأن نعمة الإنجاء أتم»[١].

وبقي نوح عليه السلام دائم الشكر لنعمة الله عليه، ولهذا سماه القرآن عبداً شكوراً، فقال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، قال ابن

---

(١) «روح المعاني» (١٨ / ٢٧).

كثير: «**وقد ورد في الأثر عن السلف أن نوحا عليه السلام كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله، فلهذا سمي عبدا شكوراً**»[١]، أخرج ابن أبي الدنيا عن عائشة عن النبي ﷺ: «**أن نوحاً عليه السلام لم يقم عن خلاء قط إلا قال: الحمد لله الذي أذاقني طعمه وأبقي منفعته في جسدي، وأخرج عني أذاه**»[٢].



(١) «تفسير ابن كثير» (٣ / ٢٥).
(٢) «كتاب الشكر»، رقم (١٢٤)، قال الأرناؤوط: (وإسناده ضعيف، وله شاهد من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب عند ابن السني في «عمل اليوم والليلة»، رقم (٢٥) وإسناده ضعيف).

المبحث الثاني
شكر إبراهيم عليه السلام

وإبراهيم عليه السلام وصفه الله بالشكر فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١١٢]، فقد وصفه بأنه ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ وأنعم جمع قلة، قال البيضاوي: «ذكر بلفظ القلة للتنبيه على أنه كان لايخل بشكر النعم القليلة فكيف بالكثيرة؟»[١].

وقد أنعم الله تعالى على نبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام بنعم كثيرة، فقد أنعم الله عليه بالهداية إلى المعبود الحق، وآتاه الله الحجة: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وجعله إماماً للناس، وجعل النبوة في ذريته .. ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

ويشتد بإبراهيم عليه السلام الكبر، وتصل امرأته لحالة العقم .. ويتطلع إبراهيم لأن يهبه الذرية الصالحة .. فيرسل الله تعالى ملائكته مبشرين لإبراهيم وامرأته بغلام رغم أن إبراهيم كان شيخاً كبيراً وكانت امرأته عجوزاً قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٢]

---

(١) «تفسير البيضاوي» (٣ / ١٩٤).

شكر إبراهيم عليه السلام :

ويحس إبراهيم عليه السلام بالنعم فيتوجه إلى الله تعالى شاكراً له على أنعمه، ومن صور شكره عليه السلام أن قال ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ** ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، قال البيضاوى: «أى وهب لى وأنا كبير آيس من الولد. قيد الهبة بحال الكبر استعظاما للنعمة وإظهاراً لما فيها من آلائه»(١).

وقد أراد الله تعالى أن يمتنه في ولده .. فلما رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يذبح ولده - ورؤيا الأنبياء حق - توجه إبراهيم عليه السلام لتنفيذ ما رأى وامتثالاً لأمر الله، فامتثل هو وابنه إسماعيل عليهما السلام لذلك.. ومن ثم يمتن الله عليه فيفديه بذبح عظيم، قال تعالى: ﴿ **فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ** ﴾ [الصافات: ١٠٠ - ١١٣].



(١) «تفسير البيضاوي» (٣ / ١٦٣).

المبحث الثالث

شكر داود عليه السلام

وداود عليه السلام نبي من أنبياء الله تعالى جمع الله له بين النبوة والملك، وكان في بني إسرائيل، وقد خصه الله تعالى بكثير من النعم، وكان كثير الشكر لله تعالى.

نعم الله على داود:

والنعم التي خص الله بها داود عليه السلام كثيرة منها: أنه جعله ملكاً وجعل ملكه قوياً، وآتاه الله الحكمة، والفصل في الخصومات، وسخر معه الجبال يسبحن، وسخر له الطير، وعلمه صنعة الدروع، إلى غير ذلك من النعم الكثيرة. قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [سبأ: ١١]، قال ابن كثير: «يخبر الله تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه السلام مما آتاه من الفضل المبين وجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العدد والعدد، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات»[١].

وقد ذكر تعالى بعضاً من نعمه على داود عليه السلام في هاتين الآيتين وهي:

١- تسبيح الجبال معه:

قال تعالى: ﴿**يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ**﴾، ومعنى ﴿**أَوِّبِي**﴾ أي رجعي معه التسبيح ورددیه، قال الألوسي: «أي سبحي معه .. والمراد رجعي معه التسبيح ورددیه»[٢]، وقال ابن كثير: «والصواب أن المعنى في قوله تعالى: ﴿**أوبي معه**﴾ أي رجعي معه مسبحة»[٣].

(١) «تفسير ابن كثير» (٣ / ٥٠٥).
(٢) «روح المعاني» (٢٢ / ١١٣).
(٣) «تفسير ابن كثير» (٣ / ٥٠٥).

٢- تسخير الطير:

وسخر أيضاً الطير له تسبح مع الجبال إذا سبحت أو تسخيراً عاماً لكل شيء قال ابن كثير: «وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه وترد عليه الجبال تأويباً»[١].

٣- إلانة الحديد:

كما قال تعالى: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ⑩ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ قال الألوسي: «جعلناه في يده كالشمع والعجين يصرفه كما يشاء من غير نار ولا ضرب مطرقة، قاله السدي وغيره.»[٢]، وإلانة الحديد لأجل أن يعمل الدروع، فقد علمه الله تعالى صنعة الدروع حتى يصنعها ويبيعها فيقتات منها هو وأهله ويتصدق، ولأجل أن تقيهم من عدوهم في القتال، كما قال ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ والسرد هو التسبيح، قال أبو السعود: «﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ السرد نسج الدروع، أي اقتصد في نسجها بحيث تتناسب حلقها. وقيل: .. لاتصرف جميع أوقاتك إليه، بل بمقدار ما يحصل به القوات وأما الباقي فاصرفه إلى العبادة، وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾»[٣].

٤- تقوية ملكه:

وقد جمع الله له الملك والنبوة، وجعل ملكه قوياً، فقال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ [ص: ٢٠]، أي «قويناه بالهيبة والنصر وكثرة الجنود، وقرىء بالتشديد للمبالغة»[٤].

٥- إيتاؤه الحكمة:

كما قال تعالى: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ [ص: ٢٠]، والحكمة هي كل فعل وافق الصواب، قال أبو السعود: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ النبوة وكمال العلم وإتقان العمل، وقيل: الزبور وعلم الشرائع، قيل: كل كلام وافق الحق فهو حكمة»[٥].

٦- الفصل في الخصومات:

وكان داود عليه السلام قاضياً، وقد منحه الله تعالى القدرة على الفصل في الخصومات

(١) «تفسير ابن كثير» (٣ / ١٨٢).
(٢) «روح المعاني» (٢٢ / ١١٤).
(٣) «تفسير أبي السعود» (٧ / ١٢٥).
(٤) «تفسير البيضاوي» (٥ / ١٦).
(٥) «تفسير أبي السعود» (٧ / ١٢١).

فكان إذا أخطأ رده إلى الحق والصواب، كما في قصة الرجلين اللذين تسورا المحراب، وكما في قصة الغنم التي فهم الله سليمان الحكم بها. قال تعالى: ﴿ **وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ** ﴾ قال البيضاوي: ﴿ **وَفَصْلَ الْخِطَابِ** ﴾ وفصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل.»[١]، وقيل معنى فصل الخطاب هو الكلام الذي يفي بالمقصود من غير اختصار مخل ولا إطناب ممل[٢].

شكر داود عليه السلام:

وقد كان داود عليه السلام وآله شاكرين نعمة الله عليهم، حتى كانت أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود وأحب الصيام صيام داود. ولما آتى الله داود وآله تلك النعم طلب منهم أن يشكروه عليها، فقال تعالى: ﴿ **اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾ [سبأ: ١٣]، قال الشوكاني: «أي وقلنا لهم اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكراً على ما آتاكم.. وسميت الطاعة شكراً لأنها من جملة أنواعه»[٣].

وكان داود عليه السلام شاكراً بلسانه وبقلبه وبجوارحه فكان يقوم الليل ويصوم النهار، وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [النمل: ١٥]. وأخرج ابن أبي الدنيا عن الحسن أنه قال: قال داود عليه السلام: «**إلهي! لو أن لكل شعرة مني لسانين يسبحانك بالليل والنهار ما قضيت نعمة من نعمك**»[٤]، وأخرج الخرائطي عن ابن شهاب الزهري قال: قال داود عليه السلام: «**الحمد لله كما ينبغي لكريم وجهه وعز جلاله. فأوحى الله إليه: قد أتعبت الملائكة**»[٥]، وقال ابن كثير: «**جاء في رواية ابن أبي حاتم عن الفضيل أنه عليه السلام قال: يارب! كيف أشكرك والشكر نعمة منك؟ قال سبحانه: الآن شكرتني حين علمت أن النعم مني**»[٦]، وقال ابن كثير أيضاً: «**عن ثابت البناني قال: كان داود عليه السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا إنسان من آل داود قائم يصلي.**»[٧].

---

(١) «تفسير البيضاوي» (٥ / ١٧).
(٢) «مع الأنبياء في القرآن الكريم»، لطبارة (ص ٣٨٢).
(٣) «فتح القدير» (٤ / ٣١٧).
(٤) «كتاب الشكر»، رقم (٢٥).
(٥) «فضيلة الشكر»، رقم (٨).
(٦) «تفسير ابن كثير» (٣ / ٥٠٧).
(٧) المصدر السابق (٣ / ٥٠٧).

المبحث الرابع
سليمان عليه السلام

وقد خص الله تعالى سليمان عليه السلام فجمع له بين النبوة والملك وسخر له كثيراً من المخلوقات لم يسخرها لغيره، وكان يقابل النعم بالشكر الجزيل.

في حال وجود أبيه داود عليهما السلام كان لسليمان دور في إبداء الرأى وقد خصه الله بذلك، ففي قصة الغنم والزرع التي ذكرها القرآن يحكم داود عليه السلام بالقضية .. ولكن الله تعالى يلهم سليمان حكماً آخر ويحكم به داود، قال تعالى: ﴿ **وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، والحرث هو الزرع ونفشت أي رعت ليلاً.. وقد ذهب البعض لبيان كيفية حكمه ولكن فحوى الكلام هو أن سليمان حكم بغير حكم داود وكان ذلك منه من الله تعالى حيث ألهمه بالحكم بذلك.

وبعد وفاة داود عليه السلام صار سليمان عليه السلام هو الملك بعد أبيه وصار نبياً، وورث سليمان داود. وقد أجمل ما خصه الله تعالى به من نعم حيث قال: ﴿ **وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [النمل: ١٦]، أي من النبوة والعلم والملك المتمكن وتسخير كثير من المخلوقات والجيش الجرار... وفي يوم من الأيام يحشر لسليمان عليه السلام جنوده من الجن والإنس والطير مما يصور بعضاً مما حشر لسليمان عليه السلام قال تعالى: ﴿ **وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ [النمل: ١٨]، ومعنى يوزعون أي يحبس أوائلهم على أواخرهم حتى يجتمع بعضهم بعضا ولايتخلف منهم أحد، وذلك للكثرة العظيمة التي كانوا عليها(١).

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٦ / ٢٧٧).

وقد خص الله تعالى بعض المخلوقات التي سخرها لسليمان ﷺ بالذكر لبيان عظمة ما أوتي سليمان من ملك عظيم، ومن هذه المخلوقات:

١- الريح:

فقد سخر الله له الريح تجري بأمره كما يريد وإلى المكان الذي يريد، قال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، وقال: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [سبأ: ١٢]، فقوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ أي سخرنا له الريح تجري عاصفة أي شديدة الهبوب، قال أبو السعود: «أي سخرنا به الريح حال كونها شديدة الهبوب»[١]، وفي هذا دلالة على شدة سرعة الريح والتي قال تعالى عنها: ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ فكان يسير على متنها مسافة شهر ذهابا وعودة يسير بها في مدة يوم واحد. قال الألوسي: «أي جريها بالغداة مسيرة شهر، وجريها بالعشي كذلك»[٢] .. وقد سخر الله له الريح تحمله إلى أرض الشام كما قال تعالى: ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ قال ابن كثير: «يعني أرض الشام»[٣] وليس معنى ذلك - والله أعلم - إلى أرض الشام فقط بل إلى حيث يريد كما أفاد قوله تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص: ٣٦]، قال الألوسي: «﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي قصد وأراد»[٤].

٢- الشياطين:

وسخر الله تعالى له الشياطين تعمل بأمره ما يشاء، كما قال تعالى: ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ [ص: ٣٨]، فقد أجملت هذه الآية عمل الجن لسليمان ﷺ فسخر له الشياطين للبناء كما قال تعالى: ﴿ كُلَّ بَنَّاءٍ ﴾ قال الألوسي: «أريد من له قوة البناء»[٥]، وجاء بصيغة

(١) «تفسير أبي السعود» (٦ / ٨٠).
(٢) «روح المعاني» (٣ / ١٦٦).
(٣) «تفسير ابن كثير» (٣ / ١٨٣).
(٤) «روح المعاني» (٢٣ / ٢٠٣).
(٥) المصدر السابق (٢٣ / ٢٠٣).

المبالغة لبيان قوة فعلهم في البناء، وقد بينت آية أخرى عملهم في البناء كما قال تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ [سبأ: ١٣]، والمحاريب هي القصور، قال أبو السعود: أي قصور حصينة ومساكن شريفة»[١]، والتماثيل هي الصور، قال الألوسي: ﴿ وَتَمَاثِيلَ ﴾ قال الضحاك: كانت صور حيوانات، وقال الزمخشري: صور الملائكة والأنبياء والصلحاء كانت تعمل في المساجد من نحاس وصفر وزجاج ورخام ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم، وكان اتخاذ الصور في ذلك الشرع جائزاً ..»[٢]، ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ ﴾ والجفنة هي ما يوضع فيها الطعام، قال الألوسي: «﴿ وَجِفَانٍ ﴾ جمع جفنة وهي ما يوضع فيها الطعام .. ﴿ كَالْجَوَابِ ﴾ أي كالحياض العظام، جمع جابية، من الجباية أي الجمع»[٣]، ﴿ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ قال أبو السعود: «ثابتات على الأثافي لا تنزل عنها لعظمها»[٤] .. فهذا من بناء الشياطين التي سخرها الله تعالى لسليمان.

أما غوصهم كما قال: ﴿ وَغَوَّاصٍ ﴾ أي يغوصون في الماء فيستخرجون الحلية منها، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ [الأنبياء: ٨٢]، قال أبو حيان: «أي في البحر يستخرجون له الحلية، وهو أول من استخرج الدر»[٥].

أما قوله تعالى: ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ أي مقيدون بالسلاسل والقيود، قال البيضاوي: «كأنه فصل الشياطين إلى عَمَلَةٍ استعملهم في الأعمال الشاقة كالبناء والغوص، ومردة قرن بعضهم مع بعض في السلاسل ليكفوا عن الشر»[٦].

٣- تعليمه منطق الطير:

وقد علمه الله تعالى منطق الطير فكان يفهم حديثها فيخاطبها ويأمرها بما يشاء. وقد حكى عنه القرآن قوله: ﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ [النمل: ١٦]، ولما مر سليمان بجنوده في وادي النمل سمع كلام النمل، وكان ذلك ليعلمه الله مقدار ما أوتيه من ملك عظيم ..

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٧ / ١٢٥).
(٢) «روح المعاني» (٢٢ / ١١٨)، و«الكشاف» (٣ / ٢٥٣).
(٣) المصدر السابق (٢٢ / ١١٩).
(٤) «تفسير أبي السعود» (٧ / ١٢٦).
(٥) «تفسير البحر المحيط» (٧ / ٣٩٨).
(٦) «تفسير البيضاوي» (٥ / ٢١٩).

ويفهم سليمان عليه السلام حديث الهدهد حيث يأتيه الهدهد بخبر الملكة بلقيس التي كانت تحكم في ملك عظيم وكان لها عرش عظيم، ولكنها كانت وقومها تعبد غير الله تعالى، قال تعالى: ﴿ **وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ** ﴾ [النمل: ٢٠-٢٥]، وكان هذا ما جاء على لسان الهدهد والذى أخبر به سليمان عليه السلام.

٤- إسالة النحاس:

كما قال تعالى: ﴿ **وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ** ﴾ [سبأ ١٣]، أي جعل الله له النحاس يسيل كما تسيل الماء من العيون، قال الألوسي: «أي النحاس الذائب. الظاهر المؤيد بالآثار أنه تعالى جعله في معدنه عيناً تسيل كعيون الماء»(١).

كان هذا بضا مما خص الله تعالى سليمان عليه السلام من نعم، وكان سليمان عليه السلام يقابل هذه النعم العظيمة بالشكر لله تعالى.

كان هذا بعضا مما خص الله تعالى سليمان عليه السلام من نعم، وكان سليمان عليه السلام يقابل هذه النعم العظيمة بالشكر لله تعالى.

شكر سليمان عليه السلام:

وكان سليمان عليه السلام يقابل نعمة ربه بشتى أنواع الشكر، ومن صور شكره عليه السلام - ما يلي:

١- لما أحس سليمان عليه السلام بما منحه الله من علم واسع توجه بالحمد لله تعالى

(١) «روح المعاني» (٢٢ / ١١٨).

على ذلك، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل: ١٥] .

٢ - يحشر لسليمان عليه السلام جنوده من الجن والإنس والطير، حتى إذا أرادوا المرور بوادي النمل سمع سليمان النملة تقول لجماعتها: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل: ١٨]، وعندها تبسم سليمان من مقولتها وتوجه إلى الله تعالى بأن يلهمه شكر ما أنعم عليه وعلى والديه، قال تعالى: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩]، فقد طلب سليمان عليه السلام من ربه أن يلهمه ملازمة الشكر على ما أنعم به عليه وعلى والديه، وأن يلهمه العمل الصالح الذي يرضاه، وذلك من تمام الشكر، وأن يتم له نعمته بأن يدخله في عباده الصالحين فيجعله منهم . فقول سليمان عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ أي اجعلني ملازماً شكر نعمتك، قال الألوسي: «أي اجعلني أزع شكر نعمتك أي أكفه وأرتبطه لا ينفلت عني وهو مجاز عن ملازمة الشكر والمداومة عليه فكأنه قيل: رب اجعلني مداوماً على شكر نعمتك»[(١)]، وقال سيد قطب: «﴿ أَوْزِعْنِي ﴾ اجمعني كلي. اجمع جوارحي ومشاعري ولساني وجناني وخواطري وخلجاتي، وكلماتي وعباراتي، وأعمالي وتوجهاتي. اجمعني كلي. اجمع طاقاتي كلها على آخرها، وآخرها على أولها «وهو المدلول اللغوي لكلمة أوزعني» لتكون كلها في شكر نعمتك علي وعلى والدي ..

أما سؤاله أن يلهمه شكر نعمته تعالى على والديه وذلك لأن نعمة الله على الوالد نعمة على الولد، قال الرازي: «وأما قوله .. ﴿ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ﴾ فذلك لأنه عد نعم الله تعالى على والديه نعمة عليه»[(٢)]، وقال الألوسي: «﴿ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ﴾ أدرج ذكر والديه تكثيراً للنعمة، فإن الإنعام عليهما إنعام عليه من وجه مستوجب للشكر، أو تعميما لها ..»[(٣)].

---

(١) «روح المعاني» (١٩ / ١٨١).

(٢) «تفسير الرازي» (٢٤ / ١٨٨).

(٣) «روح المعاني» (١٩ / ١٨١).

٣- ولما سمع سليمان ﷺ بخبر الملكة بلقيس والتي كانت هي وقومها يسجدون للشمس من دون الله أرسل إليهم برسالة ليأتوه مسلمين .. ولما توجهت الملكة إلى سليمان أراد مفاجأتها بإحضار عرشها قبل وصولها، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل: ٤٠]، وبعدها تم إحضار عرشها، لما وجد العرش ماثلاً أمامه شعر بفضل الله عليه وما أعطاه من نعم عظيمة وما سخر له من المخلوقات ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠]، فقد أحس بنعمة الله عليه فكان شكراً له، ثم أحس بأن ذلك ابتلاء من الله ليبلوه أيشكر أم يكفر، ثم أحس بأن الشكر يعود على الإنسان وكل ذلك من الشكر، يقول سيد قطب: «لقد لمست هذه المفاجاة قلب سليمان ﷺ وراعه أو يحقق الله له مطالبه على هذا النحو المعجز، واستشعر أن النعمة - على هذا النحو - ابتلاء ضخم مخيف، يحتاج إلى يقظة منه ليجتازه، ويحتاج إلى عون من الله ليتقوى عليه، ويحتاج إلى معرفة النعمة والشعور بفضل المنعم، ليعرف الله منه هذا الشعور فيتولاه»[١]، ويقول ابن عاشور: «ولما ذكر الفضل أضافه إلى الله بعنوان كونه ربه لإظهار أن فضله عليه عظيم، إذ هو عبد ربه. فليس إحسان الله إليه إلا فضلاً محضاً، ولم يشتغل حين أحضر له العرش بأن يبتهج بسلطانه ولا بمقدرة رجاله ولكنه انصرف إلى شكر الله تعالى على ما منحه من فضل وأعطاه من جند مسخرين بالعلم والقوة ..»[٢].



(١) «في ظلال القرآن» (٥ / ٢٦٣٢).
(٢) «تفسير التحرير والتنوير» (١٩ / ٢٧٢).

البحث الخامس
شكر موسى عليه السلام

وكان موسى عليه السلام شاكراً نعمة الله عليه، وقد خصه الله تعالى بكثير من النعم، فكان يشكر نعمة ربه ويدعو قومه لشكر النعمة عليهم. ومن النعم التي خص الله بها موسى عليه السلام ما يلي:

١ – لما ولد موسى عليه السلام نجاه الله من فرعون الذي كان يقتل أولاد بني إسرائيل، ثم رده تعالى إلى أمه كي ترضعه وقد حرم عليه المراضع، قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ٧-١٣]، فهذه عناية الله تحرس موسى وترعاه منذ صغره ومنذ ولادته .

٢ – وبعد أن بلغ موسى أشده، وفي ذات يوم مر برجلين يقتتلان أحدهما من شيعته فانتصر له، فضربه موسى ضربة بسيطة ولكنها أودت بحياته فاستغفر ربه فغفر له، قال: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ

﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦].

٣- وفي اليوم التالي وقد أصبح موسى خائفاً من يأن بطش به أولئك القوم وإذا به يستصرخه ذلك الرجل مرة أخرى فأراد أن يبطش بعدوهما، قال لموسى أتريد أن تكون جباراً في الأرض، قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩]

وبعدها تآمر القوم على قتل موسى، فجاء رجل يخبر موسى بمرادهم، فخرج من المدينة خائفاً يترقب وتوجه تلقاء مدين داعياً ربه أن يهديه سواء السبيل. ولما وصل ماء مدين وجد امرأتين وقد ابتعدتا عن القوم تنتظران القوم حتى ينتهوا من سقيهم، فاقترب وسقى لهما .. فأخبرت الفتاتان أباهما بشأن موسى فبعث يطلبه .. ولما قص عليه خبره طمأنه وقال له لاتخف نجوت من القوم الظالمين. فمنّ الله على موسى بالنجاة من أولئك القوم الذين أرادوا قتله. ثم عرض عليه ذلك الرجل الزواج فزوجه من إحدى ابنتيه فتم له الأمن والنجاة والاستقرار.

٤- ولما أراد موسى أن يعود من أرض مدين إلى مصر - الأرض التي ولد ونشأ فيها - وفي طريق العودة كلمه الله تعالى وأمره بتبليغ الرسالة ومنّ عليه بأن شد أزره بأخيه هارون، قال تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦].

٥- ويذهب موسى لفرعون يبلغه دعوة الله إليه، فيقول عنه ساحر ويجمع له أمهر السحرة من كل مكان، فيجتمعون ويلقون حبالهم وعصيهم ويسحرون أعين الناس، ثم

ألقى موسى عصاه فإذا هي تلتهم كل ماصنعوا .. ثم يؤمن السحرة مع موسى ويكفرون بفرعون ويتحدونه بأن يفعل ما يشاء، قال تعالى: ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٢٢].

٦- ولما أراد فرعون أن يبطش بموسى وقومه، أوحى الله إليه أن يسير بقومه ليلاً هاربين، فأتبعهم فرعون بجنوده حتى اعترضهم البحر، فأوحى الله إليه فضرب البحر بعصاه فانفلق البحر فمر به موسى وقومه ونجا من فرعون، وبعد عبور موسى وقومه تبعه فرعون فأطبق الله عليهم البحر فأغرق فرعون وقومه، قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ** ﴾ [الشعراء: ٦٦].

وهكذا يمنُّ الله تعالى على موسى بنعم عظيمة جداً، ويخصه بنعم كتكليم الله له وغيرها من النعم.

شكر موسى عليه السلام:

ومن صور شكر موسى عليه السلام نعمة ربه ما يلي:

١- لما ذكر موسى الرجل وقضى عليه، وعرف أن هذا العمل من عمل الشيطان، طلب من الله أن يغفر له فغفر له، وعندما توجه إلى الله معاهداً إياه بأن لا تكون النعمة التي ينعم بها عليه وسيلة للإجرام، ونحوه، قال تعالى: ﴿ **قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ** ﴾ [القصص: ١٧].

٢- وقد طلب الله تعالى من موسى عليه السلام أن يذكر نعمة الله عليه ويكون من الشاكرين وذلك لما طلب موسى من الله تعالى أن يريه ذاته العلية فقال تعالى لموسى: ﴿ **لن تراني** ﴾، قال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ**

إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وبعدها طلب الله من موسى أن يذكر نعمته عليه بما اصطفاه بالرسالة وبالكلام وأن يكون من الشاكرين ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، قال أبو السعود: «﴿ قَالَ يَا مُوسَى ﴾ استئناف مسوق لتسليته عليه الصلاة والسلام من عدم الإجابة إلى سؤال الرؤية، كأنه قيل: إن منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام مالم أعط أحداً من العالمين فاغتنمها وثابر على شكرها ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ ﴾ أي اخترتك واتخذتك صفوة وآثرتك ﴿ عَلَى النَّاسِ ﴾ أي العاصين لك .. ﴿بِرِسَالاتِي﴾ أي بأسفار التوراة .. ﴿ وَبِكَلامِي ﴾ وبتكليمي إياك بغير واسطة ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ ﴾ أي أعطيتك من شرف النبوة والحكمة ﴿ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾»[1].

وقد كان موسى عليه السلام، أخرج ابن أبي الدنيا عن أبي الجلد قال: قرأت في مسألة موسى عليه السلام أنه قال: «**يارب! كيف أشكرك وأصغر نعمة وضعتها عندي من نعمك لايجازي بها عملي كله؟! قال: فأتاه الوحي أن يا موسى! الآن شكرتني**».

ولذلك كان موسى عليه السلام يدعو بني إسرائيل ليشكروا نعمة الله عليهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٦]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٠].

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٣ / ٢٧٠).

المبحث السادس
شكر محمد ﷺ

وكان سيدنا محمد ﷺ سيد الشاكرين، وقد خصه الله تعالى بالكثير من النعم، أذكر منها:

١- خاتم الرسل:

فقد كان رسول الله ﷺ محمد خاتم الرسل أجمعين، وختام الرسل يكون بأفضلهم، وهو سيد ولد آدم وسيد المرسلين أجمعي، وقال تعالى: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾ [الأحزاب: ٤٠].

٢- كافة للناس:

وكان كل رسول يبعث في قومه خاصة، أما رسول الله محمد ﷺ فقد بعث للناس عامة، ونسخت شريعته جميع الشرائع، وبقيت شريعته لجميع الناس ولجميع العصور إلى أن تقوم الساعة، حتى إن عيسى عليه الصلاة والسلام حينما ينزل في آخر الزمن فإنه يقيم العدل وينشر رسالة النبي محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً**﴾ [سبأ: ٢٨].

٣- التبشير برسالته:

وقد بشر الأنبياء برسالته ﷺ فكان النص في التورة على بعثته وذكرت فيها صفاته، قال تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة: ٨٩]، كما بشر عيسى عليه السلام قومه ببعثه النبي محمد عليه الصلاة السلام، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**

فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف: ٦]، وقال: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ** ﴾

[الأعراف: ١٥٧]

٤- القـرآن:

وقد أنزل الله على رسوله القرآن الكريم فامتن الله عليه بذلك، قال تعالى ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ** ﴾[الحجر: ٨٧]، تكفل الله تعالى لحفظه، وقد حُرِّفت جميع الكتب السماوية بينما حفظ الله تعالى كتابه من تحريف المحرفين إلى أن تقوم الساعة، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر: ٩]، ولبيان شرف وعظمة القرآن أنه تعالى جعل الليلة التي أنزل فيها خيراً من ألف شهر، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ** ﴾ [القدر: ٥]، فمن قام هذه الليلة غفر له ما تقدم من ذنبه، يقول النبي ﷺ: «**من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**»(١)، والقرآن يشفع لصاحبه يوم القيامة، يقول الرسول ﷺ: «**اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه**»(٢)، والذي يقرأ القرآن له أجر عظيم فإن من قرأ حرفاً من كتاب الله كان له به حسنة والحسنة بعشر أمثالها، ويكون قارئ القرآن مع السفرة الكرام البررة، قال رسول الله ﷺ: «**الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران**»(٣)، وقال - ﷺ: «**يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها**»(٤).

٥- الشفاعة:

وقد خص الله تعالى رسوله بالشفاعة يوم القيامة فيشفع للمؤمنين من أمته.

(١) «مسلم» (٧٦٠). (٢) «مسلم» (٨٠٤). (٣) «مسلم» (٧٩٨).
(٤) «الترمذي» (٢٩١٥)، وقال حسن صحيح، و«أبو داود» (١٦٦٤).

شكر النبي محمد ﷺ:

وكان محمد ﷺ يقابل ربه بالشكر، بل كان يجهد نفسه بالقيام بالليل شكراً لله تعالى على نعمه، وكان ﷺ مثال الشاكر فكان شكره بلسانه وقلبه وجوارحه، ومن صور شكره عليه الصلاة والسلام ما يلي:

أخرج ابن أبي الدنيا عن أبي جعفر قال: كان رسول الله ﷺ إذا شرب الماء قال: «**الحمد لله الذي جعله عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا**»[١].

وأخرج ابن أبي الدنيا أن النبي ﷺ قال: «**الحمد لله الذي سوى خلقي فعدله وكرم صورة وجهي وحسنها وجعلني من المسلمين**»[٢].

وأخرج أبو بكر بن السنى عن حذيفة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا استيقظ قال: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور**»[٣].

وأخرج أبو بكر بن السنى أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر، فقد أدى شكر ذلك اليوم**»[٤].

وأخرج ابو بكر بن السني عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا علا شرفا من الأرض قال: «**اللهم لك الشرف على كل شرف، ولك الحمد على كل حال**»[٥].

وأخرج ابن السني عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا شبع

---

(١) «كتاب الشكر»، رقم (٦٩)، قال الأرناؤوط في تخريجه: مرسل وفي سنده جابر بن يزيد الجعفي، وهو ضعيف، ولكنه ذكر أن له سنداً آخر موقوفاً على الحسن البصري بسند صحيح، وهو يقويه.

(٢) «كتاب الشكر»، رقم (١١٧)، قال الأرناؤوط: إسناده ضعيف ولكن صح دعاؤه ﷺ بثوبه: «اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي».

(٣) «عمل اليوم والليلة»، رقم (٨)، باب ما يقول إذا استيقظ من منامه.

(٤) «عمل اليوم والليلة»، رقم (٤١)، باب ما يقول إذا أصبح.

(٥) «عمل اليوم والليلة»، رقم (٥٢٣)، باب ما يقول إذا علا شرفاً من الأرض، وأخرجه الخرائطي «في فضيلة الشكر»، رقم (١٤).

من الطعام قال: «**الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مكفي ولا مودع، ولا مستغني عنه ربنا**»[١].

وكان الرسول ﷺ كثير الصلاة بالليل والنهار فيقوم الليل ويصوم النهار ويصلي عند كل نعمة حادثة أو يسجد لله شكراً على ما أنعم عليه من نعم.

فقد أخرج البخارى ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه. قالت عائشة: يا رسول الله! أتصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**يا عائشة! أفلا أكون عبداً شكوراً؟**»[٢].

وأخرج ابن ماجه عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ صلى يوم بشر برأس أبي جهل ركعتين»[٣].

وكان ﷺ إذا لم يصل فإنه يسجد لله شكراً عند كل نعمة حادثة فكان إذا جاءه أمر يسره خر ساجداً لله تعالى، فقد أخرج ابن ماجه عن أبي بكرة أن النبي ﷺ كان إذا أتاه أمر يسره أو يسر به خر ساجداً، شكراً لله تبارك وتعالى»[٤]. وأخرج أحمد وابن أبي الدنيا عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال له: «**إن جبريل أتاني فبشرني فقال: إن الله عز وجل يقول: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه، فسجدت لله - عز وجل - شكراً**»[٥].

وأخرج أحمد وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، فوجد يهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا؟». فقالوا: هذا يوم نجى الله موسى وأغرق آل فرعون، فصامه موسى شكراً. قال النبي ﷺ: «**فإني أولى بموسى وأحق بصيامه، فصامه وأمر بصيامه**»[٦].

وهكذا كان رسول الله ﷺ عابداً حامداً شاكراً لله تبارك وتعالى، في كل حركة

---

(١) «عمل اليوم والليلة»، رقم (٤٧٠)، باب ما يقول إذا شبع من الطعام.
(٢) «مسلم» (٨١)، كتاب المنافقين، و«البخاري»، كتاب التهجد باب (١٩)، و«أحمد» (٦ / ١١٥).
(٣) «ابن ماجه»، رقم (١٣٩١)، باب (١٩٢)، كتاب إقامة الصلاة.
(٤) «ابن ماجه» رقم (١٣٩٤)، باب (١٩٢)، كتاب إقامة الصلاة.
(٥) «مسند أحمد» (١٩١/١)، و«كتاب الشكر»، باب (١٣٥)، وقال الأرناؤوط: حديث صحيح لطرقه وشواهده.
(٦) «ابن ماجه»، كتاب الصيام باب رقم (٤١).

من حركاته وفي كل سكنة من سكناته. ولما أكرمه الله تعالى بالفتح في صلح الحدسة قابل نعمة ربه بالشكر، فكان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه[١]، لما دخل مكة فاتحاً دخلها النبي ﷺ وهو في شدة التواضع لله تعالى، دخلها منحنياً - غير رافع رأسه كما يفعل البشر حينما ينتصرون - حتى كادت لحيته أن تمس ظهر راحلته، يقول الشيخ عفيف الطبارة عن دخول النبي ﷺ مكة فاتحاً: «وما كان راكباً راحلته منحنياً على رحلها تكاد لحيته تمسه تواضعاً، خاشعاً على ما أكرمه الله به من الفتح»[٢].



(١) «فضيلة الشكر»، رقم (٥٢).

(٢) «مع الأنبياء في القرآن الكريم» (ص٤١٠).

المبحث السابع
شكر المؤمنين في الجنة

وفي يوم القيامة يمن الله تعالى على المؤمنين بالنجاة من النار بعد مرورهم على الصراط، ثم يدخلهم الجنة فيتوجه المؤمنون بالحمد والشكر لله تعالى.

نعم الله على المؤمنين يوم القيامة:

وينعم الله تعالى على المؤمنين بنعم عظيمة ابتداء من وفاتهم حتى دخولهم الجنة واستقرارهم فيها:

١- فعند الوفاة: تتوفاهم الملائكة وهم على حالة يتطلعون فيها إلى لقاء ربهم، فترجع نفس المؤمن إلى ربها راضية مرضية، قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [النحل: ٣٢]، وقال: ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي** ﴾ [الفجر: ٢٨].

٢- وبعد بعث الناس يوم القيامة يتم حشر الخلائق جميعاً لموقف الحساب، وفي ذلك الموقف - موقف الحشر - تكون فيه أهوال عظيمة جداً تشيب لهولها الولدان وتذهل كل مرضعة عما أرضعت: ﴿ **يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ** ﴾ [الحج: ٢]، ويصيب الناس فزع شديد مما ينتظرهم. إلا أن الله تعالى يكرم عباده المؤمنين فيكون المؤمنون في مأمن من ذلك الفزع، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

٣- وعند اجتياز الصراط - وهو جسر على متن جهنم - يكرم الله تعالى عباده المؤمنين بالنجاة من الوقوع في النار، ويمرون على الصراط كل واحد حسب عمله في الدنيا «فالناس متفاوتون في العبور على الصراط، كل بحسب عمله، فمنهم من يمر كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر كالريح العاصف، ومنهم من يمر كسرعة الطير، ومنهم من يمر كالجواد السابق، ومنهم سعياً ومشياً وحبواً وعلى وجوههم. فعلى قدر استقامتهم على الصراط المعنوي في الدنيا - وهو الدين - يكون المرور على الصراط الحسي يوم القيامة»[١]؛ إلا أن جميع المؤمنين ينجون من العذاب - إلا من حكم عليه بالعذاب نتيجة عمله - قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧٢]، قال ابن أبي العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية: «واختلف المفسرون بالورود المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧٢] ما هو؟ والأظهر أنه المرور على الصراط»[٢].

٤- ثم يمنُّ الله تعالى على عباده بدخول الجنة ونيل رضوان الله تعالى، فنستقبلهم الملائكة بالسلام عليهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣]، قال أبو حيان: «﴿ طِبْتُمْ ﴾ أي أعمالا ومعتقداً ومستقراً وجزاء»[٣].

شكر المؤمنين في الجنة:

وبعد هذا النعيم العظيم يتوجه المؤمنون بالحمد لله تعالى على ماخصهم به من إكرام، ولا يقتصر حمدهم عند دخولهم الجنة بل يبقى حمدهم لله تعالى قائماً على لسانهم طالما يعيشون في ذلك النعيم المقيم.

١- فبعد أن اجتاز المؤمنون الصراط وخلصوا من هول ذلك الموقف وينجيهم الله تعالى برحمته من الوقوع في النار يتوجه المؤمنون بالحمد لربهم على أن أذهب عنهم

---

(١) «اليوم الآخر»، لعبد القادر الرحباوي (ص١١٠)، الطبعة الثامنة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧، دار السلام، بيروت.
(٢) «شرح العقيدة الطحاوية»، ابن أبي العز الحنفي (ص/٤٧١)، الطبعة الرابعة ١٣٩١هـ، المكتب الاسلامي، بيروت.
(٣) «تفسير البحر المحيط» (٧/٤٤٣).

الحزن الذي كانوا فيه من خوفهم من سوء العاقبة، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٣٤].

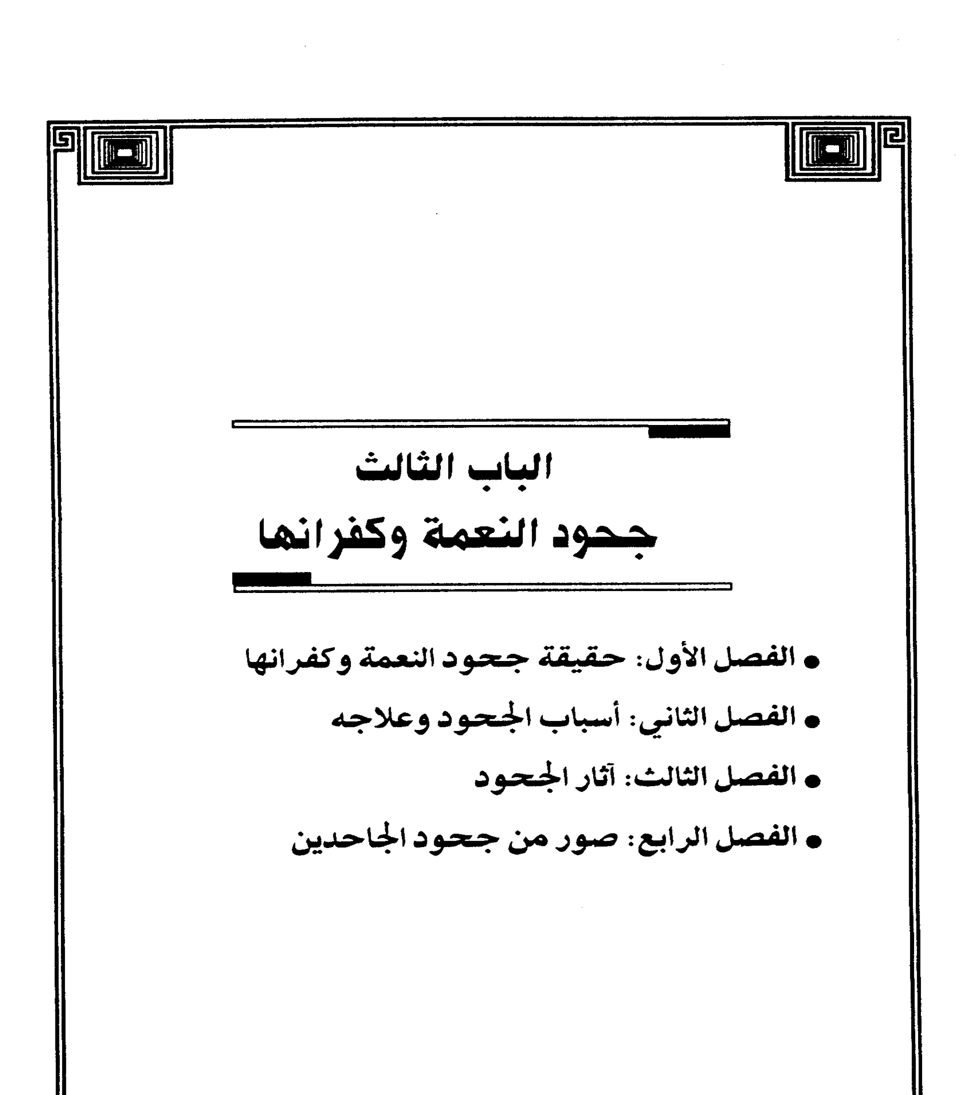
٢- وبعد دخولهم جنة الخلد التي وعدهم الله إياها على لسان الرسل يتوجه المؤمنون - كذلك - بحمد الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [الزمر ٧٤]، قال الزمخشري: «﴿ الْأَرْضَ ﴾ عبارة عن المكان الذي أقاموا فيه، واتخذوه مقراً ومتبوأ، وقد أورثوها أي ملكوها وجعلوا ملوكها، وأطلق تصرفهم فيها كما يشاؤون تشبيها بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه واتساعه فيه وذهابه في إنفاقه طولاً وعرضاً»[1].

٣- وبعد دخول المؤمنين الجنة يزيد الله في إكرامهم فينزع من صدورهم كل غل، فيعيشون فيها بأمن وسلام وقد اطمأنت قلوبهم، ويعيشون إخواناً متحابين، قال تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧]، أي «طهر الله تعالى قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة، ونزع سبحانه منها كل غل وألقى فيها التواد والتحاب»[2].. وعندها يتوجه المؤمنون بالحمد لله تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣]

٤- ويستمر المؤمنون في توجههم بالحمد لله تبارك وتعالى الذي منّ عليهم، يختمون دعواهم بالحمد لله تبارك وتعالى فيستمرون حامدين ذاكرين، قال تعالى: ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠].



(١) «الكشاف» (٣/٣٥٨).
(٢) «روح المعاني» (٤/٥٨).



الباب الثالث
جحود النعمة وكفرانها

- الفصل الأول: حقيقة جحود النعمة وكفرانها
- الفصل الثاني: أسباب الجحود وعلاجه
- الفصل الثالث: آثار الجحود
- الفصل الرابع: صور من جحود الجاحدين



الفصل الأول
حقيقة جحود النعمة وكفرانها

- المبحث الأول: تعريف الجحود والكفران
- المبحث الثاني: كيفية جحود النعمة
- المبحث الثالث: طبيعة الإنسان في جحود النعمة

المبحث الأول
تعريف الجحود والكفران

الحجود معناه: بيان خلاف ما في القلب، كأن ينفي ما هو مثبت في القلب أو يثبت ما هو منفي في القلب أو أن يكون فعله مخالفاً لذلك، قال الراغب: «الجحود: نفي ما في القلب إثباته، وإثبات ما في القلب نفيه»[(١)]، قال تعالى: ﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم** ﴾ [النمل: ١٤]، أي أنهم أنكروا آيات الله رغم علمهم اليقيني بها[(٢)] وجحود النعمة يكون مثلاً بأن ينكر نعمة الله رغم علمه بأنها من الله، أو يفعل فعل المنكر لنعمة الله فلا يشكرها، فيكون جحوداً لها.

والكفر في اللغة: الستر والتغطية، وكُفْرُ النعمة سترها بترك شكرها. قال الراغب: «وكفر النعمة وكفرانها: سترها، بترك شكرها .. وأعظم الكفر جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة. والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالاً، والكفر في الدين أكثر، والكفور فيهما جميعاً .. ولما كان الكفران يقتضي جحود النعمة صار يستعمل في الجحود ... والكفور المبالغ في كفران النعمة، وقوله: ﴿ **إنَّ الإنسانَ لكفورٌ مُبينٌ** ﴾ [الزخرف: ١٥]، تنبيه على ما ينطوي عليه الإنسان من كفران النعمة وقلة ما يقوم بأداء الشكر، وعلى هذا قوله: ﴿ **قُتل الإنسانُ ما أكْفَرَهُ** ﴾ [عبس: ١٧]، ولذلك قال: ﴿ **وَقَليلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾ [سبأ: ١٣]، وقوله: ﴿ **إنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إمَّا شَاكِرًا وإمَّا كَفُورًا** ﴾ [الإنسان: ٣] تنبيه أنه عرفه الطريقين كما قال: ﴿ **وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** ﴾ [البلد: ١٠]، فمن سالك سبيل الشكر ومن سالك سبيل الكفر»[(٣)].

فكفر النعمة يكون بترك شكرها، ولما كان الشكر يدل في أصل اللغة على الظهور، فكانت كلمة الشكر تستعمل في الدلالة على ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان لذلك كان الشكر إظهار النعمة[(٤)].. فلذلك كان الكفر في أصل اللغة الستر والتغطية وهو مضاد للشكر فالشكر إظهار النعمة، والكفر: ستر النعمة وجحودها.

---

(١) «المفردات»، للراغب، مادة (جحد).
(٢) «روح المعاني» (١٦٨/١٩).
(٣) «المفردات» مادة (كفر).
(٤) راجع بحث تعريف الشكر في الباب الثاني.

المبحث الثاني
كيفية جحود النعمة

لجحود النعمة وكفرانها كيفيات وصور متعددة، فينبغي على المؤمن ملاحظة هذه الكيفيات ومعرفتها حتى يتجنب كفران النعمة. ومن هذه الصور:

أولا: أن ينسب النعمة لغير واهبها:

فالنعم كلها من الله وحده، قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]. وكل نعمة واصلة للعباد سواء كان بطريق مباشر أو غير مباشر فهي من الله تعالى .. ولا يعني هذا أن ننفي النعمة الواصلة عن طريق العباد، فقد يكون العبد منعماً على غيره كنعمة الوالد على ولده ونعمة المحسن إلى المحسن إليه.. وهؤلاء ينبغي شكرهم، ولكن مع الشعور بأن الله هو مصدر النعمة فهو الذي ألهمهم هذا الإحسان فزرع في قلوبهم الرحمة والرأفة وحب الخير. فمن شكر النعمة أن تنسب النعمة إلى مصدرها، ومن جحود النعمة أن تنسب النعمة لغير واهبها، فمن أعطاه الله مالاً فعليه أن ينسب هذه النعمة إلى الله، لأن الله هو الرازق فلا ينسب إيتاء المال إلى نفسه وإلى كده الشخصي .. وإن كان الله قد ربط أسباب الرزق بأمور منها: السعي. ولكن الواهب الحقيقي هو الله تعالى، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٤٩]، فقد نسب إيتاء النعمة إلى جهده الشخصي ونسي المنعم الحقيقي. وهذا قارون، يعطيه الله من الأموال الشيء الكثير، ولكنه يطغي ويتكبر وينسب إيتاء المال لنفسه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾ [القصص: ٧٦]، ولكن المال العظيم جعله يطغى وينسبه لنفسه وينسى المنعم الحقيقي: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ [القصص: ٧٨].

فمن جحود النعمة أن تنسب لغير واهبها، فالكون بما فيه نعمة مسخرة من الله

للإنسان، والمال نعمة من الله، والصحة نعمة من الله، والأمن نعمة من الله، فإذا نسبت لغيره فهذا جحود للنعمة، يقول سيد قطب: «... ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ**﴾ [القصص: ٧٨] .. قالها قارون، وقالها كل مخدوع بعلم أو صنعة أو حيلة يعلل بها ما اتفق له من مال أو سلطان غافلاً عن مصدر النعمة، وواهب العلم والقدرة، ومسبب الأسباب، ومقدر الأرزاق»(١).

ويدخل في هذا الجانب كفران النعم، فينكر نعمته، أو ينكر كل خير منه أخرج الخرائطي عن أسماء بنت يزيد بن السكن، قالت: مر بي رسول الله ﷺ ومعي نسوة من بني عبد الأشهل، وكنت امرأة وكُنَّ جواري، فلما رأين رسول الله ﷺ جلسن وتقبضن بعضهن إلى بعض، قال: «**ويحك يا بنت السكن، وإياكن وكفر المنعم**». قلت: بأبي أنت وأمي، وما كفر المنعم؟ قال: «**يأتي الرجل بماله إلى إحداكن فيستخرجها من سترها ثم لعلها ترزق منه رجلاً، فتغضب الغضبة فتقول: والله ما رأيت خيراً قط. فإياكن وكفر المنعم**»(٢).

فجحود المنعم هو أن ينكر كل نعمة منه، سواء كان المنعم هو الله تعالى مباشرة أو بواسطة العباد.

ثانيا: البطر والفخر بنعمة الله:

وبطر النعمة يعني الفخر بها وسوء استخدامها وعدم القيام بشكرها، قال الراغب: «البطر دَهَش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة، وقلة القيام بحقها، وصرفها الى غير وجهها»(٣).

وهذا كله من جحود النعمة، أخرج الخرائطي عن النعمان بن بشير قال: إن للشيطان مصالي وفخوخاً، وإن من مصالي الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله، والفخر بإعطاء الله، والكبرياء على عباد الله، واتباع الهوى في غير ذات الله عز وجل»(٤)، والبطر يؤدي بالإنسان إلى الهلاك لذلك قال تعالى: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ**

---

(١) «في ظلال القرآن» (٥/٣٠٥٧).
(٢) «فضيلة الشكر»، رقم (١٠٦).
(٣) «المفردات»، للراغب، مادة (بطر).
(٤) «فضيلة الشكر»، رقم (٦٩).

بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨]

وكذلك الأمر في الفخر بنعمة الله تعالى، فالأموال والأولاد نعمتان من نعم الله تبارك وتعالى، وحق النعمة أن تقابل بالشكر، لا بالفخر ولا بالبطر. وليعلم المرء أن النعم إنما يعيطها الله تبارك وتعالى للمؤمنين وللكافرين حسب مشيئته وحكمته، فقد يوسع على المؤمنين مكافأة لهم على عملهم الصالح ليزداد بالنعمة صلاحهم، فيغدق عليهم المال ليختبر بذلك صبرهم. وقد يغدق الله على الكافرين ليزدادوا إثماً وبغياً وقد يضيق عليهم عقاباً لهم في الدنيا قبل الآخرة.. فمسألة إفاضة النعمة وتضييقها لحكمة يريدها تبارك وتعالى، وليس كل من أفاض الله عليه نعمة هو من المقربين كما يزعم المشركون.

كما ذكر عنهم القرآن قولهم: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]، ولكن القرآن رد على دعواهم: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى﴾ [سبأ: ٣٧]، فالافتخار بالنعم من جحودها، والنعم تعطى للعباد حسب حكمة الله تبارك وتعالى.

ويدخل في هذا الجانب: التنعم، وهو الترفه، ولعل المراد بها المبالغة في الأخذ بالنعمة مما يؤدي به إلى الإسراف والتبذير، قال رسول الله ﷺ: «إياي والتنعم، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين»[1].

ثالثا: أن يمل نعمة الله:

فبدلاً من أن يشكر نعمة الله فإنه يمل هذه النعمة ويطلب نعمة غيرها. فهؤلاء بنو إسرائيل يعيطيهم الله نعماً عظيمة جداً، ويمن عليهم في شرابهم فيفجر لهم اثنتي عشرة عيناً يشربون منها وينزل عليهم المن والسلوى. لكنهم ملوا هذه النعمة وقالوا: لن نصبر على طعام واحد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ

---

(١) رواه أحمد (٥/٢٤٣).

فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، يقول سيد قطب: «لقد كانوا بين الصحراء بجدبها وصخورها، والسماء بشواظها ورجومها. فأما الحجر فقد أنبع الله لهم منه الماء، وأما السماء فأنزل لهم منها المن والسلوى: عسلاً وطيراً.. ولكن البنية النفسية المفككة، والجبلة الهابطة المتداعية، أبت على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي من أجلها أخرجوا من مصر، ومن أجلها ضربوا الصحراء.. لقد أخرجهم الله على يدي نبيهم موسى ﷺ من الذل والهوان ليورثهم الأرض المقدسة، وليرفعهم من المهانة والضعة، وللحرية ثمن، ولعزة تالكاليف، وللأمانة الكبرى التي ناطهم الله بها فدية. ولكنهم لا يريدون أن يؤدوا الثمن، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف، ولا يريدون أن يدفعوا الفدية. حتى بأن يتركوا مألوف حياتهم الرتيبة الهينة. حتى بأن يغيروا مألوف طعامهم وشرابهم، وأن يكيفوا أنفسهم بظروف حياتهم الجديدة، في طريقهم إلى العزة والحرية والكرامة. إنهم يريدون الأطعمة المنوعة التي ألفوها في مصر. يريدون العدس والثوم والبصل والقثاء.. وما إليها!»(١)، إنهم بدلاً من أن يقوموا بشكر هذه النعم العظيمة التي أعطاهم الله إياها، فإنهم جحدوا النعمة وجحدوا المنعم وتلك هي طبيعتهم في التعامل.

وهؤلاء قوم سبأ يعيطهم الله تعالى الكثير من النعم فقد جعل أرضيهم جنات كما قال تعالى: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: ١٥]، أي: أينما يسير الرجل فيجد عن يمينه جنة وعن شماله جنة، فقد تحولت أرضهم كلها إلى أشجار وزروع وكثرت فيها الخيرات.. ثم إنه تعالى جعل بين قراهم وبين القرى التي بارك فيها – وهي قرى الشام على رأي من قال ذلك – قرى ظاهرة بحيث يأمن المسافر في سفره ولايجد ما يجده المسافر في الصحراء من الخوف كما قال تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨]، قال أبو السعود: «﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي جعلناها في نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معين يليق بحال أبناء السبيل، قيل:

---

(١) في «ظلال القرآن» (١/٧٤).

كان الغادي من قرية يقيل في أخرى، والرائح منها يبيت في أخرى إلى أن يبلغ الشام، كل ذلك كان تكميلاً لما أوتوا من أنواع النعماء وتوفيراً لها في الحضر والسفر»[١]، كما امتن الله عليهم بالأمن في هذه الأسفار، فكان من جملة نعم الله عليهم في الأسفار:

١ - أنه جعل بينهم وبين القرى التي بارك فيها قرى ظاهرة.

٢ - أنه جعل السير فيها مقدراً بحيث لاينهكهم السفر.

٣ - أنه امتن عليهم بالأمن: أمن الطريق، وأمن انقطاع الماء والزاد والراحة...

وهذه نعم عظيمة جداً في أمر السفر، وقد لا تتوفر في أكثر الظروف.

هذا ما امتنّ الله على قوم سبأ، فماذا كان حالهم في مقابلة هذه النعمة العظيمة؟! لقد كان حالهم كحال بني إسرائيل، لقد تكبروا وتجبروا وملوا هذه النعمة وبطروا تلك العيشة الهينة الرغيدة! إنهم طلبوا من الله أن يباعد بين أسفارهم بحجة أنه لو كانت المسافة أبعد لكانت شهوتهم إلى الثمار أفضل، ونسوا نعمة المنعم وتفضله عليهم، قال تعالى ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩]، قال أبو السعود: «بطروا النعمة، وسئموا العيش، وملوا العافية، فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنوا إسرائيل الثوم والبصل مكان المن والسلوى، قالوا: لو كان جنى جناننا أبعد لكان أجدر أن نشتهيه..»[٢].

أخرج الخرائطي عن محمد بن الحسين قال: مر ديراني من الرهبان، فقلنا: أين تريد؟ قال: أجول أطلب صلاح قلبي. قلت: فمن أين أتيت؟ فبكى، ثم قال: أقبلت من عند قوم ملّوا نعم الله عندهم، فخفت أن يسلبهم إياها عندما رأيت من تضييعهم شكرها فهربت عند ذلك، فهل من مرشد يرشد إلى خير أو يدل عليه؟[٣].

رابعاً: نسيان المنعم أو النعمة:

وهذا من صور الجحود إذ ينبغي على المرء أن يكون دائم الذكر للنعمة، فلا ينبغي

(١) «تفسير أبي السعود» (١٢٩/٧).
(٢) المصدر السابق (١٢٩/٧).
(٣) «فضيلة الشكر»، رقم (٧٧).

له نسيانها، ولعله إن سأل عن النعمة أو المنعم يجيب بالإيجاب، أي أن النعمة من الله، والله وحده هو المنعم، ولكنه لا يتذكر ذلك من تلقاء نفسه، وهذا جحود نسيان لاجحود نكران. فمن الشكر تذكر النعمة ومن الجحود نسيانها. ولهذا نجد في القرآن أنه يكثر التذكير بنعم الله، كما قال تعالى: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [البقرة: ٤٧]، وقال: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ**﴾ [المائدة: ٢٠].

فنسيان النعمة من الجحود، قال رسول الله ﷺ : «**من علم الرمي ثم تركه بعدما علمه فهي نعمة كفرها**»(١).

كذلك الأمر في نسيان المنعم، قال رسول الله ﷺ : «**إن الله عز وجل ليبيت القوم بالنعمة ثم يصبحون وأكثرهم كافرون، يقولون: مطرنا بنجم كذا وكذا**.»(٢)

قال ابن كثير: «وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء كانت من الليل - أي تمطر - ثم قال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا، كافر بي مؤمن بالكوكب**»(٣).

خامساً: الشكوى لغير الله تعالى:

ومن صور الجحود أن يشكو المرء حالته لغير الله تعالى، وأعظمها أن يشكو وهو في حالة جيدة، فكثير من غير الشاكرين يدوم حال الشكوى عندهم وهم في نعم لا تعد ولا تحصى. والشكوى المذمومة هذه هي التي تكون عن ضجر، أما إذا كانت الشكوى للاستعانة فليست مذمومة والأولى أن تكون الشكوى لله تعالى، كما قال أيوب ﷺ: ﴿**أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ [الأنبياء: ٨٣]. فالشكوى

---

(١) رواه أحمد (١٤٨٨/٤).
(٢) رواه أحمد (٥٢٥/٢).
(٣) «تفسير ابن كثير» (٣٩٤/٢).

لغير الله تعالى من صور الجحود، قال ابن القيم: «لما كان الصبر حبس اللسان عن الشكوى إلى غير الله والقلب عن السخط والجوارح عن اللطم وشق الثياب ونحوها كان ما يضاده واقعاً على هذه الجملة، فمنه الشكوى إلى المخلوق، فإذا شكى العبد ربه إلى مخلوق مثله فقد شكى من يرحمه إلى من لا يرحمه .. وأما إخبار المخلوق بالحال فإن كان للاستعانة بإرشاده أو معاونته والتوصل إلى زوال ضرورة لم يقدح ذلك في الصبر كإخبار المريض بشكايته وإخبار المظلوم لمن ينتصر به بحاله ..

والشكوى نوعان: شكوى بلسان القال وشكوى بلسان الحال، ولعلها أعظمها، ولهذا أمر النبي ﷺ من أنعم عليه أن يظهر نعمة الله عليه، وأعظم من ذلك من يشتكي ربه وهو بخير، فهذا أمقت الخلق عند ربه»[1].



(١) «عدة الصابرين»، لابن القيم (ص ٢٦٣).

المبحث الثالث
طبيعة الإنسان فى جحود النعمة

يخبرنا القرآن بطبيعة الإنسان بأنه جحود للنعمة، تلك هي طبيعة الإنسان إلا أن الإيمان وحده هو الذي يعصمهم من هذا المأزق الخطر ومن هذه الطبيعة الخاسرة .. ورغم أن العباد لو أرادوا شكر النعمة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً فكان الشاكرون قلة .. إلا أن كثيراً من الناس لايقوم بأدنى شكر .. ولكن الله هو المتفضل عليهم فيعطيهم على حسب إحسانه، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ [النمل: ٧٣] .. وكثيراً مانجد في القرآن عبارة ﴿ **قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٠] .

فطبيعة الإنسان أنه جحود للنعمة، قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا** ﴾ [الأسراء: ٨٣]، قال أبو السعود «﴿ **أَعْرَضَ** ﴾ عن ذكرنا فضلاً عن القيام بموجب الشكر ﴿ **وَنَأَىٰ** ﴾ تباعد عن طاعتنا ﴿ **بِجَانِبِهِ** ﴾ النأي بالجانب أن يلوي عن الشيء عطفه ويوليه عرض وجهه، فهو تأكيد للإعراض. أو عبارة عن الاستكبار لأنه من ديدن المستكبرين»[١]، وقال الشوكاني: «والمعنى أنه إن فاز بالمطلوب الدنيوي وظفر بالمقصود نسى المعبود، وإن فاته شيء من ذلك استوى عليه الأسف وغلب عليه القنوط»[٢]، قال تعالى: ﴿ **وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ** ﴾ [هود: ٩-١١]، فالإنسان بطبيعته يفرح للنعمة وما يسره، وييأس ويصيبه القنوط حينما يمسه ما يسوؤه. وهذه الطبيعة بخلاف طبيعة المؤمن، فالأمران سواء بالنسبة إليه، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له .. والإنسان بطبيعته إن أعطى نعمة

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٥/١٩٠).
(٢) «فتح القدير» (٣/٢٥٣).

ثم نزعت منه هذه النعمة فإنه ييأس ويقنط ويكفر .. وكأن النعمة من عنده وهي حق له، فنسي أن المنعم هو الله .. ثم إنه لو أعطاه الله نعمته بعد الشدة التي أصابته ففرح عنه كربته فإنه يفرح ويفخر بما حصل له وينسى المنعم كلياً .. فطبيعة الإنسان أنه يتعامل مع النعمة وينسى المنعم، يفرح بالنعمة ويحزن لزوالها ..

هذه هي طبيعة الإنسان، إنها طبيعة الجحود والنكران .. ولكن القرآن يستثني من بني الإنسان صنفاً واحداً إنهم المؤمنون الذين يعملون الصالحات، فإنهم يتعاملون في أمر النعمة مع المنعم لا مع النعمة فإن أعطاهم فذلك منه رحمة وإن منعهم فلحكمة يعلمها وهو أرحم بعباده من أنفسهم، يقول سيد قطب: «إنها صورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر، الذي يعيش في لحظته الحاضرة، ويطغى عليه ما يلابسه، فلا يذكر ما مضى ولايكفر فيما يلي . فهو يؤوس من الخير، كفور بالنعمة بمجرد أن تنتزع منه . مع أنها كانت هبة من الله له، وهو فرح بطر بمجرد أن يجاوز الشدة إلى الرخاء . لايحتمل في الشدة ويصبر ويؤمل في رحمة الله ويرجو فرجه، ولا يقتصد في فرحه وفخره بالنعمة أو يحسب لزوالها حساباً. ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا**﴾ .. صبروا على النعمة كما صبروا على الشدة، فإن كثيراً من الناس يصبرون على الشدة تجلداً وإباء أن يظهر عليهم الضعف والخور، ولكن القلة هي التي تصبر على النعمة فلا تغتر ولا تتبطر»[1] .

ويبين القرآن طبيعة أخرى من طباع الإنسان الجاحد، وهي التعرف إلى الله في الشدة ونسيانه في الرخاء، قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾ [يونس: ٢٣]، يقول سيد قطب: «عجيب هذا المخلوق الإنساني! لا يذكر الله إلا في ساعة العسرة، ولا يثوب إلى فطرته وينزع عنها ما غشاها من شوائب وانحرافات إلا في ساعة الكربة» .

---

(١) « في ظلال القرآن » (٤/١٨٦٠) .

فإذا أمن فإما النسيان وإما الطغيان .. ذلك إلا من اهتدى فبقيت فطرته سليمة حية مستجيبة في كل آن، مجلوة دائماً بجلاء الإيمان .. كذلك صنع قوم فرعون مع موسى، فكلما أخذوا بعذاب استغاثوا به ووعدوا بالعدول عما هم فيه. فإذا ذاقوا الرحمة مكروا في آيات الله وأولوها على غير وجهها، وقالوا: إنما رفع عنا الرجز بسبب كذا وكذا .. وكذلك صنعت قريش وقد أجدبت وخافت الهلاك، فجاءت محمداً تناشده الرحم أن يدعو الله فدعاه فاستجاب له بالسقيا، ثم مكرت قريش بآية الله وظلت فيما هي فيه! وهي ظاهرة مطردة في الإنسان ما لم يعصمه الإيمان»[١].

هذه هي طبيعة الإنسان بشكل عام، والمؤمن وحده هو الذي يتعامل مع النعمة بشكل سليم إنه ينظر إلى المنعم لا إلى النعمة، والمؤمن هو هو في السرآء وفي الضراء، فهو في السراء شاكر وفي الضراء صابر، قال رسول الله ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له**»[٢].



(١) «في ظلال القرآن» (١٧٧٣/٣).

(٢) رواه مسلم في الزهد، رقم (٦٤).

الفصل الثاني
أسباب الجحود وعلاجه

■ المبحث الأول: أسباب الجحود

١- ما يتعلق بالنعمة والمنعم

٢- وسوسة الشيطان

٣- النفس الإنسانية

■ المبحث الثاني: علاج الجحود

١- تعميق الإيمان بالله تعالى والنظر في نعمته

٢- النظر في أحوال المبتلين

٣- النظر إلى من دونه في الدنيا

٤- الحذر من كيد الشيطان

٥- معرفة كيفية الشكر وآثاره

٦- معرفة آثار الجحود



المبحث الأول
أسباب الجحود

لجحود النعمة أسباب، منها:

أولاً: مايتعلق بالنعمة والمنعم:

١- الجهل بالنعمة:

فقد يكون مرجع الجحود هو الجهل بالنعمة فلا يعرف أن ما أصابه هو نعمة من الله. وقد عرض القرآن صورة مجملة لنعم الله تبارك وتعالى في هذا الكون سماواته وأرضه وفي الإنسان نفسه ومايحيط به ...

٢- الجهل بمفهوم النعمة:

قد لا يجهل الإنسان كثيراً من النعم لكنه يجهل مفهومها مما يؤدي به إلى الجحود وقد ألف الإنسان أن النعمة إنما هي كثرة الأموال والأولاد وأن يعيش في صحة وعافية وأمن ورخاء .. لكن مفهوم النعمة يمتد ليشمل ما يصيب الإنسان من مصائب سواء كانت في أهله أو ماله أو ولده أو نفسه .. وذلك إذا احتسب ذلك عند الله تعالى. فالجهل بمفهوم النعمة من أسباب الجحود.

٣- الغفلة عن النعمة:

لما كان الشكر صعبا لا يستطيعه الإنسان، وذلك لكثرة النعم التي لا تعد ولا تحصى .. لذلك كثيراً ما نجد الإنسان غافلاً عن كثير من النعم، لأنه لو أراد أن ينفق عمره في العبادة شكراً لله لما استطاع أن يؤدي شكر نعمة من النعم فكيف له أن يقوم بشكر النعم جميعاً .. .. ولكن من عرف نعمة الله على المرء في ذلك وهي: أن الله تعالى أنعم على العباد حسب رحمته وطلب منهم الشكر حسب استطاعتهم، فكان على المرء أن يشكر نعمته حسب استطاعته ويشعر بالعجز عما لايستطيعه فيكون قد أدى شكر تلك النعم .. ولكن طبيعة المرء الغفلة عن النعم لكثرتها.

٤- إلف النعمة:

وقد يحس المرء بالنعمة فيشكرها، ثم يشكرها، ثم يشكرها، ولكن طبيعة الإنسان أنه إذا ألف النعمة نسي شكرها .. وهذا يؤدي به إلى الجحود، وقد قيل في المثل: «الإلف عدو التفكير» فإذا ألف المرء شيئاً لم يعد يفكر فيه .. ولهذا نجد أن القرآن يركز كثيراً على نعم الله المألوفة للبشر .. وفي كل مخلوق دلالة وآية تدل على عناية الله للإنسان ورعايته له . وهذا ما يجعل المرء دائم الصلة بالله تبارك وتعالى .. ولكن طبيعة الإنسان ذلك إلا المؤمن فإنه دائم الصلة بربه تبارك وتعالى .

٥- نكران النعمة:

وقد يكون جحود النعمة جحود كفران ونكران، فقد يعرف المرء نعمة الله عليه إلا أنه ينكر نعمة الله رغم معرفته بها، فلا يتعامل مع النعمة بما يجب عليه شكرها، قال تعالى عن الكافرين: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [النحل: ٨٣] ، قال أبو السعود: «ثم ينكرونها بأفعالهم، حيث يعبدون غير منعمها، أو بقولهم: أنها بشفاعة آلهتنا، أو بسبب كذا، وقيل: نعمة الله تعالى نبوة محمد ﷺ عرفوها بالمعجزات كما يعرفون أبناءهم ثم أنكروها عناداً»[١] .

٦- الجهل بكيفية الشكر:

درج الناس على أن مفهوم الشكر أن يقول بلسانه: الحمد لله، والشكر لله.. ولكن جهلهم بمفهوم الشكر هذا قد يصرفهم عن شكر الكثير إذ إن مفهوم الشكر أن يستعمل النعمة وفقاً للحكمة التي خلقها الله لذلك، فيستعملها في طاعته ويجنبها معصيته ثم يشكر بلسانه وبقلبه وبجوارحه ..

ما يتعلق بالمنعم:

ومن أسباب الجحود أيضاً هو جهل الناس بالمنعم، فمن عرف أن النعم كلها من الله وحده شكره عليها، ولكن من جهل المنعم وجهل أن الله هو الذي يسلب هذه النعمة إن لم يشكرها فإن هذا يؤدى به لعدم الشكر .

---

(١) « تفسير أبي السعود » (١٣٤/٥).

يقول الغزالي في الإحياء: «اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة، فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها، ثم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه: الحمد لله. ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها؛ وهي طاعة الله عز وجل، فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا رغبة الشهوة واستيلاء الشيطان.

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب، وأحد أسبابها: أن الناس بجهلهم لا يعدون مايعم الخلق ويسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة، فلذلك لايشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم لأنها عامة للخلق مبذولة لهم في جميع أحوالهم، فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصاً به فلا يعده نعمة، ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء، ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع عنهم ماتوا .. فإن ابتلي واحد منهم بشيء من ذلك ثم نجا ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليها. وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال. والنعمة في جميع الأحوال أولى بأن يشكر في بعضها فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلا إن تعمى عينه، فعند ذلك لو أعيد عليه بصره أحس به وشكره وعده نعمة . ولما كانت رحمة الله واسعة عمم الخلق وبذل لهم في جميع الأحوال فلم يعده الجاهل نعمة، وهذا الجاهل مثل العبد السوء حقه أن يضرب دائماً، حتى إذا ترك ضربه ساعة تقلد به منه، فإن ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر، فصار الناس لايشكرون إلا المال الذي يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم، كما شكا بعضهم فقره إلى بعض أرباب البصائر وأظهر شدة اغتمامه به، فقال له: أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال: لا، فقال: أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفاً؟ فقال: لا، فقال: أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال: لا، فقال: أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفاً! . وحكى أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعاً، فرأى في المنام كأن قائلاً يقول له: تود أنا أنسيناك من القرآن سورة الأنعام وأن لك ألف دينار؟

قال: لا، قال: فسورة هود؟ قال: لا، قال: فسورة يوسف؟ قال لا، فعدد عليه سوراً ثم قال فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو، فأصبح وقد سُرِّي عنه. ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء وبيده كوز ماء يشربه، فقال له: عظني! فقال: لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل جميع أموالك وإلا بقيت عطشاناً فهل كنت تعطيه؟ قال: نعم، فقال: لو لم تعط إلا بملكك كله فهل كنت تتركه؟ قال نعم، قال: فلا تفرح بملك لايساوي شربة ماء. فبهذا يتبين أن نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها[1].

ثانياً: وسوسة الشيطان:

للشيطان أثر بالغ في جحود النعمة، فالله خلق الإنسان وركب فيه الشهوة والهوى وهيأ له بواعث الشر حتى يختبره ويبتليه في ذلك.

والشيطنة هي التمرد والغواية، وهي صفة تطلق على الإنس كما تطلق على الجن وقد يوصف بها الحيوان إذا شرس وتمرد واستشرى أذاه[2].

والمراد بالشيطان إبليس الذي أغوى آدم عليه السلام كما يراد به كل من كان من حزبه. فإبليس هو أبو الشياطين وأصلهم الأول، وإبليس وذريته هم المتمردون من عالم الجن.. لأن الجن طوائف فمنهم الصالحون ومنهم المفسدون ﴿**وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا**﴾ [الجن: ١١].

وقد جعل الله لكل إنسان شيطاناً يوسوس له ويزين له عمل السوء، وهذا الشيطان هو عدو للإنسان، لذا أمر القرآن الكريم باتخاذه عدواً، قال ابن الجوزي: «اعلم أن الآدمي لما خلق ركب فيه الهوى والشهوة ليجتلب بذلك ما ينفعه. ووضع ففيه الغضب ليدفع به ما يؤذيه. وأعطي العقل كالمؤدب يأمره بالعدل فيما يجتلب ويجتنب. وخلق الشيطان محرضاً له على الإسراف في اجتنابه واجتلابه. فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذي قد أبان عداوته من زمن آدم عليه السلام وقد بذل عمره ونفسه في فساد أحوال بنى آدم. وقد أمر الله تعالى بالحذرو منه فقال سبحانه: ﴿**وَلَا**

---

(١) «إحياء علوم الدين» (١٢٤/٤).

(٢) «في ظلال القرآن» (١١٨٩/٣).

تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ [البقرة: ١٦٨]، وقال: ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾ [فاطر: ٦][١]، فالشيطان هو عدو الإنسان وقد أمرنا القرآن باتخاذه عدوا، أي بالحذر من كيده ومحاربته.

ولكل إنسان شيطان موكل به ويسمى ﴿ القرين ﴾. روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرين من الجن**»، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «**وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم؛ فلا يأمرني إلا بخير**»[٢].

والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، كما ثبت في الصحيح في قصة زيارة صفية للنبي ﷺ وهو معتكف، وخروجه ليلاً ليردها إلى منزلها فلقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي أسرعا، فقال رسول الله ﷺ: «**على رسلكما، إنها صفية بنت حيي**» فقالا: سبحان الله يا رسول الله! فقال: «**إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً أو قال شيئاً**»[٣].

وقد خلق الله الشياطين وأمدهم بقدرة على الوسوسة وتزيين الشر للناس فالشيطان «يستطيع أن يصل إلى فكر الإنسان وقلبه بطريقة لاندركها ولا نعرفها، يساعده على ذلك طبيعته التي خلق عليها، وهذا الذي نسميه بالوسوسة، وقد أخبرنا الله بذلك إذ سماه ﴿ الذي يوسوس في صدور الناس ﴾ وبهذه الوسوسة أضل آدم وأغراه بالأكل من الشجرة ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ [طه: ١٢٠][٤].

وليست الشياطين مقتصرة على الجن بل هي تشمل الجن والإنس، وقد يكون شياطين الإنس أشد أثراً من شياطين الجن، وقد يتعلم كل فريق من الآخر «أسس الشيطنة» كما قال تعالى: ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ [الأنعام: ١١٢].

---

(١) «تلبيس إبليس»، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ص٣٢)، الطبعة الأولى ١٩٨٣م، دار الكتب لبعلمية، بيروت.
(٢) «مسلم» (٢٨١٤)، «صفات المنافقين» (٦٩).
(٣) «مسلم» (٢١٧٥)، كتاب السلام (٢٤).
(٤) «عالم الجن والشياطين»، د. عمر سليمان الأشقر (ص٨١)، الطبعة الثانية ١٩٨٥م، دار الكتب العلمية، بيروت.

وكما تكون لشياطين الجن القدرة على الوسوسة فكذلك لشياطين الإنس القدرة على ذلك، فأعطاهم الله تلك القدرة كما أعطى إبليس ذلك؛ لحكمة يريدها الله تبارك وتعالى. يقول سيد قطب في بيان وسوسة شياطين الإنس: «وسوسة الجنة نحن لا ندري كيف تتم، ولكنا نجد آثارها في واقع النفوس وواقع الحياة .. وأما الناس فنحن نعرف عن وسوستهم الشيء الكثير. نعرف منها ما هو أشد من وسوسة الشياطين .. رفيق السوء الذي يتدسس بالشر إلى قلب رفيقه وعقله من حيث لايحتسب ومن حيث لايحترس، لأنه الرفيق المأمون ! .. وحاشية الشر التي توسوس لكل سلطان حتى تتركه طاغية جباراً مفسداً في الأرض، مهلكاً للحرث والنسل! ... والنمام الواشي الذي يزين الكلام ويزحلقه، حتى يبدو كأنه الحق الذي لامرية فيه .. وبائع الشهوات الذي يتدسس من منافذ الغريزة في إغراء لا تدفعه إلا يقظة القلب وعون الله . وعشرات من الموسوسين الخناسين الذين ينصبون الأحابيل ويخفونها ويدخلون بها من منافذ القلوب الخفية التي يعرفونها أو يتحسسونها .. وهم شر من الجنة وأخفى منهم دبيباً»(١).

وقد بين القرآن أن للشياطين سلطاناً على البشر، ولكن ليس على جميع البشر، إن لهم سلطاناً على من ابتعد عن هدي الله، وعلى من اتخذهم أولياء أما المؤمنون فلا سلطان للشياطين عليهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ١٠٠]، وقال: ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٥] .

فالشيطان أثر بالغ في الوسوسة في جحود النعمة وكفرانها وسلطانه على غير المؤمنين العابدين الشاكرين، فالشاكرون حينما شكروا نعمة ربهم أخذوا حيطتهم من هذا الشيطان الماكر، قال تعالى عن الشيطان حينما طرده الله تعالى من الجنة: ﴿ قَالَ

---

(١) « في ظلال القرآن » (٦/٤٠١١).

﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، فقد بين إبليس أنه سيبذل كل ما في وسعه ليجعلهم غير شاكرين لنعمة ربهم، قال ابن عاشور: «﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ .. زيادة في بيان قوة إضلاله بحيث لايفلت من الوقوع في حبائله إلا القليل من الناس»[١]، وقال الشوكاني: «أي وعندما أفعل ذلك لاتجد أكثرهم شاكرين لتأثير وسوستي فيهم وإغوائي لهم ..»[٢].

وقال سيد قطب: « ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ .. ويجيء ذكر الشكر، تنسيقاً مع ما سبق في مطلع السورة: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ .. لبيان السبب في قلة الشكر؛ وكشف الدافع الحقيقي الخفي، من حيلولة إبليس دونه، وقعوده على الطريق إليه! ليستيقظ البشر للعدو الكامن الذي يدفعهم عن الهدى؛ وليأخذوا حذرهم حين يعرفون من أين هذه الآفة التي لاتجعل أكثرهم شاكرين»[٣].

ولهذا وصف الله المبذرين بأنهم إخوان الشياطين أي رفقاءهم وأصحابهم وأتباعهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧]، قال أبو السعود: «والمراد بالأخوة المماثلة التامة في كل ما لا خير فيه من صفات السوء التي من جملتها التبذير، أي كانوا بما فعلوا من التبذير أمثال الشياطين. أو الصداقة والملازمة، أي كانوا أصدقاءهم وأتباعهم ..»[٤]، وقال البيضاوي: «﴿كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أمثالهم في الشرارة، فإن التضييع والإتلاف شر، أو أصدقاءهم وأتباعهم لأنها يطيعونهم في الإسراف والصرف في المعاصي»[٥].

ثالثاً: النفس الإنسانية:

ومن أهم أسباب الجحود هو النفس الإنسانية وما تحمله من معاني ومايتنتج عنها

---

(١) « التحرير والتنوير » (٨/٥٠).
(٢) « فتح القدير » (٢/١٩٢).
(٣) « في ظلال القرآن » (٣/١٢٦٧).
(٤) « تفسير أبو السعود » (٥/ ١٦٨).
(٥) « تفسير البيضاوي » (٣/٢٠٠).

من سلوكيات. فالله تعالى خلق الإنسان وهيأ له طريقي الخير والشر فكان الإنسان في ذلك إما شاكراً وإما كفوراً، ومرد هذا الأمر هو نفس الإنسان وسلوكه، فالنفس هي التي تختار أحد الطريقين. والشيطان يدخل على الإنسان من هذه النفس وما حوته من شهوات .. لذا كان مرد الجحود وسببه الأول هو ذات الإنسان، ولذلك كان للشيطان سلطان له عليهم وذلك لأن نفس المؤمن طغى عليها الإيمان فلم يعد للشيطان عليها من سبيل.

ولذلك فإن الله تبارك وتعالى إذا أنعم على قوم بنعمة فإنه لايسلبهم هذه النعمة حتى يغيروا ما بأنفسهم فإذا بطروا وتجبروا وبغوا في الأرض فإنه يغير ما أنعم عليهم .. وإذا سلب الله قوما نعمة أنعمها عليهم فإن مرد ذلك إنما هو أنفسهم فالسبب لايعود إلى الله بل يعود لأنفسهم، يقول تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الأنفال: ٥٣]، يقول أبو السعود: «يبين الله تعالى أن سبب تغيير النعمة إنما هو من نفس البشر وبسبب ما تكسب أيديهم، حيث يقول تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾ [الأنفال: ٥١][(١)]

ويقول سيد قطب معلقاً على هذه الآية: «إنه من جانب يقرر عدل الله في معاملة العباد؛ فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا واياهم، ويبدلوا سلوكهم، ويقلبوا أوضاعهم، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختبار من النعمة التي لم يقدروها ولم يشكروها .. ومن الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق الإنساني أكبر تكريم حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجري عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله ويجعل التغيير القدري في حياة الناس مبنياً على التغيير الواقعي في قلوبهم وسلوكهم وعملهم وأوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم .. ومن الجانب الثالث: يلقي تبعة عظيمة - تقابل التكريم العظيم - على هذا الكائن، فهو يملك أن يستبقي نعمة الله عليه، ويملك أن يزاد عليها، إذا هو عرف فشكر، كما يملك أن يزيل هذه النعمة عنه إذا هو أنكر وبطر وانحرفت نواياه فانحرفت خطاه[(٢)].

(١) «تفسير أبي السعود» (٢٨/٤).

(٢) «في ظلال القرآن» (١٥٣٦/٣).

المبحث الثاني
عـلاج الجحـود

يكون علاج القلوب الغافلة عن الشكر أو الجاحدة له بمعالجة أسباب الجحود التي سبق بيانها، وقد يتطلب الأمر معالجة بعضها وقد يتطلب معالجة جميعها. وأول ما ينبغي النظر إليه هو المنعم وما أنعم به على العباد.. ثم هناك وسائل أشار إليها النبي ﷺ.

أولاً: تعميق الإيمان بالله تعالى والنظر في نعمته:

فالإيمان بالله وحده هو الذي يعصم النفس الإنسانية من جحود النعمة والغفلة عنها .. والإيمان وحده هو الذي يسد على الشيطان مداخله، حيث لا سلطان له على عباد الله المؤمنين .. والإيمان وحده هو الذي يجعل الإنسان يتحسس نعمة الله فتكون النعمة بالنسبة إليه هي الوسيلة التي تجعله دائم الصلة بالله تبارك وتعالى.

وكان دليل العناية في القرآن هو من أكثر الأدلة تفصيلاً فيه، حيث كثر في القرآن لفت الانتباه إلى المخلوقات وكيف سخرها الله للإنسان، وذلك أن مخلوقات الله تدل عليه تبارك وتعالى .. فنعم الله التي سخرها للإنسان هي من أكثر الأدلة التي تدل على وحدانيته سبحانه وتعالى وعنايته ورحمته بالإنسان .

فتعميق الإيمان بالله تعالى والنظر في نعمته من أهم ما يعالج جحود المرء وغفلته عن شكر النعمة .

ويكون تعميق الإيمان بالله تعالى بإدامة التفكير والنظر في أمر الخالق جل وعلا، في صفاته وفي أفعاله وفي مخلوقاته، حتى يصل المرء إلى مرتبة اطمئنان القلب، وحتى يحسب بقلبه وبلسانه وبجوارحه أن الله واحد أحد حي قادر على كل شيء ... وهذا الذي حدث لإبراهيم حينما طلب من الله ما يجعل قلبه يطمئن بأن الله يحيي ويميت... ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ

وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة ٢٦٠] .. لذلك حثنا القرآن كثيراً للنظر والتفكر في السماوات والأرض .

ويكون تعميق الإيمان بذكره تعالى باللسان والقلب، لذا بين القرآن أن ذكر الله يطمئن القلوب، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] .

يقول سيد قطب: «إن الإيمان الجاد المتمثل في العمل الصالح هو الذي يعصم النفس البشرية من اليأس الكافر في الشدة؛ كما يعصمها من البطر الفاجر في الرخاء. وهو الذي يقيم القلب البشرى على سواء في البأساء والنعماء، ويربطه في حاليه، فلا يتهاوى ويتهافت تحت مطارق البأساء ولاينتفخ ويتعالى عندما تغمره النعماء .. وكلا حالي المؤمن خير، وليس ذلك إلا للمؤمن كما يقول رسول الله ﷺ»[1].

ثانياً: النظر في أحوال المبتلين:

إن النظر في أحوال المبتلين بالمصائب والكوارث قد يعالج نفوساً لايعالجها النظر في النعماء .. وقد سلك القرآن طريقي الترغيب والترهيب في علاج معظم القضايا، فعرض الجنة وما فيها من نعيم بتفصيل شامل ودقيق .. وعرض النار ومافيها من عذاب شديد بتفصيل شامل أيضاً .. فبعض النفوس يعالجها الترغيب وبعض النفوس يعالجها الترهيب ، لذا كان النظر في أحوال المبتلين قد يعالج نفوساً جاحدة أو غافلة . وعندها تحس بنعمة الله عليها .. والإنسان بطبيعته يغفل عن شكر النعمة، فإذا شاهد من الأحوال ما لا يحب أن يكون فيه عاد إلى نعمة ربه وشكرها .. وقد لا يشعر الإنسان بقيمة النعمة حقاً إلا عندما تسلب منه أو من غيره، فالإنسان الذي يكون في حالة رخاء لا يشعر بقيمة نعم تحيط به إحاطة تامة فلا يشعر بالصحة ولا يشعر بالأمن ولا يشعر بالحرية ولا يشعر بالعقل .. فإذا أصيب في بدنه فتمنى أن يبذل كل ما في وسعه حتى يبرأ، وإذا تم سجنه فيشعر بنعمة الحرية ويتمنى أن يبذل كل شيء حتى

(١) « في ظلال القران » (١٨٦٠/٤).

يخرج من سجنه، وإذا أصيب بفقد عينيه فيبذل كل شيء في سبيل رد عينيه .. وهكذا، والعقل نعمة عظيمة ولكن متى يشعر المرء الغافل بهذه النعمة؟! فليجرب الإنسان وليدخل مصحة للأمراض العقلية، لعله يتمنى أن يؤخذ منه كل شيء ويبقى في عقله .. وعندها يحس الفقير المصاب بمصائب شتى أنه يملك من النعمة ما لا يساويه نعم الأرض جميعاً ....

فالنظر في أحوال المبتلين من أهم ما يعالج جحود النعمة والغفلة عنها. يقول الغزالي في الإحياء: «وأما القلوب البليدة التي لاتعد النعمة نعمة إلا إذا خصتها أو شعرت بالبلاء معها، فسبيله أن ينظر أبداً إلى من دونه، ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية إذ كان كل يوم يحضر دار المرضى والمقابر والمواضع التي تقام فيها الحدود، فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم، ثم يتأمل في صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الأمراض ويشكر الله تعالى، ويشاهد الجناة الذين يقتلون وتقطع أطرافهم ويعذبون بأنواع العذاب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنايات ومن تلك العقوبات، ويشكر الله على نعمة الأمن، ويحضر المقابر فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوماً واحداً.

أما من عصى الله تعالى فليتدارك وأما من أطاع فليزدد في طاعته .. فإذا شاهد المقابر وعلم أن أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقي لهم من العمر ما بقي له فيصرف بقية العمر إلى ما تشتهي أهل القبور العود لأجله ليكون ذلك معرفة لنعم الله تعالى في بقية العمر .. وإذا عرف تلك النعمة شكر، بأن يصرف العمر إلى ما خلق العمر لأجله، وهو التزود من الدنيا للآخرة، فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر. وقد كان الربيع بن خثيم مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريقة تأكيداً للمعرفة، فكان قد حفر في داره قبراً فكان يضع غلاً في عنقه وينام في لحده. ثم يقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾ ثم يقوم ويقول: يا ربيع! قد أعطيت ما سألت فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد»[1].

(١) «إحياء علوم الدين» (٤ / ١٢٧).

ثالثاً: النظر إلى من دونه في الدنيا:

ومن علاج الجحود أو الغفلة عن الشكر أن ينظر المرء إلى من دونه في الدنيا وينظر في أمر الدين إلى من هو فوقه حتى يتمثل بهم، وخير مثل وقدوة للعباد هو رسول الله ﷺ الذي كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه وقد غفر الله له، فيحس بنفسه وقلة شكره. ثم ينظر في أحوال الصحابة التابعين والصالحين ..

وكذلك ينظر في أمر الدنيا إلى من هو دونه، فإذا كان فقيراً فلا يشكو ولا يتذمر بل ينظر لمن هو أشد منه فقراً وإلى من هو أكثر منه بلاء، حتى يتحسس أن ما به من نعم إنما هي نعم عظيمة، فإن أفقر فقير قد يملك من النعم الخاصة التي لو بيعت لمحتاجيها لكان يملك من الملك مالا يملكه أحد من البشر، وليتفكر في نعمة بصره وسمعه وعقله وقلبه .. وليتفكر في نعمة الماء الذي يشربه .. إلى غير ذلك من النعم التي لاتعد ولا تحصى.

فعلاج القلوب من جحود النعمة والغفلة عنها أن ينظر إلى من هو دونه في النعم فيجد نفسه في نعم لا تعد ولا تحصى. روى الترمذي عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خلصتان من كانتا فيه كتبه الله شاكراً صابراً، ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله شاكراً ولا صابراً: من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به، ونظر في دنياه إلى من هو دونه، فحمد على ما فضّله به عليه كتبه الله شاكراً صابراً. ومن نظر في دينه إلى من هو دونه ونظر في دنياه إلى من هو فوقه فأسف على ما فاته منه لم يكتبه الله شاكراً ولا صابراً**»[١]، وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم**»[٢]، وفي رواية للبخاري:

---

(١) «الترمذي»، كتاب صفة القيامة (٢٥١٣)، باب (٥٨)، تحقيق إبراهيم عوض، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «كتاب الشكر»، إلا أن الأرناؤوط قال في تخريجه: في سنده المثنى بن الصباح وهو ضعيف («كتاب الشكر»، رقم (٢٠٠)).

(٢) رواه مسلم (٢٩٦٣)، ورواه أحمد (٤٨٢/٢)، والترمذي في «صفة القيامة»، رقم (٢٥١٣).

«إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه»[١] .

رابعا: الحذر من كيد الشيطان:

ومن علاج الجحود أو الغفلة: اتخاذ الشيطان عدواً والحذر من كيده، وذلك أن للشيطان مداخل كثيرة إلى الهوى والشهوات، فإذا قام المرء بمعالجة مداخل الشيطان فيكون قد أمن مكره.

وإن أهم ما يطرد الشطان ذكر الله، والاستعاذة بالله منه، وقراءة القرآن. فقد روى سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ **الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ** ﴾، قال الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس»[٢] .

وقد أمر الله ورسوله في مواطن كثيرة بالاستعاذة من الشيطان . قال ابن كثير: «ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أن يضرنى فى ديني أو دنياي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به أو يحثني على فعل ما نهيت عنه. فإن الشيطان لايكفه عن الإنسان إلا الله. ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه ليرده طبعه عما فيه من الأذى. وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل، لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه. وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن.. قوله في الأعراف: ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [الأعراف:١٩٩] ، فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر، ثم قال: ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون: ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ** ﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٧].»[٣] .

أما قراءة القرآن فإنها أكثر ما تطرد الشيطان، فقد روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان، حتى نزلت

(١) «مسلم» (٢٩٦٣) ، كتاب الزهد (٨).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٥٨١/٤).
(٣) «تفسير ابن كثير» (١٥/١).

المعوذتان، فلما نزلنا أخذ بهما وترك ما سواهما»(١) وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال: إني محتاج وعلى عيال وبي حاجة شديدة، فخليت عنه فأصبحت، فقال رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة! ما فعل أسيرك البارحة؟**»، قلت: يا رسول الله شكا حاجة وعيالا، فرحمته، فخليت سبيله. فقال: «**أما إنه قد كذبك وسيعود**» فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ فرصدته، فجاء يحثو الطعام، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال: دعني فإني محتاج وعلى عيال، لا أعود، فرحمته فخليت سبيله، فأصبحت، فقال لى رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة! ما فعل أسيرك البارحة؟**»، فقلت: يا رسول الله! شكا حاجة وعيالاً فرحمته فخليت سبيله، فقال: «**إنه قد كذبك وسيعود**»، فرصدته ثالثة، فجاء يحثو الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، وهذه آخر ثلاث مرات أنك تزعم لا تعود، فقال: دعني فإني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هن؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آيه الكرسي، فإنه لا يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت، فقال لى رسول الله ﷺ: «**ما فعل أسيرك البارحة؟**»، قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية: ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ وقال لي لا يزال عليك من الله حافظ، ولن يقربك شيطان حتى تصبح فقال النبي ﷺ: «**أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث يا أبا هريرة؟**» قلت: لا، قال: «**ذاك الشيطان**»(٢).

فالحذر من كيد الشيطان من أهم ما يعالج جحود النعمة، لأثره الخطير على الإنسان في ذلك. ويتأكد الحذر منه عند حدوث أي نعمة .. أو عندما يشعر الإنسان بالغفلة فليعلم أنه من كيد الشيطان.

---

(١) « الترمذي » (٢٠٥٩)، وقال عنه حديث حسن.
(٢) رواه البخاري (٢٣١١)، كتاب الوكالة باب (١٠).

خامساً: معرفة كيفية الشكر وآثاره:

وإذا عرف المرء كيفية شكر النعمة، وإذا عرف أثر النعمة وأنها تزيد بالشكر وأن الشكر هو الذي يحافظ على النعمة . فيكون ذلك باعثاً له على الشكر ومبعداً له عن جحود النعمة والغفلة عنها .

سادساً: معرفة آثار الجحود:

وإذا عرف أثر الجحود، وأن النعمة إذا لم تشكر فإنها تزول فيكون ذلك من معالجة القلوب الجاحدة والغافلة، يقول الغزالي: «ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر: أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد، ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول: «عليكم بملازمة الشكر على النعم، فقلّ نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم . وقال بعض السلف: النعم وحشية فقيدوها بالشكر ..»[1] .



(١) «إحياء علوم الدين» (١٢٧/٤).

الفصل الثالث
آثـــار الجحـــود

- المبحث الأول: تبديل النعمة وذهابها
- المبحث الثاني: إفاضة النعم استدراجاً
- المبحث الثالث: العذاب الشديد في الدنيا والآخرة

المبحث الأول
تبديل النعمة وذهابها

فإذا جحد المرء نعمة ربه تبارك وتعالى، فإن الله يسلب منه هذه النعمة ويبدله شراً من ذلك .. وليس بالضروري أن يسلب الله النعمة ممن جحدها، ولكن قد يسلبها منه وقد يزيد له في النعمة استدراجاً له حتى يزداد إثمه، وذلك لحكمة يريدها الله تبارك وتعالى .. وقد تجد كثيراً من الجاحدين يولدون في رخاء وملك عظيم ويموتون في ذلك ولا تسلب منهم تلك النعم .. فمن جحد نعمة ربه فقد عرضها للزوال. وقد ذكر الله تعالى بعض الأمم الذين جحدوا نعمته فسلب منهم تلك النعمة، فقوم سبأ حينما أعرضوا عن شكر النعمة أبدل الله نعمتهم شراً، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ: ١٦]، قال البيضاوي: «﴿ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ ثمر بشع فإن الخمط كل نبت أخذ طعماً من مرارة، وقيل الأراك أو كل شجر لا شوك له .. ﴿ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ .. الأثل هو الطرفاء ولا ثمر له .. ووصف السدر بالقلة فإن جناه وهو النبق مما يطيب أكله ..»[1].

وضرب الله مثلاً في قرية كانت آمنة مطمئنة يصل رزقها إليها من كل مكان ولكن هذه القرية كفرت نعمة ربها، فأبدل الله نعمته بالجوع والخوف، وقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل:

---

(١) «تفسير البيضاوي» (١٧٣/٤).

١١٢]، قال أبو السعود: «﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ شبه الجوع والخوف وضررهما المحيط بهم باللباس الغاشي للابس، فاستعير له اسمه وأوقع عليه الإذاقة المستعارة لمطلق الإيصال المنبئة عن شدة الإصابة ..»[١].

فإذا زالت نعمة العبد الجاحد فإن ذلك عقوبة من الله تعالى، لذلك كان النبي ﷺ يستعيذ من زوال النعمة، قال رسول الله ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجاءة نقمتك وجميع سخطك**»[٢].

وقد يكون تبديل النعمة ليس بذهاب عينها إنما يكون بسحق آثارها في الشعور، فلا يحس بأنها نعمة ولو علم بذلك وعلم بفوائدها، وهذا ما نلاحظه لدى الأمم الكافرة الغربية حتى نرى إن أكثر حوادث الانتحار في البلاد التي يكثر فيها الرفاه والرخاء والدخل المرتفع .

وقد يكون تبديل النعمة بأن يصبح عبداً لها، فتكون همه في الحياة الدنيا والله تبارك وتعالى سخر هذه المخلوقات للإنسان، فبدلاً من أن تكون مسخرة له فإنه يكون عبداً لها. لذلك ذم النبي ﷺ من أصبح المال والملبس همه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة؛ إن أعطي رضي وإن لم يعط لم يرض**»[٣]، والقطيفة: الثوب الذي له خمل، والخميصة: الكساء المربع .. ومعنى ذلك: أي هلك طالبها الحريص على جمعها القائم على حفظها، فكان لذلك عبداً لها[٤].



(١) « تفسير أبو السعود » (٥/١٤٥). (٢) « مسلم » (٢٧٣٩) ،كتاب الذكر (٩٦).
(٣) رواه البخاري (٦٤٣٥) ، كتاب الرقاق باب (٨١).
(٤) « رياض الصالحين » (ص٢٤١)، تحقيق الأرناؤوط .

المبحث الثاني
إفاضة النعم استدراجاً

وقد يكون من أثر الجحود إفاضة النعمة عليهم بدلاً من أن يسلبهم إياها وهذه الإفاضة للنعم ابتلاء من الله تعالى حتى يزدادوا في غيهم .

قال تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: ٤٤]، والاستدراج هو أخذهم بالتدريج منزلة بعد منزلة حتى يصلوا إلى حالة يكثر فيها فسوقهم وكفرهم فيأخذهم الله تعالى، قال الألوسي: «﴿ سنستدرجهم ﴾ .. أي سنستنزلهم إلى العذاب درجة فدرجة بالإهمال وإدامة الصحة وازدياد النعمة ﴿ مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أنه استدرج، بل يزعمون أن ذلك إيثار لهم تفضل على المؤمنين مع أنه سبب لهلاكهم»[١]، وقال الشوكاني: «فالاستدراج أن يخطو درجة بعد درجة إلى المقصود .. والمعنى: سنستدنيهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم، وذلك بإدرار النعم عليهم وإنسائهم شكرها، فينهمكون في غواية ويتنكبون طرق الهداية لاغترارهم بذلك ..»[٢].

وزيادة في تدبير الله لهم واستدراجهم فإنه تعالى يطيل لهم مدة الاستدراج كما قال تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [القلم: ٤٥]، والإملاء هو الإمهال وإطالة المدة، قال الألوسي: «﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ وأمهلهم ليزدادوا إثماً، وهم يزعمون أن ذلك لإرادة الخير بهم»[٣]، وقال الشوكاني: «﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ .. أي أطيل لهم المدة وأمهلهم وأؤخر عنهم العقوبة»[٤].

فالاستدراج تدبير الله تعالى للجاحدين، أخرج ابن أبي الدنيا عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيت الله عز وجل يعطي العباد ما يشاؤون على معاصيهم إياه فذلك استدراج لهم منه»[٥].

---

(١) «روح المعاني» (٣٦/٢٩).
(٢) «فتح القدير» (٢٧١/٢).
(٣) «روح المعاني» (٣٦/٢٩).
(٤) «فتح القدير» (٢٧١/٢).
(٥) «كتاب الشكر»، رقم (٣٢)، قال الأرناؤوط في تخريجه: حديث صحيح بالمتابعة، واخرجه الخرائطي في فضيلة الشكر»، بلفظ «إذا رأيت الله يعطي العبد كل ما أحب وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك استدراج منه له»، رقم (٧٠) .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن سفيان في قوله: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: ٤٤]، قال: نسبغ عليهم النعم ونمنعهم الشكر. فقال غير سفيان: كلما أحدثوا ذنبًا أحدثت لهم نعمة[١]، وأخرج ابن أبي الدنيا أيضاً عن ثابت البناني أنه سئل عن الاستدراج فقال: ذاك مكر الله بالعباد المضيعين[٢].

ورغم أن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة فإنه تعالى أفاض النعم على عباده المؤمنين الشاكرين رحمة بهم حتى تكون هذه النعم موصلة لهم إلى ما يحبه الله ويرضاه .. ولكنه منع بعض المؤمنين لحكمة .. ولكن النعيم الموجود في الدنيا لا يساوي شيئاً إذا ما قيس بنعيم الآخرة الذي أعده الله للمؤمنين في الجنة. فهو تعالى أعد لهم ما هو أفضل بكثير من نعيم الدنيا .. ولولا فتنة المؤمنين بالدنيا لجعل الله تبارك وتعالى من علامة الكافرين النعيم العظيم في الدنيا، ولكنه تعالى رحمة بالمؤمنين منحهم شيئاً من نعيم الدنيا، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٥]، قال ابن كثير: «أي لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن أعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه فيجتمعوا على الكفر لأجل المال ...»[٣].

ويذكر الحق جل وعلا عن أقوام أرسل إليهم رسلاً وذكرهم الله تعالى بما يكون من أمرهم وتدبير الله لهم .. ولكنهم نسوا ما ذكروا به .. وعندها أفاض الله عليهم كل أنواع النعم وأعطاهم من الأرزاق كل ما يحتاجون .. ومن ثم أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣].

فهذا هو مكر الله وتدبيره للناس الجاحدين والمضيعين، إن تدبير الله لهم صعب

---

(١) «كتاب الشكر» رقم (١١٤).
(٢) «كتاب الشكر»، رقم (١١٥).
(٣) «تفسير ابن كثير» (١٢٩/٤).

وشاق، فليحذر العباد من هذا التدبير، قال ابن كثير: «﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم، عياذاً بالله من مكره»[1].

ويحتمل أن يراد بقوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ ما يعم الأرزاق وغيرها من النعم من الأموال والأولاد والصحة والأمن والرخاء والسلطان .. يقول سيد قطب: «إن الرخاء ابتلاء آخر كابتلاء الشدة. وهو مرتبة أشد وأعلى من مرتبة الشدة! والله يبتلي بالرخاء كما يبتلي بالشدة. يبتلي الطائعين والعصاة سواء. بهذه وبذاك سواء .. والمؤمن يبتلى بالشدة فيصبر، ويبتلي بالرخاء فيشكر. ويكون أمره كله خيراً .. فأما هذه الأمم التي كذبت بالرسل، والتي يقص الله من أنبائها هنا . فإنهم لما نسوا ما ذكروا به، وعلم الله سبحانه أنهم مهلكون، وابتلاهم بالبأساء والضراء فلم يتضرعوا .. فأما هؤلاء فقد فتح عليهم أبواب كل شيء للاستدراج بعد البلاء ... والتعبير القرآني ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ .. يصور الأرزاق والخيرات، والمتاع والسلطان .. متدفقه كالسيول بلا حواجز ولا قيود! وهي مقبلة عليهم بلا عناء ولا كد ولا حتى محاولة! ... ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ وغمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة، واستغرقوا في المتاع بها والفرح لها – بلا شكر ولا ذكر – وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعم ومن خشيته وتقواه. وانحصرت اهتماماتهم في لذائذ المتاع واستسلموا للشهوات، وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة كما هي عادة المستغرقين في اللهو والمتاع. وتبع ذلك فساد النظم والأوضاع، بعد فساد القلوب والأخلاق، وجر هذا وذلك إلى نتائجه الطبيعية من فساد الحياة كلها، عندئذ جاء موعد السنة التي لاتتبدل: ﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾»[2].

وهذه السنة – سنة الله في إفاضة النعم للجاحدين – ملحوظة في جميع الأمم الجاحدة قديماً وحديثاً، قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ

---

(١) المصدر السابق (٢/١٢٦) .

(٢) « في ظلال القرآن » (٢/١٠٩٠).

﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ [الدخان: ٢٧]، وقال تعالى عن كفار قريش: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾ [المزمل: ١١]، قال البيضاوي: «﴿أُولِي النَّعْمَةِ﴾ أرباب التنعم، يريد صناديد قريش»[١]، وهذا الذي نلاحظه في العصر الحاضر في الأمم الكافرة، حيث آتاهم الله كل شيء، يقول سيد قطب: «ولقد كنت – في أثناء وجودي في الولايات المتحدة الأمريكية – أرى رأي العين مصداق قول الله سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ .. فإن المشهد الذي ترسمه هذه الآية .. مشهد تدفق كل شيء من الخيرات والأرزاق بلا حساب! .. لايكاد يتمثل في الأرض كلها كما يتمثل هناك! وكنت أرى غرور القوم بهذا الرخاء الذي هم فيه، وشعورهم بأنه وقف على «الرجل الأبيض» وطريقة تعاملهم مع الملونين في عجرفة مرذولة، وفي وحشية كذلك بشعة! وفي صلف على أهل الأرض كلهم لايقاس إليه صلف النازية الذي شهر به اليهود في الأرض كلها حتى صار علما على الصلف العنصرى. بينما الأمريكى الأبيض يزاوله تجاه الملونين في صورة أشد وأقسى! وبخاصة إذا كان هؤلاء الملونون من المسلمين .. كنت أرى هذا كله فأذكر هذه الآية، وأتوقع سنة الله، وأكاد أرى خطواتها وهي تدب إلى الغافلين: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾»[٢].

وليست الشعوب الأوربية أقل رخاء من الشعب الأمريكي، فقد آتاهم الله كل شيء حقا .. ولكنه مكر الله وتدبيره لهم، وسوف يأخذهم الله بغتة كما بين سبحانه في كتابه.



(١) «تفسير البيضاوي» (١٥٧/٥).

(٢) «في ظلال القرآن» (١٠٩١/٢).

المبحث الثالث
العذاب الشديد في الدنيا والآخرة

والعذاب قد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة، أما عذاب الدنيا فقد يكون بالإهلاك أو الإغراق أو الخسف أو ما شاكل ذلك .. كل ذلك مع عذاب الآخرة الذي توعد الله عليه.

أولاً: عذاب الدنيا:

فهذا قارون يعطيه الله من الأموال حتى إن العصبة صاحبة القوة لتعجز عن حمل مفاتيح خزائنه، ولكنه يزداد بطراً وعجباً ويبقى حتى يأتي أمر الله ويخسف الله به الأرض، قال تعالى: ﴿ **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ** ﴾ [القصص: ٨١].

وهذا فرعون وقومه يرسل الله إليهم رسولاً يهديهم إلى الحق، فبدلاً من أن يشكروا نعمة ربهم تمادوا في التكبر والتجبر حتى أراد فرعون أن يقتل موسى ويلحق به .. وكان الله قد منحهم الجنات والزروع والنعمة العظيمة، قال تعالى: ﴿ **وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ** ﴾ [الدخان: ٢٧].

وأكثر الأمم السابقة التي طغت وتكبرت وتجبرت أخذهم الله بغتته من حيث لايشعرون، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ** ﴾ [الأنعام: ٤٤]،

(١) «المفردات»، للراغب، مادة (بلس).

ومعنى بغتة: فجأة، ومبلسون: متحسرون أشد الحسرة، قال الراغب: «الإبلاس: الحزن المعترض من شدة البأس»[١]، وقال أبو السعود «﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ أي نزل بهم عذابنا فجأة ليكون أشد عليهم وقعاً وأفظع هولاً ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ متحسرون غاية الحسرة آيسون من كل الخير .. وفي الجملة الاسمية دلالة على استقرارهم على تلك الحالة الفظيعة»[٢].

ثم قال تعالى عن إهلاكهم مبينا أن الهلاك كان لجميعهم، أي لم يبق منهم أحد: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]، يقول سيد قطب: «ودابر القوم هو آخر واحد منهم، يَدْبرهم أي يجيء على أدبارهم فإذا قطع هذا فأوائلهم أولى!»[٣].

هذه هي سنة الله في أخذ الأقوام الظالمة والجاحدة إنه يعطيهم ويمدهم حتى يفرحوا ويأمنوا ثم يأخذهم بغتة، لقد أخذ الله قوم نوح وقوم صالح وقوم لوط، كما أخذ الفراعنة والإغريق والرومان وغيرهم بهذه السنة، ووراء ازدهار حضارتهم ثم تدميرها ذلك السر المغيب من قدر الله؛ وهذا القدر الظاهر من سنته وهذا التفسير الرباني لهذا الواقع التاريخي المعروف. ولقد كان لهذه الأمم من الحضارة وكان لها من التمكين في الأرض وكان لها من الرخاء والمتاع ما لا يقل - إن لم يزد في بعض نواحيه - عما تتمتع به اليوم أمم مستغرقة في السلطان والرخاء والمتاع؛ مخدوعة بما هي فيه خادعة لغيرها ممن لايعرفون سنة الله في الشدة والرخاء. هذه الأمم لا تدرك أن هناك سنة ولا تشعر أن الله يستدرجها وفق هذه السنة. والذين يدورون في فلكها يبهرهم اللألاء الخاطف، ويتعاظمهم الرخاء والسلطان، ويخدعهم إملاء الله لهذه الأمم»[٤].

وإذا كانت سنة الله في إهلاك الأمم السابقة واستئصالها إذا هي بطرت ولم تشكر فإن عذاب الاستئصال قد رفع بعد بعثة محمد ﷺ ولكن هناك ألوان كثيرة جداً من العذاب

(١) المفردات، مادة (بلس).
(٢) «تفسير أبي السعود» (٣ / ١٣٤).
(٣) «في ظلال القرآن» (٢/ ١٠٩٠).
(٤) «في ظلال القرآن» (١٠٩١).

في هذا العصر، فهذا العذاب النفسي وهذه الأمراض المسلطة من الله تعالى والتي لايعرفون دواءها .. وإذا عرفوا دواء لمرض فتظهر أمراض وأمراض لايعرفون لها دواء.

وهذه حوادث الانتحار .. هذه الحضارة الغربية وقد أصبح يعرفها كل من له أدنى معرفة ماذا تعانيه من شقاء وبلاء في كل أمر من أمورها. يقال: إن بلداً أوروبياً، كالسويد فيها أعلى دخل مرتفع وأفراده يحصلون على ما يريدون من أمور الرفاهية، ومع ذلك يعيش أكثرهم في شقاء، حيث تبلغ الانتحارات عندهم أكثر من أي بلد آخر .. وهذه أوربا وأمريكا رغم توفر كل ما لديها من أساليب الرفاهية فتجد الكثيرين منهم يتناولون الخمرة حتى يهربوا من شقاء هذه الدنيا وبلائها .. إنه الشقاء حقاً وإنه البلاء حقاً، يقول سيد قطب: «وإذا كان الله قد رفع عذاب الاستئصال بعد بعثة رسول الله ﷺ فهناك ألوان من العذاب باقية. والبشرية – بخاصة الأمم التي فتحت عليها أبواب كل شيء – تذوق منها الكثير . على الرغم من هذا النتاج الوفير، ومن هذا الرزق الغزير.. إن العذاب النفسي، والشقاء الروحي، والشذوذ الجنسي، والإغلال الخلقي .. الذي تقاسي منه هذه الأمم اليوم، ليكاد يطغى على الإنتاج والرخاء والمتاع؛ وليكاد يصبغ الحياة كلها بالنكد والقلق والشقاء! ذلك إلى جانب الطلائع التي تشير إليها القضايا الأخلاقية السياسية، التي تباع فيها أسرار الدولة، وتقع فيها الخيانة للأمة، في مقابل شهوة أو شذوذ..»[1]، ويقول أيضاً: «وما بدلت البشرية هذه النعمة إلا أصابها العقاب الشديد في حياتها على الأرض قبل عقاب الآخرة. وها هي ذي البشرية المنكودة الطالع في أنحاء الأرض كلها تعاني العقاب الشديد، وتجد الشقوة النكدة، ويطاردها وتطارده بالأشباح المطلقة، وبالخواء القاتل الذي يحاول المتحضرون أن يملأوه تارة بالمسكرات والمخدرات، وتارة بالحركات الحائرة التي يخيل إليك أنهم هاربون تطاردهم الأشباح!»[1].

ثانياً: عذاب الآخرة:

ومهما كان عذاب الدنيا فإن عذاب الآخرة أشد وأبقى، وعندها يكون عذاب

(١) «في ظلال القرآن» (١٠٩١/٢).

الدنيا سواء كان بالخسف أو الإهلاك أو تبديل النعمة أو الشقاء النفسي والروحي يكون سهلاً جداً في مقابلة ذلك العقاب الشديد .

ويكفي عقابهم في أن الله يوم القيامة يهملهم ولا ينظر إليهم في ذلك الموقف العصيب الشديد، كما قال رسول الله ﷺ: «... **إن لله تبارك وتعالى عباداً لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم**» قيل له: من أولئك يا رسول الله؟، قال: «**مُتَبرٌّ من والديه راغب عنهما، ومتبرٌّ من ولده، ورجل أنعم عليه قوم فكفر نعمتهم وتبرأ منهم**»(٢)، وما ذكر في الحديث إنما هو كفران نعمة العباد، فما بالك بكفران نعمة الله عز وجل؟

ويشير القرآن إلى ما ينتظر الجاحدين. من عقاب شديد في ذلك اليوم، قال تعالى: ﴿**سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ [البقرة: ٢١١]، أي فإن الله سيعاقبه أشد العقوبة لأنه شديد العقاب. قال أبو السعود: «﴿**فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ تعليل للجواب، كأنه قيل: ومن يبدل نعمة الله عاقبه أشد عقوبة فإنه شديد العقاب..»(٣)، صحيح أن القرآن لم يذكر بالتفصيل ماذا سيكون عقاب الجاحدين وتم الاكتفاء بالإشارة إلى شدة العقاب، ولكن يمكن أن نتصور شدة العقاب إذا عرفنا أن غمسة واحدة في جهنم كافية لأن تنسيه نعيم الدنيا مهما كان ذلك النعيم، روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم! هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يارب. ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة؛ فيصبغ صبغة في الجنة؛ فيقال له: يا ابن آدم؟ هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟**

---

(١) «في ظلال القرآن» (١/٢١٣).

(٢) رواه أحمد (٣/٤٤٠)، وأخرجه الخرائطي بلفظ: «من العباد لايكلمهم الله يوم القيامة». قيل: من أولئك؟ قال: «المتبرىء من والديه رغبة عنهما، والمتبرىء من ولده، ورجل أنعم عليه قوم فكفر نعمتهم وتبرأ منهم». «فضيلة الشكر»، رقم (١٠٢).

(٣) «تفسير أبي السعود» (١/٢١٣).

فيقول: **لا والله ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط**»[١]، فإذا كانت غمسة واحدة في جهنم تفعل به هكذا، فكيف بالعقاب الشديد؟ - أعاذنا الله منه -.

ويشير القرآن إلى بعض من عذاب الجاحدين للنعمة المتنعمين بها، حيث يقول الله تعالى: ﴿**وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا**﴾ [المزمل: ١٣]، فقد أشار الحق إلى مجمل العذاب وما يلاقيه الجاحدون، فبين أن لهم في الآخرة الأنكال وهي القيود، والجحيم وهي النار المتقدة، والطعام ذا الغصة الذي يمزق حلوقهم، والعذاب الأليم، يقول سيد قطب: «وخل بيني وبين المكذبين، فأنا كفيل بهم .. كلمة يقولها الجبار القهار القوي المتين .. إنها القاصمة المزلزلة المذهلة حين يخلو الجبار إلى هذه الخلائق الهينة المضعوفة .. ﴿**إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا**﴾ ... والأنكال - هي القيود - والجحيم والطعام ذو الغصة الذي يمزق الحلوق والعذاب الأليم .. كلها جزاء مناسب ﴿**أُولِي النَّعْمَةِ**﴾! الذين لم يرعوا النعمة، ولم يشكروا المنعم ..»[٢].

ولابد من وقفة عند كل لون من ألوان العذاب الذي تهددهم الله به.

في البداية تهديد شديد من الله تعالى القوي الجبار العزيز ﴿**وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ**﴾ أي اتركني وإياهم واترك أمرهم إليَّ، فقد أعددت لهم من العذاب ما تقشعر له الأبدان. ﴿**وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً**﴾ أي مهلهم زمانًا قليلاً فإنهم سيلاقون ما أعد لهم والذي سيأتي بيانه.

﴿**إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً**﴾ والأنكال هي القيود الثقيلة، قال أبو السعود: «﴿**أَنكَالاً**﴾ جمع نكل وهو القيد الثقيل[٣]، وقال الراغب في المفردات: «..ونكلته قيدته، والنكل قيد الدابة وحديدة اللجام لكونهما مانعين والجمع الأنكال»[٤]، وقال الألوسي: «﴿**أَنكَالاً**﴾ جمع نكل - بكسر النون وفتحها - وهو القيد الثقيل وقيل: الشديد»[٥].

---

(١) رواه مسلم (٢٨٠٧).

(٢) « في ظلال القرآن » (٣٧٤٧/٦).

(٣) « تفسير أبي السعود » (١٥/٩).

(٤) « المفردات »، مادة (نكل).

(٥) «روح المعاني» (١٠٧/٢٩).

وقد وردت آيات أخرى في بيان هذه القيود وأنها تكون في أعناقهم، قال تعالى: ﴿ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ [الرعد: ٥]، وقال: ﴿ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [سبأ: ٣٣]، وقال: ﴿ إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧٣]، وقال: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيرًا ﴾ [الإنسان: ٤]، فبالسلاسل يسحبون وبالأغلال يقيدون ثم يلقون في النار.

ثم قال تعالى: ﴿ وَجَحِيمًا ﴾ وهي النار الشديدة الاتقاد، وهي جهنم، قال الراغب: «الجحمة شدة تأجج النار ومنه الجحيم»[(١)]، وقال الألوسي: «ناراً شديدة الإيقاد»[(٢)]، وهذه النار تشوي الجلود حتى إذا كادت أن تذوب بدلهم الله غيرها ليذوقوا العذاب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦].

ثم قال تعالى: ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ﴾، قال الألوسي: «ينشب في الحلوق ولا يكاد يساغ كالضريع والزقوم، وعن ابن عباس: شوك من نار يعترض في حلوقهم لايخرج ولاينزل»[(٣)]، ولعل المراد بذلك هو طعام أهل جهنم وهو ما يأكلونه من شجرة الزقوم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴾ [الدخان: ٤٦].

قال أبو السعود: «والزقوم اسم شجرة صغيرة الورق وفرة مرة كريهة الرائحة تكون في تهامة سميت به الشجرة الموصوفة»[(٤)]، وقد شبهت هذه الشجرة ﴿ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴾ والمهل هو عكر الزيت[(٥)]، أي يكون حاراً شديد الحرارة لذلك قال عنه: ﴿ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴾. وقد وصفت شجرة الزقوم بأنها تخرج في وسط الجحيم، وأن ما تحمله من ثمر هو في غاية القبح والكراهة فشبهه

---

(١) «المفردات». مادة (جحم).
(٢) «روح المعاني» (١٠٧/٢٩).
(٣) «روح المعاني» (١٠٧/٢٩).
(٤) «تفسير أبي السعود» (١٩٣/٧).
(٥) روح المعاني» (١٣٣/٢٥).

كأنه رؤوس الشياطين، قال تعالى: ﴿ **إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ** ﴾ [الصافات: ٦٧]، فإنهم يأكلون منها حتى تمتلأ بها بطونهم ويشربون بعدها من الحميم ويزيد ذلك من حر جهنم .. وهذا الطعام لايفيدهم في شيء فلا يشبعهم بل يزيد من جوعهم، ويشربون ماء حاراً يزيد من عطشهم، قال تعالى: ﴿ **لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ** ﴾ [الغاشية: ٧].

ثم قال تعالى: ﴿ **وَعَذَابًا أَلِيمًا** ﴾، وهذا إضافة إلى ماتقدم بيانه، قال الألوسي: «ونوعاً آخر من العذاب مؤلماً لا يقادر قدره، ولايعرف كنهه إلا الله عز وجل، كما يشعر بذلك المقابلة والتنكير»[١].

كان هذا بعضًا مما يلاقيه الجاحدون يوم القيامة من عذاب شديد، وهذا يتناسب مع تنعمهم في الدنيا وجحودهم للنعمة التي لم يراعوا حقها بالشكر.



(١) «روح المعاني» (١٠٧/٢٩).



الفصل الرابع
صور من جحود الجاحدين

- المبحث الأول: بنو إسرائيل
- المبحث الثاني: قوم سبأ
- المبحث الثالث: قريش
- المبحث الرابع: قارون

المبحث الأول
بنو إسرائيل

فبنو إسرائيل أعطاهم الله من النعم الكثير و الكثير، ولهذا نجده يذكرهم بنعمه عليهم قال تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٠-٤٧]، كما ذكرهم نبيهم موسى بذلك، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٠]، وقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٦].

لكن بني إسرائيل لم يستجيبوا لتلك النداءات واستمروا في طغيانهم وجحودهم وبطرهم وكفرانهم للنعم كما هو ديدنهم .

أولاً: نعم الله على بني إسرائيل

ومن جملة النعم التي ذكرها القرآن وهي:

١- تفضيلهم على العالمين:

كما قال تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٤٧]، وفي معنى تفضيلهم قال بعض المفسرين: إن المراد به تفضيل آبائهم قبل التبديل والتحريف وذلك الذين كانوا في زمن موسى عليه الصلاة والسلام قال أبو السعود: «﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ ﴾ .. أي فضلت آباءكم ﴿ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أي عالمي زمانهم بما منحتهم من العلم والإيمان والعمل الصالح وجعلتهم

أنبياء وملوكاً مقسطين، وهم آباؤهم الذين كانوا في عصر موسى عليه السلام وبعده قبل أن يغيروا»(١)، وقال الألوسي: «والكلام على حذف مضاف، أي فضلت آباءكم، وهم الذين كانوا قبل التغيير، أو باعتبار أن نعمة الآباء نعمة عليهم»(٢)، وقال سيد قطب: «وتفضيل بني إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختبارهم، فأما بعدما عتوا عن أمر ربهم وعصوا أنبياءهم وجحدوا نعمة الله عليهم، وتخلوا عن التزامهم وعهدهم، فقد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلة والمسكنة، وقضى عليهم بالتشريد وحق عليهم الوعيد»(٣).

ويحتمل أن يكون تفضيلهم بما آتاهم من النعم التي قال عنها: ﴿ وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٠]، قال الألوسي: «من فلق البحر، وإغراق العدو، وتظليل الغمام، وانفجار الحجر، وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك مما آتاهم الله تعالى من الأمور المخصوصة»(٤).

٢- جعل فيهم أنبياء:

فقد كثر فيهم الأنبياء، فكان كلما هلك فيهم نبي بعث فيهم نبي آخر يدعوهم إلى الإيمان والاستقامة، كما قال تعالى عن بعثه فيهم موسى عليه السلام: ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ ﴾ [المائدة: ٢٠]، قال ابن كثير: «أي كلما هلك نبي قام فيكم نبي من لدن أبيكم إبراهيم إلى من بعده، وكذلك كانوا لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله ويحذرون نعمته حتى ختموا بعيسى بن مريم عليه السلام»(٥)، وهذه نعمة عظيمة، إلا أنهم بدلاً من شكر هذه النعمة كانوا يقتلون الأنبياء كما قتلوا يحيى وغيره وكما أرادوا قتل عيسى ..

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٩٩/١).
(٢) «روح المعاني» (٢٥٠/١).
(٣) «في ظلال القرآن» (٩٦/١).
(٤) «روح المعاني» (١٠٥/٦).
(٥) «تفسير ابن كثير» (٣٥/٢).

٣- جعلهم الله ملوكاً:

قال تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ [المائدة: ٢٠]، فقد كثر فيهم الملوك كما كثر فيهم الأنبياء، قال أبو السعود: «أي جعل فيكم أو منكم ملوكاً كثيرة، فإنه قد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الأنبياء. وإنما حذف الظرف[١]، تهويلاً على ظهور الأمر، أو جعل الكل في مقام الامتنان عليهم ملوكًا لما أن أقارب الملوك يقولون عند المفاخرة نحن الملوك»[٢]، وقال الألوسي: «وغير الأسلوب فيه[٣]، لأنه لكثرة الملوك فيهم أو منهم صاروا كلهم كأنهم ملوك لسلوكهم مسلكهم في السعة والترفه»[٤].

٤- إنجاؤهم من آل فرعون:

فكان آل فرعون يسومون بني إسرائيل أسوأ العذاب وكانوا يذبحون أبناءهم ويستبقون نساءهم أحياء ليقوموا بخدمة آل فرعون، ثم أرسل الله موسى لإخراجهم من هذا الذل الذي كانوا يعانون منه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٤٩].

٥- إنجاؤهم من الغرق:

ولما أخرجهم موسى وسار بهم، فأتبعه فرعون وقد اعترضه البحر فأوحى الله لموسى فضرب البحر بعصاه فانفلق البحر حتى عبروا ثم أغرق الله فرعون في البحر، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٠].

٦- تفجير الماء:

ولما كان بنو إسرائيل في طريق عودتهم إلى أرض الميعاد لم يجدوا ماء لشربهم وسقي دوابهم، طلب موسى من ربه أن يسقيهم الماء، فأوحي إليه أن يضرب بعصاه

---

(١) أي قال: «جعلكم ملوكاً»، ولم يقل: «جعل فيكم ملوكاً».
(٢) «تفسير أبي السعود» (٢٢/٣).
(٣) أي قال في الأنبياء: «جعل فيكم أنبياء»، وقال في الملوك: «وجعلكم ملوكا».
(٤) «روح المعاني» (١٠٥/٦).

الحجر، قال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

٧- إنزال المن والسلوى:

ولما كان زادهم عرضة للنفاذ في تلك الصحراء أنزل الله عليهم المن والسلوى، والمنّ نوع من الحلوى كان ينزل على الحجر وورق الشجر، والسلوى طائر السماني كان يأتي إليهم أسراباً متلاحقة فيكاد يغطي الأرض بكثرته[1].

٨- تظليل الغمام:

ولما كانوا بالصحراء لا مأوى لهم ولا ظل أرسل الله عليهم السحاب تظللهم من حر الشمس، قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧].

٩- العفو عن اتخاذهم العجل:

ولما ذهب موسى لميقات ربه اتخذ لهم «السامري» صنماً على شكل عجل فقاموا يعبدونه، لكنه تعالى عفا عنهم لعلهم يقومون بشكر نعمة ربهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٢].

١٠- العفو عن طلبهم رؤية الله جهرة:

واستمر بنو إسرائيل في غيهم وطغيانهم حتى طلبوا من موسى أن يريهم الله جهرة حتى يؤمنوا، فأخذهم الله بصاعقة ثم بعثهم من بعد موتهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦]

---

(١) «مع الأنبياء في القرآن الكريم» (ص٢٤٣)، لعفيف الطبارة.

وهكذا فقد أعطى الله لبني إسرائيل من النعم ما لم يؤته أحداً من العالمين.

أعطاهم تلك النعم لعلهم يشكرون ربهم ولعلهم يقومون بالمهمة التي نيطت بهم .. لكن طبيعتهم كانت هي الغالبة طبيعة الجحود والبطر كما سجل عليهم التاريخ .

ثانياً: جحود بني إسرائيل

وصور الجحود في بني إسرائيل كثيرة جداً، ويكاد يكون تاريخهم الطويل كله جحود ونكران .. وليس هذا الجحود عن جهل بالحق ولكن بعد معرفة تامة به كما كانوا يعرفون تماماً بعثة النبي محمد ﷺ لما بعث أنكروه وجحدوا الحق الذي كانوا يؤمنون به. ومن صور جحودهم ما يلي:

١- تبديلهم لأمر الله استخفافا واعراضا:

لما طلب موسى بأمر الله من بني إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدسة – وهي بيت المقدس على الأصح – مقاتلين من فيها من الناس العماليق أعرضوا عن الجهاد وقالوا لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، وقالوا أيضا: ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ [المائدة ٢٢]، عندها ضرب الله عليهم التيه أربعين سنة، ثم شاءت حكمته تعالى أن يخرجوا من ذلك التيه ومن ثم فتح الله عليهم الأرض المقدسة .. ولما أرادوا دخول تلك الأرض طلب منهم أن يستغفروا الله عما بدر منهم وأن يدخلوا الباب على هيئة الخضوع لله تعالى إلا أنهم بدلوا أمر الله، قال ابن كثير: «وحاصل ما ذكره المفسرون ومادل عليه السياق أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا الباب سجداً فدخلوا يزحفون على أستاهم من قبل أستاههم رافعي رؤوسهم، وأمروا أن يقولوا حطة أي احطط عنا ذنوبنا وخطايانا فاستهزؤوا فقالوا حنطة في شعيرة وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة» (١)

(١) «تفسير ابن كثير» (١/٩٥).

٢- مللهم نعمة ربهم:

ولما امتن الله عليهم ففجر لهم ينابيع الماء من الصخر وأنزل عليهم المن والسلوى، فصاروا يأكلون ويشربون دون عناء في تلك الصحراء المجدبة .. إلا أنهم قابلوا نعم ربهم بالجحود وقالوا لن نصبر على هذا الطعام الواحد وإننا نريد أن نأكل مما تنبته الأرض، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ** ﴾ [البقرة: ٦١] .

٣- اعتداؤهم يوم السبت:

طلب بنو إسرائيل أن يكون لهم يوم مقدس يرتاحون فيه من طلب العيش ويكون يوماً للعبادة، فكان لهم يوم السبت، فابتلاهم الله بإرسال الحيتان في ذلك فاحتالوا وقاموا باصطياد الحيتان، قال تعالى: ﴿ **وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾ [الأعراف ١٦٣]، ومعنى شرّعاً: «أي ظاهرة على وجه الماء قريبة من الساحل»[(١)]، يقول سيد قطب: «فلقد طلبوا أن يكون لهم يوم راحة مقدس، فجعل الله لهم يوم السبت راحة مقدساً لا يعملون فيه للمعاش . ثم ابتلاهم بعد ذلك بالحيتان تكثر يوم السبت وتختفي في غيره! وكان ابتلاء لم تصمدله يهود! وكيف تصمد وتدع هذا الصيد القريب يضيع؟ أتتركه وفاء بعهد واستمساكاً بميثاق؟ إن هذا ليس من طبع يهود! .. ومن ثم اعتدوا في السبت، واعتدوا على طريقتهم الملتوية. راحوا يحوطون على الحيتان في يوم السبت، ويقطعونها عن البحر بالحجز، ولا يصيدونها! حتى إذا انقضى اليوم تقدموا وانتشلوا السمك المحجوز»[(٢)].

٤- قولهم سمعنا وعصينا:

ولما أنزلت التوراة على موسى طلب الله منهم أن يأخذوا ما فيها بقوة وأن يقولوا

(١) «تفسير أبي السعود» (٣/٢٨٤).

(٢) «في ظلال القرآن» (١/٧٧).

سمعنا وأطعنا، لكنهم كعادتهم قالوا سمعنا وعصينا، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ [البقرة: ٩٣].

٥- تحريفهم للكتاب:

ثم إن بني إسرائيل قاموا بتحريف كتاب ربهم، فبدلا من المحافظة عليه والعمل بما يأمرهم به فإنهم قاموا بتحريف الكتاب بما يتفق مع أهوائهم.. فلما نصت التوراة على بعثة محمد ﷺ حرفوا ذلك وبدلوه .. وكانوا يكتبون كلاماً من عند أنفسهم ويدعونه كلام الله .. كما رفضوا تحكيم التوراة ونبذوه وراء ظهورهم، قال تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥]، وقال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩]، وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٣]، وقال: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

٦- نقضهم للعهود:

وهم لايثبتون على عهد أياً كان العهد، قال تعالى: ﴿ أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة ١٠١].

٧- قتلهم الأنبياء:

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٠]، كانوا يريدون أن يكون الرسول وتعاليمه بما تتفق مع أهوائهم، فإن لم يستجب الرسل

لأهوائهم فيكذبونهم أو يقتلونهم. وفي التعبير القرآني بصيغة المضارع ﴿ يَقْتُلُونَ ﴾ لاستحضار تلك الصورة الهائلة العجيبة التي كانوا عليها من العناد واتباع الأهواء، قال أبو السعود: «وإنما أوثر عليه صيغة المضارع على حكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها الهائلة للتعجيب منها، وللتنبيه على أن ذلك ديدنهم المستمر .. وتقديم «فريقاً» في الموضوعين للاهتمام به وتشويق السامع إلى ما فعلوا به»[1].

٨- نسبة النقص إلى الله تعالى:

ومن علوهم وجحودهم ونكرانهم ماوصفوا الله به من نقص - عنهم الله- حينما قالوا: يد الله مغلولة، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ [المائدة: ٦٤]، يقول سيد قطب: «وذلك من سوء تصور يهود لله سبحانه. فقد حكى القرآن الكريم الكثير من سوء تصورهم ذلك . وقد قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء عندما سئلوا النفقة! وقالوا: يد الله مغلولة، ويعللون بذلك بخلهم؛ فالله - بزعمهم - لا يعطي الناس ولا يعطيهم إلا القليل .. فكيف ينفقون؟! .. وقد بلغ من غلظ حسهم، وجلافة قلوبهم ألا يعبِّروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذي أراده وهو البخل بلفظه المباشر؛ فاختاروا لفظاً أشد وقاحة وتهجماً وكفراً فقالوا: يد الله مغلولة!»[2].

٩- أكلهم الربا:

ومن جحودهم كانوا يأكلون الربا وقد نهوا عن أكله، قال تعالى: ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦١].

هذا بعض من جحودهم ونكرانهم، وتاريخهم طويل في هذا الشأن، وهم أمة من أعجب الأمم التي سجلها التاريخ وسجلها القرآن .. لقد سجل لهم القرآن أمر استجابتهم في أمر من الأمور التي أمرهم الله بها، لكن استجابتهم بهذه الصورة تصور أخلاقهم وإيمانهم. فلما أمرهم الله - على لسان موسى - أن يذبحوا بقرة

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٣/٦٣).

(٢) «في ظلال القرآن» (٢/٩٢٩).

نفذوا أمر الله، ولكن بعد طول انتظار وطول جدال ،فقالوا أول مرة لموسى: ﴿ **أتتخذنا هزواً** ﴾ ثم طلبوا منه أن يبين لهم ما لونها .. ثم طلبوا منه أن يبين لهم أوصافها، ﴿ **فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ [البقرة: ٧١]، تلك هي نفسيتهم وتلك هي أخلاقهم، فمهما فعلوا من ذلك فلا يتوقع منهم غيره .

ثالثاً: عقاب الله لهم

وقد شاءت حكمة الله تعالى أن يعفو عنهم في أكثر من موطن، فعندما اتخذوا العجل للعبادة تاب الله عليهم لعلهم يرجعون عن جحودهم وكفرانهم، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة: ٥٤]، كما تاب الله عليهم عندما قالوا لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة ثم بعثهم الله من بعد موتهم، وذلك لعلهم يرجعون ويتوبون، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [البقرة: ٥٦]، إلا أنهم استمروا على نفس النهج وبنفس الطريقة ولهذا عاقبهم الله تعالى بعقوبات شتى.

ومن صور عقاب الله لبني إسرائيل ونكرانهم ما يلي:

١- التيه:

لما سار موسى عليه السلام بيني إسرائيل وعبر البحر، طلب بعدها منهم أن يدخلوا الأرض المقدسة فاتحين لها، إلا أنهم نكلوا عن الجهاد بحجة أن فيها قومًا جبارين، وقالوا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، ثم قالوا لموسى: ﴿ **فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** ﴾ [المائدة: ٢٤]، فلما فعلوا ذلك حكم الله عليهم بالتيه أربعين سنة، قال تعالى: ﴿ **فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ** ﴾ [المائدة: ٢٦]، قال ابن كثير: « لما دعا عليهم موسى عليه السلام حين نكلوا عن الجهاد

حكم الله بتحريم دخولها عليهم قدر مدة أربعين سنة فوقعوا في التيه يسيرون دائمًا لايهتدون للخروج منه»[١]، وقال سيد قطب: وهكذا أسلمهم الله – وهم على أبواب الأرض المقدسة – للتيه؛ وحرم عليهم الأرض التي كتبت لهم .. والأرجح أنه حرمها على هذا الجيل منهم حتى تنبت نابتة جديدة؛ وحتى ينشأ جيل غير هذا الجيل. جيل يعتبر بالدرس، وينشأ في خشونة الصحراء وحريتها صلب العود .. جيل غير هذا الجيل الذي أفسده الذل والاستعباد والطغيان في مصر، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل!»[٢].

٢- إنزال العذاب من السماء:

ولما انتهى وقت التيه الذي حكم الله عليهم به خرج بنو إسرائيل منه متجهين نحو الأرض المقدسة ليفتحوها، ولما فتحها الله عليهم وأرادوا دخولها طلب منهم أن يدخلوا الأرض المقدسة مستغفرين الله تعالى ساجدين له وأن يقولوا ﴿ **حِطَّةٌ** ﴾ أي حط عنا ذنوبنا، ولكنهم بدلوا وحرفوا وقالوا حنطة ودخلوا يزحفون على أستاههم .. وعندها أنزل الله عليهم عذاباً من السماء، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾ [البقرة: ٥٩]، والرجز معناه العذاب ولكنه العذاب الذي يقع معه اضطراب شديد فيقع كالزلزلة»[٣] .. أما عن نوعية العذاب، فقيل عنه بأنه الطاعون، وقيل بأنه برد شديد. قال ابن كثير: « وقال الشعبي: الرجز إما الطاعون وإما البرد، وقال سعيد بن جبير: هو الطاعون»[٤]، وقال الألوسي: « .. يروى أنه مات منهم ساعة أربعة وعشرون ألفاً، وقال وهب: طاعون غدوا به أربعين ليلة ثم ماتوا بعد ذلك، وقال ابن جبير: ثلج هلك له منهم سبعون ألفاً»[٥] .. ولكن إذا هلك بنو إسرائيل في هذا التيه بمثل هذا العدد فمن أين خرج الجيل الثاني

---

(١) تفسير ابن كثير » (٣٨/٢).
(٢) «في ظلال القرآن » (٨٧١/٢).
(٣) « المفردات » ، مادة (رجز) .
(٤) « تفسير ابن كثير » (٩٥/١).
(٥) « روح المعاني » (٢٦٧/١).

الذي فتح به الأرض المقدسة؟ والمهم أن الله أنزل عليهم عذاباً من السماء بسبب فسوقهم وظلمهم.

٣- الذلة والمسكنة وغضب الله:

وبسبب جحود بني إسرائيل عاقبهم الله تعالى بالذلة والمسكنة وغضب عليهم أشد الغضب، وذلك لأنهم كفروا بآيات الله وقتلوا الأنبياء وبسبب عصيانهم واعتدائهم .. فبنو إسرائيل امتن الله عليهم بنعمة عظيمة فأنزل لهم المن والسلوى ليأكلوا منها ولا يهلكوا .. إلا أنهم بعد مدة ملوا ذلك الطعام الواحد وطلبوا من موسى أن يدعو الله حتى يخرج لهم من الأرض الزرع ليأكلوا منه، طلبوا البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل كما كانوا يأكلون في مصر قبل خروجهم منها .. ونسوا المهمة التي خرجوا من أجلها ..

ومن ثم ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة وغضب عليهم، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ**﴾ [البقرة: ٦١]، قال ابن كثير: «﴿**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ**﴾ أي وضعت عليهم وألزموا بها شرعاً وقدراً، أي لا يزالون مستذلين؛ من وجدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء مستكينون»(١)، وقال البيضاوي: «﴿**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ**﴾ أحيطت بهم إحاطة القبة بمن ضربت عليه، أو ألصقت بهم من ضرب الطين على الحائط، مجازاة لهم على كفران النعمة. واليهود في غالب الأمر أذلاء مساكين، إما على الحقيقة أو على التكلف مخافة أن تضاعف جزيتهم ﴿**وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ**﴾ رجعوا أوصاروا أحقاء بغضبه»(٢).

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/٩٨).

(٢) «تفسير البيضاوي» (١/١٥٧).

٤- مسخهم قردة وخنازير:

ولما اعتدى بنو إسرائيل في يوم السبت وقاموا بحيلة لاصطياد الحيتان حيث فشا فيهم ذلك الأمر، ولما لم ينتهوا عن ذلك رغم نصح البعض لهم مسخهم الله قردة، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** ﴾ [البقرة: ٦٥]، وقال: ﴿ **قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ** ﴾ [المائدة: ٦٠]، قال أبو السعود: « ﴿ **فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** ﴾ أي جامعين بين صورة القردة والخسوء وهو الطرد والصغار، على أن خاسئين نعت القردة .. وقال مجاهد: ما مسخت صورهم ولكن قلوبهم فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار في قوله تعالى: ﴿ **كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ﴾ »(١)، ولكن ابن كثير أورد أقوال السلف والمفسرين وأورد قول مجاهد ثم ضعّف قول مجاهد، أي بين أن المسخ كان على صورة القردة ولم يكن مسخًا للقلوب - كما قال مجاهد - قال ابن كثير: «قلت: والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد - رحمه الله - من أن مسخهم كان معنوياً لا صورياً، بل الصحيح أنه صوري، والله أعلم»(٢).

٥- إلقاء العداوة والبغضاء بينهم:

لما قالت اليهود يد الله مغلولة، وهو كناية عن وصفه بالفقر، ويدل عليه قولهم ﴿ **إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ** ﴾ لعنهم الله، أي طردهم من رحمته، وحكم عليهم بالغل، قال تعالى: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا** ﴾ [المائدة: ٦٤]، قال الألوسي: « ﴿ **غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ** ﴾ دعاء عليهم بالبخل المذموم .. ودعاؤه بذلك عبارة عن خلق الشح في قلوبهم والقبض في أيديهم .. ويجوز أن يكون دعاء عليهم بالفقر والمسكنة، وقيل: تغل الأيدي حقيقة، يغلون في الدنيا أسارى وفي الآخرة معذبين في أغلال جهنم.. »(٣).. ولم يكن عقابهم بذلك فحسب بل إن الله

---

(١) « تفسير أبي السعود » (١/١١٠).
(٢) « تفسير ابن كثير » (١/١٠٢).
(٣) « روح المعاني » (٦/١٨٠).

تعالى ألقى بينهم العداوة والبغضاء، قال تعالى: ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ [المائدة ٦٤]، قال أبو السعود: « ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ﴾ أي بين اليهود .. ﴿ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ﴾ فلا يكاد تتوافق قلوبهم ولا تتطابق أقوالهم. والجملة مبتدأ مسوقة لإزاحة ما عسى يتوهم من ذكر طغيانهم وكفرهم من الاجتماع على أمر يؤدي إلى الإضرار بالمسلمين»[1].

٦- العذاب الشديد يوم القيامة:

ويوم القيامة يلقون أشد العذاب بسبب كفرهم وجحودهم، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٥].

وجزاء على ما كتموه من كتابهم واشتروا بذلك ثمناً قليلاً فإنه تعالى توعدهم بالعذاب الشديد وبألوان من العذاب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٤].

كما توعدهم بالعذاب الأليم على أخذهم الربا وأكلهم أموال الناس بالباطل، قال تعالى: ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦١].



(١) «تفسير أبي السعود» (٣/٥٩).

المبحث الثاني
قوم سبأ

وقوم سبأ من الأقوام الذين جحدوا نعمة ربهم، فعاقبهم الله تعالى بأن سلب منهم النعمة ومزقهم أشد تمزق حتى صار يضرب بهم المثل: « تفرقوا أيادي سبأ» وكأن قوماً من الأقوام لم يتفرقوا كما تفرق قوم سبأ .. وكان قوم سبأ في نعم عظيمة، كانوا يعيشون في جنات، ويعيشون في أمن ورخاء .. إلا أنهم أعرضوا عن شكر نعمة ربهم وملوا نعمته فعاقبهم الله بذلك، قال ابن كثير: «كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكان التبابعة منهم، وبلقيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام من جملتهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ماشاء الله تعالى ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ، شذر مذر»[١].

ويحكي لنا القرآن الكريم قصة سبأ على أن قومها من الأقوام الجاحدة لنعمة ربهم.

أولاً: نعمة الله على قوم سبأ

١ – تبدأ قصة سبأ ببيان النعيم الذي كانوا فيه، حتى صار ذلك النعيم آية من آيات الله الدالة على عظيم قدرة الله وعلى عنايته بالعباد، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ﴾ [سبأ: ١٤]، قال البيضاوي: « ﴿آيَةٌ﴾ علامة دالة على وجود الصانع المختار وأنه قادر على ماشاء من الأمور العجيبة»[٢] ثم بين تبارك وتعالى نوعية

(١) « تفسير ابن كثير » (٣/٥٠٩).
(٢) « تفسير البيضاوي » (٤/١٧٣).

هذه الآيـة، وهي: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: ١٤]، لعل المراد بذلك - والله أعلم - أنه أينما يسير الإنسان فيجد عن يمينه جنة وعن شماله جنة، والمراد به كثرة الزروع والثمار أينما اتجه البصر، قال أبو السعود: « ﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل من آية أو خبر لمبتدأ محذوف أي هي جنتان، وفيه معنى المدح ويؤيده وقراءة النصب على المدح، والمراد بهما جماعتان من البساتين ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ جماعة عن يمين بلدهم وجماعة عن شماله كل جماعة من تينك الجماعتين في تقاربهما وتضامنهما كأنهما جنة واحدة، أو بستاناً؛ كل رجل منهم عن يمين مسكنه وعن شماله»[١] .. ثم قال تعالى: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [سبأ: ١٥]، قال الزمخشري: «﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ إما حكاية لما قال لهم أنبياء الله المبعوثون إليهم، أو لما قال لهم لسان الحال، أو هم أحقاء بأن يقال لهم ذلك»[٢].

٢- مغفرة الله لهم:

وزاد الله تعالى من نعيمه عليهم فجمع لهم بين طيب العيش والمغفرة، ولم تكن في ذلك الوقت استدراجاً لهم، بل كانت نعمة، فقال تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]، فأجمل النعمة السابقة بقوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ وزاد فيها ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ فجمع بين النعمة العظيمة والمغفرة الكريمة، وهذه نعمة لا تجتمع إلا لعباد الله المؤمنين ومن أراد الله بهم الخير، أما الجاحدون فإنه يمدهم بالنعمة استدراجا، فيزيد لهم النعم من حيث يتكبرون ويتجبرون.

٣- نعمة الله عليهم في السفر:

ولما كان السفر قطعة من جهنم، فيها العذاب الشديد، فيها يتعرض المسافر لفقد الماء والطعام والأمن .. إلا أن الله تعالى امتن على قوم سبأ بنعم قد لاتتفق لغيرهم من الأمم، فإنها رغم كثرة الزروع والثمار فيها فإنه تعالى جعل السير فيها مقدراً بحيث جعلت بحسب ما يحتاج إليه المسافرون من التقارب فيما بين القرى بحيث لايستغرق يوماً في السفر إلا ويبيت في قرية على أقل تقدير، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ

(١) «تفسير أبي السعود» (١٢٧/٧).
(٢) «تفسير الكشاف» (٢٥٥/٣).

الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨] .

والمراد بـ ﴿الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ قرى الشام، قال الألوسي: «والمراد بالقرى التي بورك فيها قرى الشام؛ وذلك بكثرة أشجارها وأثمارها والتوسعة على أهلها، وعن ابن عباس هي قرى بيت المقدس، وعن مجاهد هي السراوية، وعن وهب قرى صنعاء، وقال ابن جبير: قرى مأرب. والمعول عليه الأول؛ حتى قال ابن عطية: إن إجماع المفسرين عليه»[١] .. ومعنى قوله تعالى: ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ أي: جعلنا بينهم وبين قرى الشام قرى بينة واضحة بحيث لا يسير الراكب مسافات طويلة لايأمن فيها، قال ابن كثير: « ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي بينة واضحة يعرفها المسافرون يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى، لهذا قال تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾»[٢] .

وقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي جعلناه على قدر معين، قال أبو السعود: « أي جعلناها في نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معين يليق بحال أبناء السبيل»[٣] ، وقال الألوسي: « قيل: من سار من قرية صباحا وصل إلى أخرى وقت الظهيرة والقيلولة، ومن سار بعد الظهر وصل إلى أخرى عند الغروب؛ فلا يحتاج لحمل زاد ولامبيت في أرض خالية ولايخاف من عدو ونحوه»[٤] .

وقوله تعالى: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ دلالة على نعمة الأمن في السفر، قال ابن كثير: «أي الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلاً ونهاراً»[٥] ، وقال الألوسي: « ﴿سِيرُوا فِيهَا﴾ فإنه مؤذن بشدة القرب حتى كأنهم لم يخرجوا من نفس القرى .. وهو بتقدير القول، أي قلنا لهم سيروا في تلك القرى ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ أي متى شئتم من ليل ونهار ﴿آمِنِينَ﴾ من كل ماتكرهونه، لايختلف الأمن فيها باختلاف الأوقات. وقدم الليالي لأنها مظنة الخوف من مغتال .. أو قلنا سيروا فيها آمنين وإن تطاولت مدة سفركم وامتدت ليالي وأياماً كثيرة ...»[٦] .

(١) « روح المعاني » (١٢٩/٢٢).
(٢) « تفسير ابن كثير » (٥١٢/٣).
(٣) « تفسير أبي السعود » (١٢٩/٧) .
(٤) « روح المعاني » (١٣٠/٢٢).
(٥) « تفسير ابن كثير » (٥١٢/٣).
(٦) « روح المعاني » (١٣٠/٢٢).

ويذكر القرآن الكريم عن النعيم الذي كانوا فيه في زمن الملكة بلقيس التي كانت تملكهم، فقد جاء على لسان الهدهد: ﴿ **إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ** ﴾ [النمل: ٢٣]، فقد أوتيت من كل شيء أي من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن . وفي قوله: ﴿ **وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ** ﴾ ذهب البعض إلى وصف المكان الذي كانت تجلس عليه وأنه مرصع بالجواهر واليواقيت[١]. ولكن الأولى حمله على الكناية أي كناية عن سعة ملكها، قال الراغب: « .. ويسمى مجلس السلطان عرشاً اعتباراً بعلوه .. وكني به عن العز والسلطان والمملكة»[٢] فمعنى ذلك أن ملكها كان عظيما حتى إن الهدهد دهش به رغم ما يرى من ملك سليمان عليه الصلاة والسلام .

ثانياً: جحود قوم سبأ

١- وكان من جحود قوم سبأ أن أعرضوا عن شكر نعمة ربهم ولم يستجيبوا لتعليمات رسل الله تعالى، قال تعالى: ﴿ **فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ** ﴾ [سبأ: ١٦]، قال أبو السعود: « ﴿ **فَأَعْرَضُوا** ﴾ عن الشكر بعد إبانة الآيات الداعية لهم إليه، قيل: أرسل الله إليهم ثلاثة عشر نبياً فدعوهم إلى الله تعالى وذكروهم بنعمه وأنذروهم عقابه فكذبوهم»[٣]، وقال أبو حيان: «﴿ **فَأَعْرَضُوا** ﴾ أي عما جاء بهم إليهم أنبياؤهم، وكانوا ثلاثة عشر نبياً دعوهم إلى الله تعالى وذكروهم نعمة فكذبوهم وقالوا: ما نعرف لله نعمة»[٤]..

أما عن نوعية الإعراض فلم يبينه، ولعله لم يبين نوعية الإعراض ليشمل كل أنواع الإعراض فيشمل الإعراض عن الإيمان وعن الشكر وعن كل تعليمات الأنبياء والرسل، قال الألوسي: « ﴿ **فَأَعْرَضُوا** ﴾ أي عن الشكر كما يقتضيه المقام، ويدخل فيه الإعراض عن الإيمان لأنه أعظم الكفر والكفران»[٥] .. ومما يدل على شمول

---

(١) انظر « تفسير ابن كثير » (١٤٨/٣).
(٢) « المفردات » ، مادة (عرش).
(٣) « تفسير أبو السعود » (١٢٧/٧).
(٤) « تفسير البحر المحيط » ، لأبي حيان (٢٧٠/٧).
(٥) « روح المعاني » (١٢٦/٢٢).

الإعراض: أن كفران النعمة لايكون إلا نتيجة لكفر الإيمان فهما شيء واحد، فلا يكفر الإنسان نعمة المنعم إلا أن يكون قد كفر بالمنعم .

٢- مللهم نعمة ربهم:

وكما كان حال بني إسرائيل حينما ملوا نعمة ربهم، وقد أنزل عليهم في تلك الأرض الصحراء المجدبة المن والسلوى وفجر لهم الماء يشربون منه فملوا هذه النعمة وقالوا: لن نصبر على طعام واحد، وكذلك الحال في قوم سبأ حينما امتن الله عليهم فجعل سفرهم قريباً آمناً يسيرون فيه ليالي وأياماً آمنين. لكنهم ملوا نعمة ربهم وطلبوا أن يباعد الله لهم في أسفارهم، قال تعالى: ﴿**فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا**﴾ [سبأ: ١٩]، قال أبو السعود: « .. بطروا النعمة وسئموا أطيب العيش وملوا العافية فطلبوا الكد والتعب، كما طلب بنو إسرائيل الثوم والبصل مكان المن والسلوى، وقالوا: لو كان جنى جناننا أبعد لكان أجدر بنو إسرائيل سألوا الله تعالى أن يجعل بينهم وبين الشام مفاوز وقفاراً ليركبوا فيها الرواحل ويتزودوا الأزواد ويتطاولوا فيها على الفقراء ..»[١].

٣- عبادتهم لغير الله عزوجل:

والظاهر أن قوم سبأ استمروا في طغيانهم وعتوهم وتجبرهم حتى وصل بهم الأمر إلى عبادة الشمس من دون الله تعالى، فقد ذكر القرآن ماجاء على لسان الهدهد مع سليمان عليه الصلاة والسلام لما قال له: ﴿**أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ**﴾ [النمل: ٢٤].

ويذكر القرآن أن ملكتهم بلقيس التي كانت تعبد مع قومها الشمس قد أسلمت مع سليمان لله رب العالمين، أما قومها فلم يذكر القرآن شيئا عن إيمانهم مع ملكتهم[٢].

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٧ / ١٢٩).

(٢) انظر بقية القصة في سورة النمل من (٢٠ - ٤٤).

ثالثاً: عقاب الله لقوم سبأ

ولما استمر قوم سبأ في جحودهم وعدم شكرهم للنعمة سلب الله منهم ما أنعم به عليهم، فلما أعرضوا عن شكر نعمة الله في مسكنهم أبدلهم الله بالشجر المثمر ثمراً مراً بشعاً لايؤكل، وسلبهم تلك المياه التي كانت في السد ... قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].

١- خراب السد:

لما أراد الله عقوبتهم أرسل عليهم سيلاً أذهب بالسد الذي كانوا منه يشربون منه وكانت جناتهم تسقى منه، قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ [سبأ: ١٦]، أي سيل الأمر العرم أي الصعب، قال الراغب: «قيل أراد سيل الأمر العرم، وقيل: العرم المسناة، وقيل: العرم: الجرذ الذكر ونسب إليه السيل من حيث إنه نقب المسناة»[١]، وقال أبو السعود: «أي سيل الأمر العرم أي الصعب من عرم الرجل فهو عارم وعرم إذا شرس خلقه وصعب، أو المطر الشديد، وقيل: العرم جمع عرمة وهي الحجارة المركومة، وقيل: هو السكر الذي يحبس الماء، وقيل: هو اسم للبناء الذي يجعل سداً، وقيل: هو البناء الرصين الذي بنته الملكة بلقيس بين الجبلين بالصخر والقار وحقنت به ماء العيون والأمطار وتركت فيه خروقاً على ما يحتاجون إليه في سقيهم، وقيل: العرم الجرذ الذي نقب عليهم ذلك السد .. وقيل: العرم اسم الوادي..»[٢] وأياً ما كان المعنى فإن الله تعالى خرب عليهم السد الذي كان سبباً في وجود الزروع والثمار العظيمة.

٢- تبديل جنتيهم:

وكان خراب السد سبباً في تبديل الجنات التي كانوا فيها يتنعمون، قال تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ:

(١) «المفردات»، مادة (عرم).

(٢) «تفسير أبي السعود» (١٢٨/٧).

١٦]، قال أبو حيان: «وروي أنه لما خرق السد كان ذلك سبب يبس الجنات فهلكت بهذا الوجه»[١].

وتسمية ما أبدلوا به ﴿ جَنَّتَيْنِ ﴾ من باب التهكم عليهم، أو للمشاكلة.

وقوله: ﴿ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾: قال الراغب: « الخمط شجر لاشوك له»[٢] وقال أبو السعود: « أي ثمر بشع، فإن الخمط كل نبت أخذ طعما من مرارة حتى لايمكن أكله .. وقيل: هو الأراك أو كل شجر ذي شوك»[٣] .. والظاهر أنه شجر لايؤكل أبدلوا به بدلاً من الثمار اليانعة، وقوله ﴿ وَأَثْلٍ ﴾، قال الراغب: « أثل: شجرة ثابت الأصل»[٤] وقال الألوسي: « ضرب من الطرفاء»[٥].

وقوله ﴿ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ قال الراغب: « السدر قليل الغذاء عند الآكل»[٦] وقال الألوسي: « السدر شجر النبق»[٧] وقال البيضاوي: «ووصف السدر بالقلة، فإن جناه وهو النبق مما يطيب أكله ولذلك يغرس في البساتين»[٨] وقال الألوسي: « فجعل قليلاً فيما بدلوا به لأنه لو كثر كان نعمة لا نقمة، وإنما أوتوه تذكيراً للنعم الزائلة لتكون حسرة عليهم»[٩].

ثم قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴾ [سبأ: ١٧] أي كان هذا الجزاء بتبديل النعمة نقمة عليهم بسبب كفرانهم، حتى لايتوهم متوهم أن هذا إنما هو ابتلاء من الله فمن صبر كان به أجر، بل هو عقاب عاقبهم به.

٣- تفريقهم في البلاد:

لما سئم قوم سبأ النعيم الذي كانوا فيه، وكان الله قد جعل سفرهم بين البلاد قريباً وآمناً فقالوا: ﴿ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ وقد طلبوا ذلك ظلماً وبطراً، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ [سبأ: ١٩]، أي ظلموا أنفسهم بطلبهم ذلك بطراً وظلموا أنفسهم بتعريضها لعقاب الله وتبديل النعمة.

---

(١) «تفسير البحر المحيط» (٧/ ٢٧٠).
(٢) «المفردات»، مادة (خمط).
(٣) «تفسير أبو السعود» (١٢٨/٧).
(٤) «المفردات»، مادة (أثل).
(٥) «روح المعاني» (١٢٧/٢٢).
(٦) «المفردات»، مادة (سدر).
(٧) «روح المعاني» (١٢٧/٢٢).
(٨) «تفسير البيضاوي» (١٧٣/٤).
(٩) «روح المعاني» (١٢٧/٢٢).

وقد عاقبهم الله ذلك بأن جعلهم بحيث يتحدث بهم الناس للاتعاظ والعبرة، حتى صار يضرب بهم المثل، فيقال: « تفرقوا أيادي سبأ»، قال تعالى عن عقابهم: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ [سبأ: ١٩]، قال أبو السعود: « أي جعلناهم بحيث يتحدث الناس بهم متعجبين من أحوالهم ومعتبرين بعاقبتهم ومآلهم»(١). وقال الألوسي: «﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ جمع أحدوثة، وهي ما يتحدث به على سبيل التلهي والاستغراب .. وجعلهم نفس الأحاديث إما على المبالغة أو تقدير المضاف أي جعلناهم بحيث يتحدث الناس بهم معجبين من أحوالهم ومعتبرين بعاقبتهم ومآلهم»(٢) وقوله تعالى: ﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ [سبأ: ١٩]، أي فرقناهم تفريقاً ليس بعده وصال، قال أبو السعود: « أي فرقناهم كل تفريق - على أن الممزق مصدر - أو كل مطرح ومكان تفريق - على أنه اسم مكان - وفي عبارة التمزيق الخاص بتفريق المتصل وخرقه من تهويل الأمر والدلالة على شدة التأثير والإيلام ما لا يخفى؛ أي مزقناهم تمزيقاً لاغاية وراءه بحيث يضرب به الأمثال في كل فرقة ليس بعدها وصال، حتى لحق غسان بالشام وأنمار بيثرب وجذام بتهامة والأزد بعمان»(٣).



(١) « تفسير أبي السعود » (١٢٩/٧).
(٢) « روح المعاني » (١٣١/٢٢).
(٣) « تفسير أبي السعود » (١٢٩/٧).

المبحث الثالث
قريش

وقريش من الأقوام الذين جحدوا نعمة ربهم عليهم وكذبوا الرسول الذي أرسل فيهم وبعث منهم محمد ﷺ وكان الله قد أعطاهم من النعم الشيء الكثير، أعطاهم من النعم ما جعلهم مؤهلين لحمل هذه الرسالة الخالدة .. ويكفيهم نعمة البيت الذي جعله الله وما حوله آمناً يعيشون فيه بأمن وطمأنينة وسلام .. ويكفيهم نعمة جلب الأرزاق إلى ذلك المكان القفر من كل مكان .. نعم ونعم كثيرة، ولكن البطر والجحود كان ملازماً لهم حتى مَنَّ الله عليهم بالإسلام.

نعم الله على قريش

١- نعمة الأمن:

وقريش هي القبيلة التي كانت لها السيادة على القبائل العربية، وكان فيهم سدنة البيت القائمين على خدمته وخدمة الحجيج وسقايته، فامتن الله عليهم بنعمة الأمن بينما كان الناس يتخطفون من حولهم، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا** ﴾ [البقرة: ١٢٥]، ومثابة: أي مرجعاً يرجعون إليه وملجأ وملاذاً يلوذون به.

وكانت هذا النعمة – نعمة الأمن – استجابة لدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام حينما دعا أن يجعل ذلك البلد آمناً، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا** ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وبعدها بقي الناس في ذلك المكان يعيشون في أمن وطمأنينة وسلام، قال تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ [النحل: ١١٢]، فجمع لها بين الأمن والاطمئنان، والاطمئنان زيادة في الأمن[1].

٢- نعمة الرزق:

وكذلك أنعم الله عليهم بالأرزاق تأتيهم من كل مكان إلى ذلك الوادي الذي لا زرع فيه ولا ماء، وقد كانت تأتيهم الأرزاق من كل مكان ويجبى إليه ثمرات كل شيء ...، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧]، أي من الحبوب والفواكه والثمار وغير ذلك .. وكذلك تجبى الثمرات من كل مكان مع الحجيج ومع القوافل المسافرة .. قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل: ١١٢]، والرزق الرغد هو الطيب الواسع.

وكذلك كانت هذه النعمة استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام حينما دعا ربه فقال: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]

٣- بعثة الرسول:

وقد استمر بهم الحال حتى بعث الله فيهم رسولاً منهم، يعرفونه صادقاً أميناً وهو على ملة أبيهم إبراهيم عليه السلام وكان إبراهيم عليه السلام قد دعا ربه أن يبعث فيهم رسولاً، فقال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

(١) «تفسير البحر المحيط» (٥/ ٥٤٢).

ثانياً: جحود قريش

ولكن قريشاً جحدت نعمة الرسالة ولم تؤمن بذلك النبي الذي يعرفون صدقه ونسبه، وكان أكثرهم يعتقد صحة رسالته إلا أن دعوته لما كانت لا توافق أهواءهم ومصالحهم كذبوه. وكانت صور تكذيبه كثيرة جداً، حتى إنهم استخدموا كل الأساليب التي يستطيعون من طعن في شخصية النبي ﷺ أو في رسالته ودعوته أو في الكتاب الذي جاء به وغير ذلك كثير.

فقد أنكروا رسالته، قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً ﴾ [الرعد: ٤٣].

وأنكروا أن ينزل عليه وحي الله وأن يؤتى القرآن، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ [الفرقان: ٧]

وقالوا عنه بأنه شاعر وأنه كاهن وأنه مجنون .. قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ [الطور: ٣٠]

وقالوا عن القرآن أضغاث أحلام وطلبوا قرآناً غيره، قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥]، وقال: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ [يونس: ١٥]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقال: ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ﴾ [الإسراء: ٤٦].

وبعد، فهذا بعض من جحود قريش، فقد قالوا كل ما يمكن قوله وجحدوا كل نعمة، واستمروا على ذلك حتى أوقع الله بهم عقابه في الدنيا وأرجأهم لأشد العذاب يوم القيامة، لقد سلب الله منهم نعمة الأمن ونعمة جلب الأرزاق حتى جاعوا بعدما كانوا يعيشون عيشة رغيدة.

ثالثاً: عقاب الله لقريش

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وأكثر المفسرين على أن هذا المثل أريد به أهل مكة، ومن قال إن المثل على عمومه فهو أشبه شيء بحالة مكة، قال ابن كثير: «وهذا مثل أريد به أهل مكة»[١] وقال الشوكاني: «اختلف المفسرون هل المراد بهذه القرية قرية معينة، أو المراد قرية غير معينة، بل كل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة؟ فذهب الأكثر إلى الأول وصرحوا بأنها مكة ...»[٢].

وقد عاقبها الله تعالى بالجوع والخوف، فقال جل شأنه: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾، قال ابن كثير: «... ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ أي جحدت آلاء الله عليها، وأعظمها بعثة محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩]، ولهذا بدلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما، فقال: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾، أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليها ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وذلك أنهم استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا العلهز وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه»[٣]، وقال الشوكاني: «..وذلك لما دعا عليهم رسول الله ﷺ وقال: «**اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف**» فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام»[٤]، ويقول سيد قطب: «ويجسّم التعبير الجوع والخوف فيجعله لباساً، ويجعلهم يذوقون هذا

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٧٠).
(٢) «فتح القدير» (٣/١٩٩).
(٣) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٧٠).
(٤) «فتح القدير» (٢/١٩٩).

اللباس ذوقاً، لأن الذوق أعمق أثراً في الحس من مساس اللباس للجلد. وتتداخل في التعبير استجابات الحواس وتغلغله في النفوس، لعلهم يشفقون من تلك العاقبة التي تنتظرهم لتأخذهم وهم ظالمون»[١]، وقال أبو حيان: «﴿ بِأَنْعُمِ ﴾ جمع نعمة وجمع قلة، ولم يأت بنعم الله، ذلك أنه قصد التنبيه بالأدنى على الأعلى، بمعنى أن كفران النعم القليلة أوجب للعذاب فكفران الكثير أولى بإيجابه، وقال ابن عطية: لما باشرهم ذلك صار كاللباس[٢].



(١) «في ظلال القرآن» (٤/٢١٩٩).

(٢) «تفسير البحر المحيط» (٥/٥٤٢).

المبحث الرابع
قـــارون

قارون هو أحد الرجال الذين آتاهم الله مالاً عظيماً، ولكنه تكبر وتجبر حتى صار يضرب به المثل. ويحكي القرآن قصة قارون، وبدايتها أنه كان من قوم موسى، قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦]، ومعنى كونه من قوم موسى أنه كان من بني إسرائيل، والظاهر أنه كان من أتباعه المؤيدين له، ويروى أنه كان ابن عم موسى، قال الألوسي: «كان من قوم موسى أي من بني إسرائيل كما هو الظاهر، حكى ابن عطية الإجماع عليه»[1] وقال الألوسي أيضاً: «وحكي عن محمد بن إسحاق .. أنه كان يسمى المنور لحسن صورته وكان أحفظ بني إسرائيل للتوراة وأقرأهم لكنه نافق كما نافق السامري ...»[2].

ولكن قارون هذا بغى على موسى وقومه حينما طلب أن يكون له من مثل موسى وهارون كما تذكر بعض الروايات .. وأكثرها إسرائيلية .. ولم يذكر القرآن شكل البغي الذي بغاه، قال البيضاوي: «﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ فطلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت أمره، أو تكبر عليهم، أو ظلمهم؛ قيل: وذلك حين ملكه فرعون على بني إسرائيل، أو حسدهم؛ لما روى أنه قال لموسى عليه السلام: لك الرسالة ولهارون الحبورة وأنا في غير شيء إلى متى أصبر؟ قال موسى هذا صنع الله»[3]... والمهم أن قارون بغى عليهم .. والفاء فصيحة أي ضل فبغى[4].

---

(١) «روح المعاني» (٢٠/ ١١٠).
(٢) «روح المعاني» (٢٠/ ١١٠).
(٣) «تفسير البيضاوي» (٤/ ١٣٢).
(٤) «روح المعاني» (٢٠/ ١١٠).

أولاً: نعمة الله على قارون

١ - ذكر الله نعمته التي منحها لقارون، فقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]، ومعنى تنوء أي تثقل بحمله، والعصبة هي الجماعة القوية المتعصبة ولا يوجد ما يدل على عددها، قال الراغب: «والعصبة جماعة متعصبة متعاضدة»[١]، وقال الألوسي: «العصبة الجماعة الكثيرة من غير تعيين لعدد خاص على ما ذكره الراغب»[٢] والمهم أن مفاتيح خزائنه تعجز الجماعة القوية عن حملها، قال أبو السعود: «وآتيناه من الكنوز أي الأموال المدخرة ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾ أي مفاتح صناديقه، وهو جمع مفتح - بالكسر - وهو ما يفتح به، وقيل خزائنه .. ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ .. وناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله، والعصبة الجماعة الكثيرة..»[٣]، وقال سيد قطب: «لقد كان قارون من قوم موسى، فآتاه الله مالاً كثيراً، يصور كثرته بأنه كنوز - والكنز هو المخبوء المدخر من المال الفائض عن الاستعمال والتداول - وبأن مفاتح هذه الكنوز تعيي المجموعة من أقوياء الرجال ...»[٤].

وظاهر الكلام أن إيتاء الكنوز كان بعد غيه، فيكون ذلك العطاء استدراجاً له، ويحتمل أن يكون بغيه نتيجة لإعطائه المال الكثير، وتقدير الكلام بأن قارون كان من قوم موسى وقد آتيناه من الكنوز .. فبغى عليهم، ففي الكلام تقديم وتأخير، ويكون تقديم البغي على سببه لبيان بغيه قبل ذكر سببه الذي حمله على ذلك.

٢ - ومن نعم الله على عباده جميعاً ومنهم قارون أن جعل لهم من يرشدهم إلى طريق الخير لعلهم يرجعون عما هم فيه .. فلما بغى قارون هيأ الله له من قومه من ينصحه ويرشده، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، يقول سيد قطب: «﴿لا تَفْرَحْ﴾ .. فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز

---

(١) «المفردات»، مادة (عصب).
(٢) «روح المعاني» (٢٠/ ١١٠).
(٣) «تفسير أبي السعود» (٧/ ٢٤).
(٤) «في ظلال القرآن» (٥ / ٢٧١١).

بالمال والاحتفال بالثراء، والتعلق بالكنوز، والابتهاج بالملك والاستحواذ .. لا تفرح فرح البطر الذي ينسى المنعم بالمال وينسى نعمته، وما يجب لها من الحمد والشكران، لا تفرح فرح الذي يستخفه المال، فيشغل به قلبه، ويطير له لبه، ويتطاول به على العباد..»[1].

ويتابع قومه في نصحهم إليه قائلين: ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ﴾ [القصص: ٧٧] أي اطلب بمالك هذا الدار الآخرة، ولا يمنعك ذلك من التنعم الذي يرضى الله عنه في الدنيا ﴿ **وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾ .. أي أحسن لله بشكر نعمته، «فهذا المال هبة من الله وإحسان. فليقابل بالإحسان فيه، إحسان التقبل وإحسان التصرف، والإحسان به إلى الخلق وإحسان الشعور بالنعمة، وإحسان الشكران .. ﴿ **وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ** ﴾ [القصص: ٧٧]، أي لا يكن مالك باعثاً لك على الفساد في الأرض ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾[2].

ثانياً: جحود قارون

ولكن قارون لم يستجب لإرشاد ونصيحة الناصحين له، بل استمر في طغيانه وبطره وفرحه بما آتاه الله تعالى من الأموال. وصور جحوده كثيرة منها.

١- فرحه بالمال:

من ظاهر الآيات السابقة يظهر أنه فرح بالمال، فَرَحَ بطر وتجبر، ولهذا نصحه قومه بأن لا يفرح بماله، بل عليه شكر نعمة الله عليه فيطلب بها مرضاة الله.

٢- وزاد من بطر قارون وجحوده أن نسب هذا المال لعلمه ونسي المنعم وقال: ﴿ **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ** ﴾ [القصص: ٧٨]، أي إنما حصلت على هذا المال بجهدي الخاص. كانت تلك إجابته لمن نصحه، يقول سيد قطب: «إنها قولة المغرور المطموس

---

(١) «في ظلال القرآن» (٥/ ٢٧١١).   (٢) المصدر السابق (٥/ ٢٧١١).

الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها، ويفتنه المال ويعيه الثراء .. وهو نموذج مكرر في البشرية. فكم من الناس يظن أن عمله وكده هما وحدهما سبب غناه»[١].

٣- ويزداد قارون بطراً وتكبراً حتى وصل إلى الحالة التي أراد الله أن يأخذه عليها. وذلك أن الله تعالى يمد الجاحدين والمستكبرين ويستدرجهم حتى يزدادوا غياً وطغياناً وعندها يأخذهم بغتة، ذلك مكر الله بالعباد.

وفي ذات يوم يخرج قارون على قومه في زينته أشراً متكبراً حتى بهر الناس وشدهوا من هذه الزينة، وعندها تمنى كل من يريد الدنيا أن يكون لهم ما كان لقارون وقالوا: إنه لذو حظ عظيم .. ولكن المال فتنة لمن كان نصيبه من الإيمان ضعيفاً .. أما عباد الله المؤمنين فيعرفون ماذا سيكون أمر قارون ويعرفون فتنة المال، وأن ثواب الله خير من كل ما أوتيه قارون لذلك قام الصالحون الذين رأوا قارون في زينته ينصحون قومهم أن لا يتمنوا ذلك بل يتمنوا ثواب الله في الآخرة ويعملوا له، قال تعالى: ﴿ **فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ** ﴾ [القصص: ٧٩-٨٠].

ثالثاً: عقاب الله لقارون

ولما وصل غرور قارون ذروته أخذه الله بغتة فخسف الأرض به وبداره التي استعلى فيها، حتى وقف الذين كانوا يتمنون أن يكونوا مثله حامدين شاكرين الله تعالى على أنه لم يفتنهم كما فتن قارون، وعرفوا أنها نعمة من الله عليهم، قال تعالى: ﴿ **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ** ﴾ [القصص: ٨١]، يقول سيد قطب: «وعندما تبلغ فتنة الزينة ذروتها، وتتهافت أمامها النفوس وتتهاوى، تتدخل يد القدرة لتضع حداً للفتنة، وترحم الناس الضعاف من إغرائها، وتحطم الغرور والكبرياء تحطيماً ...

---

(١) «في ظلال القرآن» (٥/٢٧١٢).

هكذا في جملة قصيرة وفي لمحة خاطفة: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ فابتلعته وابتلعت داره، وهوى في بطن الأرض التي علا فيها واستطال فوقها جزاء وفاقاً. وذهب ضعيفاً عاجزاً، لا ينصره أحد، ولا ينتصر بجاه أو مال .. وهوت معه الفتنة الطاغية التي جرفت الناس وردتهم إلى الضربة القاضية إلى الله، وكشفت عن قلوبهم قناع الغفلة والضلال»[1].

أما الذين تمنوا مكانه بالأمس وقفوا أمام ذلك المشهد قائلين: ﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص:٨٢] ..

وهكذا ينتهي مشهد قارون المتكبر المتجبر المتعالي، ينتهي بهذه النهاية الأليمة حتى صار الذي تمنوا مكانه يأسفون على حاله .. ثم يأتي التعليق الإلهي على هذه الحادثة بحرمانه أيضاً من الدار الآخرة، وأن الدار الآخرة فقط للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، ويكون بذلك قد خسر الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].



(١) «في ظلال القرآن» (٢٧١٣/٥).



فهرس
المراجع والمصادر

فهرس المراجع والمصادر

١ - القرآن الكريم.

٢- تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن)، محمد بن جرير الطبري، دار الفكر - بيروت.

٣- الكشاف. محمود جار الله الزمخشري، دار المعرفة - بيروت.

٤- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري المغربي، الطبعة الأولى ١٩٨١م، مكتبة السلام، القاهرة.

٥- تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف «أبو حيان الأندلسي»، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م، دار الفكر، بيروت.

٦- تفسير أبي السعود، محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٧- روح المعاني، محمود الألوسي، الطبعة الرابعة ١٣٧٣هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٨- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل عمر بن كثير الدمشقي، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، دار الحديث، القاهرة.

٩- فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، دار عالم الكتب، بيروت

١٠- تفسير البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، مؤسسة شعبان، بيروت.

١١- تفسير الفخر الرازي، محمد بن عمر بن الحسن، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٢- تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد رضا، الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت.

١٣- في ظلال القرآن، سيد قطب، الطبعة الحادية عشرة، ١٩٨٥م، دار الشروق، القاهرة.

١٤ – تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ١٩٨٤م الدار التونسية، تونس.
١٥ – المفردات، الحسين بن محمد «الراغب الأصفهاني»، دار المعرفة، بيروت.
١٦ – المسند، أحمد بن حنبل، دار الفكر، بيروت.
١٧ – صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل، ترقيم فؤاد عبد الباقي، مكتبة الرياض، الرياض.
١٨ – صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ – ١٩٥٥م، ترقيم فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، بيروت.
١٩ – سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، ترقيم فؤاد عبد الباقي.
٢٠ – سنن الترمذي «الجامع الصحيح»، محمد بن عيسى بن سورة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق أحمد شاكر.
٢١ – سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م، دار الجيل، بيروت.
٢٢ – فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق ابن باز ومحب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، الرياض.
٢٣ – الشكر لله عز وجل، ابن أبي الدنيا، الطبعة الثانية ١٩٨٥م، دار ابن كثير، دمشق.
٢٤ – فضيلة الشكر، محمد بن جعفر الخرائطي، الطبعة الأولى ١٩٨٢م، دار الفكر، دمشق.
٢٥ – رياض الصالحين، يحيى بن شرف النووي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثالثة، دار الفكر، بيروت.
٢٦ – شُعب الإيمان، أحمد بن الحسين البيهقي، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول.

٢٧- الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، علاء الدين علي بن بلبان، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م، دار الكتب العلمية - بيروت، تحقيق كمال الحوت.

٢٨- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله «الحاكم النيسابوري»، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٩- الجامع الصغير، جلال الدين السيوطي، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م، دار الفكر، بيروت.

٣٠- عمل اليوم والليلة، أبو بكر بن السني.

٣١- إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.

٣٢- مدارج السالكين، ابن القيم، دار الرشاد، الدار البيضاء، المغرب.

٣٣- عدة الصابرين، ابن القيم، دار عالم الكتب، بيروت.

٣٤- جند الله ثقافة وأخلاقاً، سعيد حوى «بدون تاريخ ولا مكان الطبع».

٣٥- اليوم الآخر، عبد القادر الرحباوي، الطبعة الثامنة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م، دار السلام، بيروت.

٣٦- اليوم الآخر، د. عمر سليمان الأشقر، الطبعة الأولى ١٩٨٦م، مكتبة الفلاح، الكويت.

٣٧- شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، الطبعة الرابعة ١٣٩١هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

٣٨- تلبيس إبليس، عبد الرحمن بن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٩- عالم الجن والشياطين، د. عمر سليمان الأشقر، الطبعة الثانية ١٩٨٥م، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٠- روح الدين الإسلامي، عفيف الطبارة، الطبعة السابعة والعشرون، ١٩٨٨م، دار العلم للملايين، بيروت.

٤١- قبسات من الرسول، محمد قطب، الطبعة التاسعة ١٩٨٤م، دار الشروق، بيروت والقاهرة.

٤٢- كتاب التوحيد، عبد المجيد الزنداني، طبع وزارة التربية والتعليم في اليمن عام ١٩٨٢م.

٤٣- تأملات في العلم والإيمان، نجيب غالب وأحمد سليمان، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، طبع المعاهد العلمية في اليمن.

٤٤- الله يتجلى في عصر العلم، مجموعة من الباحثين، دار القلم، بيروت.

٤٥- العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن الميداني، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م، دار القلم، دمشق.

٤٦- توحيد الخالق، عبد المجيد الزنداني، وزارة التربية والتعليم ١٩٩٠م.

٤٧- تربيتنا الروحية، سعيد حوى، الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م، دار التراث العربي، بيروت.

٤٨- السيرة النبوية، ابن هشام، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٩- فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، الطبعة الثامنة ١٩٨٠م، دار الفكر، دمشق.

٥٠- مع الأنبياء في القرآن الكريم، عفيف الطبرة، الطبعة السادسة عشرة ١٩٨٧م، دار العلم للملايين، بيروت.

٥١- مجلة النور، العدد «٦٢»، السنة السادسة ١٤٠٩ هـ، بيت التمويل الكويتي، الكويت.

٥٢- القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز آبادي، الطبعة الرابعة ١٩٣٨م، دار المأمون، القاهرة.

٥٣- لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، دار صادر، بيروت.



فهرس
الموضوعات

فهرس

الموضـــــــوع الصفحة

الموضـــــوع الصفحة

الباب الثاني

الشكـــر

الموضــــــوع | الصفحة

الموضـــــوع الصفحة

الباب الثالث

جحود النعمة وكفرانها

الموضـــــوع | الصفحة

